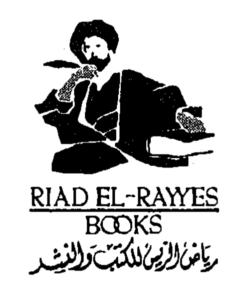

يحيى جابر
عواصم من خطأ

عواصم من خطأ




RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر

CAPITALS ON THE WRONG SIDE

BEIRUT - DAMASCUS - CAIRO - TRIPOLI

BY:

YAHYA JABER

First Published in 1998

BEIRUT - LEBANON

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 185513 285 0

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الطبعة الأولى: كانون الثاني/١٩٩٨

المحتويات

المقدمة

العزيز رياض:
تحية وبعد.

هذا النص ليس إهداءً ولا مقدمة، فاقرأ بلا غضب هذا العتب من محرر وصل باكراً إلى التعب. في مهنة بهتت ألوانها.

أعلم أنك غامرت باستثمارات وهمية، واكتشفت ذات فجر أن القراء سحبوا أرصدتهم على عجل بعد شائعة أطلقها الكبار، أن مصرفنا على شفير الإفلاس...

تخيّل أن الحرية شائعة مغرضة.

ها هم أعلنوا المزاد.

إنها التصفية الأخيرة لمصرف من أحلام وودائع من ذهب الكلام.

...

حسناً ... صرفنا ما في الجيب السرية من أفكار... ولم يطلع الغيب علينا... ونعود دائماً إلى البدايات إلى أول الحبر، ...إلى العدد «صفر» من مطبوعة لن يراها سوى قارىء حر واحد... هو الله.

أيها «الجورناجي».

وصلنا إلى نهاية القرن، وأبصرنا التحولات حتى انقرض منضد الحروف والخطاط، ولم يتغير شيء حتى في عالم الإلكترونيات.

لكن الفضيحة هي نفسها على شاشات الكومبيوتر

يتنصتون على غبائنا في الخليوي،

ونتبادل الرشاوى عبر الإنترنت.

إنها التكنولوجيا في خدمة تخلفنا الصحافي!

صحافة في منتصف ليل عربي ولا صرخة تخرج من المطبعة.

صحافة من وشوشة في الظلام.

صحافة سلّم تسلم.

صحافة من اتصال في آخر دقيقة قبل الطبع لتتحول لا إلى نعم.

صحافة من ظروف ومظاريف.

صحافة بأفواه بلا أضراس، حيث الكلمات لا تعض.

صحافة من قُبَل وتبويس.

صحافة بألسنة من كرافتات، مملّسة مكوية، تتدلى على صدر أحدهم.

...

عاشت صحافة الولاء حينما يمدّ رئيس التحرير يمينه أمام الوكيل، ويقف على قدميه بكل قوة ويرفع رأسه عالياً، وكلماته تركع، ويقسم: «أقسم بالله العظيم أن لا أقول الحق!».

«يا بياع الكتب».

علّمتني حرفاً، فصرت ملكاً على هواء، مرفوضاً، مطروداً من صحف وعواصم.

لا أحد يرغب بكتابة سيئة المزاج.

علّمتني أن أتجاوز، فتجاوزت أكثر من ضوء أحمر.

وكم من شرطي سير طاردني على دراجته..

تجاوزت، فأطلقوا خلفي عشرات الصفارات، حتى اختفيت في بيتي، وبيتي حقيبة أحملها على كتفي.

أنا حقيبة تتجول.

«أبا نجيب»،

أعتقد أنك توغلت بعيداً خلف الخطوط الحمر، وكنت بلا خوذة أو سترة واقية أو تعويذة.

وإن أطلقت صيحة استغاثة فلن يسمعك أحد، سوى تلك الذئاب التي ستنقض، حين تشم رائحة جرح ما، كالكبرياء.

في الباب الخلفي للجريدة،

لم يكن هناك حديقة أو بحيرة، أو حتى شجرة.

خلف الباب، حائط،

وخلف الحائط، باب.

وكل الأبواب الصحافية، متاهة لأرانب مثلنا.

هذا الكتاب أرفعه إليك، مستعاراً منك، من تحقيقات لعواصم من خطأ، ليوميات صحافي جوّال وقع في غرام صاحبة الجلالة التي تحولت إلى خادمة القصر، ومن صحافي مهني إلى صحافي مهان، ومن الرزق إلى الاسترزاق.

هذا الكتاب، ألملم أوراقه من الجوارير، أوضّبها، كأنني أقلب حياة سابقة، أتصفح صوراً تذكارية.

وحين أغلقت الألبوم، همست لك «شكراً» .... وبعد دقائق صرخت في المرآة:

«من حطّم عدستي، من حطم الكاميرا السرية، عيني الداخلية...؟».

حسناً، لم يبق لديَّ سوى هذه المقالات والتحقيقات أبروزها في كتاب، والكتاب خلفي، كأنه نعش من حروف إلى مطبعة... إنها الخسارة،

والأرشيف هو مقبرتنا، نزورها بين الحين والآخر، لنروّح عن أنفسنا، ونتذكر، كنا هناك.

وتتحول كتبنا إلى شواهد، إلى أضرحة من حنين.

وعسى أن تكون الصحافة خاتمة الأحزان.

يحيى جابر

خريف بيروت ١٩٩٧

القسم الأول

عواصم

- ١ -

القاهرة ١٩٩٢:
أمّ الدنيا أم أرملة العواصم؟

بين أحفاد الملوك وأولاد الثورات

من أي سور تدخل إلى القاهرة؟ كيف تقرأ هذه السلالات الحجرية المتوارثة، من أي بوابة ينفتح المشهد على قاهرة المعز؟

«أدخلوها آمنين» فدخلت وتهت وفي يدي عشرات المفاتيح لآلاف الأبواب.

لا خطوة أولى ... لكن كيف تخرج سالماً غانماً؟

وتحار ...

بين أن تلاحق أنفاس أخناتون، موحّد آلهة الفراعنة، أو تلتقط صوت عبد الناصر موحد الأمة العربية ذات ليلة، ذات خرافة.

أن تحصي تماثيل رمسيس أو مآذن القاهرة الألف.

أن تضيع من اللهفة في مقام الحسين. أو من فرقعة الضحك في شارع محمد علي.

أن تستعرض ثياباً تليق بجسد هذه البلاد، التائهة بين نقاب

المحجبات وبدلات الرقص، بين الجلابيات الشعبية وشورتات السائحات.

أن تصغي لطرفة أو شتيمة في مقهى، أو تسمع طلقات الاغتيال المتلاحقة في الحارات والقرى.

ويضيع صوتك بين رنين الخلاخيل والأساور وبين خشخشة الجنازير وصليل خناجر أصحاب اللحى والذقون.

من أين أدخل إلى ثقافة القاهرة؛ هل أتسلق قلعة صلاح الدين، أو أتأمل من شرفات الشيراتون والهيلتون:

موزعاً ...

بين المساجد المتناسلة من بعضها، أو الكنائس المخيّطة والمجموعة على حذر.

بين الشيخ الشعراوي الذي يبيع مليون نسخة من كتابه أو الكاسيت المليون لأحمد عدوية.

في متحف القاهرة ثمة مومياءات محنطة منذ آلاف السنين، في الخارج ثمة أفكار محنطة أيضاً تدعوك إلى عيش سابق يمتد إلى آلاف السنين. كأن القاهرة متحف الكرة الأرضية من حجر وبشر، من آثار ضائعة، وأفكار مشتتة، وبحث دائم عن هوية.

هل هم فراعنة أم عرب؟

مصريون أم مسلمون؟

أفارقة أم متوسطيون؟

ويكر خيط الاختلاف بين الصعايدة وأهل القاهرة، بين الهلال والصليب، بين الباشا والخواجة، بين أحفاد الملك وأولاد الثورة.

لا يختلف المشهد الثقافي المصري عن سيناريو الثقافة العربية،

مشرقاً أو مغرباً، محيطاً أو خليجاً. إنها التحولات والانهيارات نفسها، فكما بيروت ودمشق وغيرهما من العواصم تبدو القاهرة ١٩٩٢ عاصمة ثقافية تائهة بلا جلابية، ومشردة بلا طرحة.

لا يمكنك في عشرة أيام أن تلقي القبض على روح الثقافة المصرية، ولكنك تلتقط مجموعة من الصور التذكارية كأي سائح ثقافي، باحثاً عن إشارات وآثار، مثل نظرة خاطفة من الطائرة وعلى ارتفاع عشرة آلاف قدم، حيث مصر وتحولاتها من الأزرق المتوسطي إلى تدرجات الأخضر حول النيل، لينقلب المشهد نحو الأصفر الصحراوي فترى مرة أخرى، كتلة من ألوان ترابية، قاتمة، إنها القاهرة؟

تبدو القاهرة كمجلد ضخم من الإسمنت، مجلد مفتوح على الحكايات والجيوش والخرافات. ويلفتك توقها إلى الأعلى، من الأهرامات المشدودة بحجارتها، والمآذن المنتصبة نحو غيم قليل، والفنادق الشاهقة. حتى أن عبد الناصر شيّد بأموال المخابرات الأميركية التي حاولت رشوته «برج القاهرة».

هذه النظرة المتوثبة نحو السماء لا تفارق الإحساس المصري المؤمن بقوة بالقضاء والقدر والاتكال على الله، ففي أي حوار عادي يدخل اسم الله بين عبارة وأخرى: «إنشاء الله، الحمد لله، ربنا يستر. وحياة ربنا»، وغير ذلك من مفردات قاموس الإيمان والتسليم.

السماء مخرج طوارىء من لظى الصحراء وحرارة الأسعار. فسائق التاكسي الذي أقلني من المطار إلى الفندق لم يكف عن التذمر من غلاء المحروقات، لكنه حمد الله على نعمه، ثم تعوّذ من الشيطان، وسخر من الحكومة دون أن يشتمها «مالنا ومال الدولة.. كل واحد

مسؤول عن عمله أمام ربنا» ثم لعن الأولاد والزواج والحماة والوالدة والأخوة، حيث يسكنون جميعاً في شقة من غرفتين، لكنه انعطف فجأة، متمتماً بعض الآيات القرآنية مترحماً على الذين ماتوا صباحاً في الحي، إثر انهيار المبنى القديم، أثناء نومهم، فشاركته الاسترحام، لكنني انتقلت بسرعة في تداعياتي إلى الأبنية الأخرى التي تتهدم من تلقاء نفسها، كالبناء الشعري، حيث تنجح قصيدة النثر أن تحقق لنفسها توازناً على أنقاض شعر الستينيات والسبعينيات. وبالنسبة إلى بناء الرواية والقصة، الأعمال جارية في في دك عمارات محفوظ وإدريس:من الشتم إلى الانشقاق... ولكن النسائق أيقظني في نهاية المطاف، ليخبرني أن مصر وردت في القرآن سبع مرات وهي أرض مقدسة. ثم أردف وهو يشير إلى تماثيل رمسيس المتعددة: «هؤلاء أيضاً أجدادنا وإن كانوا كفاراً... وربنا يوفقك».

ثمة ثقافة شعبية تتواصل بين المحرّم والمقدس، ثقافة الممنوع المرغوب، من ثقافة قرآنية متأصلة، إلى ثقافة انفعالية مع الغرب من أيام نابليون والإنكليز. ثقافة ترغيب وترهيب، وانكفاء إلى أحاديث نبوية تسيّر حركة الناس إضافة إلى ديون باهظة تعطل حركة نهارهم.

ثمة ألغام قد تنفجر في وجهك، فالحوار الثقافي ليس آمناً، وهناك مواقف مستترة وآراء مطمورة، فلربما يكفرونك ويرجمونك بصفات ونعوت، أقلها الإساءة إلى سمعة مصر ثقافياً.

كنت حذراً في البحث عن المكبوت الثقافي المصري. فالثقافة المصرية لها جذور أساسية في الثقافة العربية، وكانت الأولى في ماراثون البحث عن أصالة العروبة وهاجس العالمية.

ومن القاهرة ١٩٩٢ ينطلق السؤال: هل ما زالت مصر «أم الدنيا» واهبة الحياة أم أنها أصبحت ثكلى العواصم التي فقدت أبناءها. وهي تنزوي في مكان ما، مكتومة، تندب فجيعتها، مستعيدة أرواح أبطالها في الفكر والفلسفة والفن والأدب والموسيقى والسينما؟

كوابيس وهلوسات والقاهرة لا تنام

كان العرق يتصبب من أطرافي كافة، حين تذمرت: «ما هذا الحر، أين الهواء». فأجابني إبراهيم عبد المجيد بثقة تامة: «لقد تغير الطقس في مصر، ليس بسبب الأوزون، وإنما بسبب حرب الخليج... لقد غيّروا فينا كل شيء. حتى مناخنا أصبح أكثر صحراوية». فضحك محمد عفيفي مطر وقال: «متى ينضب هذا النفط لنحيا بكرامتنا! هذا النفط الرجعي الخليجي سبب كل مصائبنا». فسألته بدوري عن مصائب النفط التقدمي والطليعي!... تابع محمد عفيفي مطر: «اعتقلت بسبب موقفي المعارض لحرب الخليج، وفي المعتقل كسروا أنفي، وأجبروني على ابتلاع حبوب الهلوسة، وهذه الحبوب أصابتني بالجنون، حيث أنك مثلاً ترى أمك عارية، وزوجتك تخونك، وشقيقاتك يغتصبن، هلوسات وكوابيس لا تحصى، حتى الذين معك في الزنزانة تحس أنهم يجردونك من ثيابك، كنت أقفز في السجن كالسعدان من شدة التعذيب النفسي، إنهم يريدون تحويلنا إلى قرود؟».

كان محمد عفيفي مطر يفرم الخيار، ويحزّ قطع الثلج في المطبخ، راوياً ذكريات اعتقاله، حدثنا عن شعراء قابلهم في هولندا منذ فترة أثناء مهرجان الشعر العالمي الذي أقيم في العاصمة الهولندية. وقال وهو يحضّر حقيبته استعداداً للمغادرة إلى مهرجان جرش: «علاقاتي مع الخارج لا تتعدى إلقاء قصيدة أو ندوة عن الشعر، أما في بلدي فأنا أعيش من قطعة أرض أحرثها وأزرعها، مقيماً مع

زوجتي وأولادي، فأنا فلاح ابن فلاح، العالم الجديد كارثة، وقد وضعوا جرثومة في القطن. فبعد أن كان القطن المصري من أفضل الأنواع، أصبح يحتل المرتبة الدنيا... حتى حبة القمح نخرها السوس وذلك بفضل التعاون مع الخبراء الزراعيين الإسرائيليين. الفلاحون الآن يستوردون الجبن واللبن بعد أن كنا في حالة اكتفاء ذاتي».

تشترك مصر، مثل باقي دول العالم الثالث، في ظاهرة الهجرات الجماعية: فلاحون يهجرون الأرض نحو المدن الكبيرة، وعمال يهرعون إلى الخارج بحثاً عن فرصة عمل. والمثقفون يهجرون الناس نحو الترجمات، والسياسي يهاجر صوب المصارف العالمية بحثاً عن قرض ما، والمصرفي يهجر بأمواله إلى الخارج، ورجل الدين يقود الناس في هجرة جماعية إلى الوراء، إلى قدر أعمى.

الكل يبحث عن بطاقة سفر وتأشيرة. لم تعد الأماكن مطمئنة «حتى أنهم يحاربوننا الآن، بتسطيلنا، وتدويخنا عبر سلاح المخدرات» كما أخبرني غالي شكري في إحدى السهرات.

محمد بدوي في السهرة التي جمعتنا في منزل الشاعر مطر كان لا يكف عن الخروج إلى الشرفة ليعبّ هواءً ما، أو وهم نسمة ثم يقول: «بعد يومين سأغادر إلى إحدى الجامعات السودانية لأصحح العلامات، وكنت سابقاً مدرساً في جامعة صنعاء، وأحلم بالسفر إلى جامعة بيروت العربية. الهجرة هي حبل نجاتنا، كأن القاهرة لم تعد لنا»، وبعد أن نظف نظارته من الغبار تابع: «ظللت أكتب في النقد الأدبي، حتى نسيت القصيدة. وبسبب لقمة العيش هاجرت لأصبح موظفاً نسي مهنة النقد الأدبي... إنه الاقتلاع المعنوي، من الجذور الجماعية والفردية».

القاهرة لا تنام.

لا ينقطع سيل المارة والسيارات، والساهرون المتفرقون على عشب قليل في الميادين، يبحثون عن نسمة هواء مفترشين مساحات خضراء تنقرض يوماً بعد يوم، ويتفرقون على الكباري، يتأملون النيل الراكد، وخلفهم أنوار نيون تضيء وجوههم المغبرة، حتى أن المنتظرين على النواصي يتغالبون مع النعاس، ويدخلون في النهاية بما يشبه أحلام اليقظة. تحسُّ أنهم لا يعرفون طعم النوم وأنهم في منتصف الأشياء، فيختلط الليل بالنهار، الهمبرغر بالطعمية، والفول بالبيتزا، في انفتاح فاضح على خارج، وانسحاب عشوائي إلى الداخل.

ثمة أسئلة بديهية يعاد طرحها في ثقافة القاهرة، من التشريق والتغريب، الأصالة والحداثة، الاشتراكية المقفلة، والديموقراطية الهشة، إلى الأسلمة والعلمنة. إنهم ينفضون الغبار عنا شعارات كانت مطمورة في رمل الذاكرة. من الفرعنة و«التمصير» ومن ثورة سعد إلى ثورة يوليو. وثمة فوضى في زي الأحزاب، واجترار أفكار، وأصوليات إسلامية أو قبطية بالإضافة إلى أصوليات ماركسية وغيرها من أخوات الأيديولوجيا.

إنهم يعيدون خلط الأوراق في الفكر والثقافة والأيديولوجيا، في عملية طرح أسئلة صوب أجوبة مبهمة.

في كل فنادق الشرق ثمة نافورة في قاعة الاستقبال، نافورة ماء يتكرر من بعضه البعض، يشبه الكلام العربي الذي يتغذّى من نفسه مجتراً قاموس مفرداته، وحدهم السياح يفترقون باطمئنان على المقاعد الجلدية، فتشاهد يابانياً يلتقط صورة تذكارية أمام النافورة، في محاولة لالتقاط ذبذبات عقلنا، ومصادر ثقافتنا!

إلى أي عصر تدخل؛ وأنت محاصر بين الشورت الأميركي والدشداشة الخليجية، وتحت نافورة الكلام. كان النيل هادئاً بعد منتصف الليل، وأنا أتأمله من الطبقة العشرين من الفندق، ولم يوقظني من غيبوبة الأسئلة، سوى تلك الدفوف والمزاهر وضجة السهارى في ملهى الفندق:

«إيه العظمة دي كلها. آه يا جميل يا أبهة».

معارك في الأدب و«قلة الأدب»!

ثمة هامش ديموقراطي في الحياة الثقافية المصرية الراهنة، وحرية تعبير وتعددية في الرأي، وتنوع في المنابر. وهذا الحيز من الحرية، يعتبر واحداً من خصائص وتقاليد الثقافة المصرية منذ عصر النهضة. وإن مرت تلك التقاليد بحالات من القمع والنبذ في عهود الثورة الناصرية أو في مرحلة الانفتاح الساداتي! لكن هذه المساحة المفتوحة للمثقفين تبدو منشغلة بشكل دائم بالمعارك الأدبية: حروب يقودها المثقفون ضد بعضهم البعض بعناوين فضائحية، اعتقالات آراء بالجملة ناهيك عن حلقات التعذيب اليومية على صفحات المجلات والجرائد والمنابر والمقاهي. إنها معارك لا تشبه معارك طه حسين مع العقاد، أو غيرها مما يستند إليه بعض المثقفين لتبرير ثقافة الفضيحة وهتك الأعراض وكذا من الشتائم والاتهامات.

من مقهى زهرة البستان إلى مقهى الحميدية، أو صالة الأتيليه، إلى المكاتب الصحافية أو السهرات في «الأوديون» أو «ستيلا»... تبدو النقاشات الثقافية أشبه بحلقات جلد متفرقة، وسلخ للأسماء من نصها ولحمها وأخلاقها، ليتحول الحديث إلى جثث هامدة على مشرحة الألسن، كأن وارثي المعتقلات يتحولون إلى جلادين بالجملة، في احتفال سادي جماعي.

المعارك مفتوحة بين الجميع. بين كل التيارات والأجيال، بين النقاد والروائيين، بين شعراء التسعينيات والستينيات، بين النقاد أنفسهم، بين محرري الصفحات الثقافية، وتتجاوز هذه الحروب حدود النص إلى الأرشيف الشخصي وسلالة العائلة أو الانتماء الديني.

معركة بين الناقد فاروق عبد القادر وجمال الغيطاني، بين رجاء النقاش وعبد القادر، وأحمد عبد المعطي حجازي، حول مفاهيم الصفوة والحرافيش. بين مصطفى هدارة والمثقفين،بين إبراهيم فتحي وإدوارد الخراط، بين الخراط والغيطاني ومحفوظ.

وتكر قائمة الاتهامات على صفحات الجرائد من اتهامات متبادلة، فلان عميل للعراق، لنظام صدام حسين، وأعماله تترجمها المخابرات.. آخر يتربح من سيطرته على صفحته الثقافية، ويعتاش من جهة خليجية. وإن نجيب محفوظ لولا إسرائيل لما نال جائزة نوبل. وفلان كان مخبراً ثقافياً عند جهاز المخابرات. وذاك الناقد شاذ جنسياً، وآخر سرق أعماله من المؤرخين، وآخر يذهب إلى إسرائيل، أو أنه عميل للمخابرات الأميركية.

[عراقي ـ خليجي ـ ليبي] [كاتب تقارير ـ عميل للسلطة]. تقوم معظم المعارك على أساس العمالة للخارج والتخوين في الوطنية ثم الرشوة والاستغلال لصغار الصحافيين والكتبة، بالإضافة إلى هتك الأعراض، والمحرّمات الأخلاقية.

[من القاموس: شاذ، سكّير، حشّاش].

من المعارك التي تلفت الانتباه، ما حصل بين مصطفى هدارة وجماعة من المثقفين. ومصطفى هدارة هو أستاذ في الأدب في جامعة الإسكندرية، حائز على جائزة صدام حسين قبل حرب الخليج وحائز على جائزة الملك فيصل بعد الحرب. بدأت القصة

حين أرسل هدارة خطاباً مطولاً إلى مكتب رئاسة الجمهورية يتهم فيه وزير الثقافة فاروق حسني وكلاًّ من سمير سرحان وأحمد حجازي وجابر عصفور وغالي شكري أنهم شيوعيون، ويحاولون السيطرة على الثقافة المصرية من منابر وأدوات، ويدعو رئيس الجمهورية إلى عزلهم ويحذره منهم ومن ألاعيبهم. ولكن من سوء حظ هدارة أن رئيس الجمهورية أرسل الخطاب إلى المعنيين بالاتهام، وهو تقليد جديد في الدولة لم يكن يحدث في الجمهوريات السابقة، حيث كانت ترد الشكاوى إلى المعنيين بالأمر. وحين وصل الخطاب إلى حجازي نشره حرفياً في مجلة «إبداع» ناشراً رده عليه في العدد نفسه كاتباً أنه: «يمارس الوشاية ويقود الحياة الثقافية المصرية لعصر محاكم التفتيش»، مدافعاً بشدة عن زملائه المثقفين موضع الاتهام. وبدأت رسائل التعاطف ترد إلى حجازي من جماعات الأدباء في الأقاليم. فرد هدارة بتوقيعات أخرى، لكن معظم الذين وقعوا مع مصطفى هدارة أعلنوا في بيان أنهم لم يوقعوا شيئاً، وأنهم متعاطفون مع حجازي، عندها انسحب هدارة من المعركة قائلاً أنه لم يكتب إلى رئيس الجمهورية وشاية وإنما «شكاية».

يبدو إدوارد الخراط للوهلة الأولى أشبه بشخصية التحري في الرواية البوليسية، رجل هادىء يصغي إليك، يبتسم بحذر. يهز رأسه بخجل. وتبدو غرفته أشبه بصومعة باحث في التاريخ أو عالم في الآثار. مجلدات ضخمة على الرفوف، كتب في الصناديق الكرتونية، ومتفرقات من اللوحات والأيقونات، وتماثيل صغيرة للفراعنة... ويتفرق كلامه بين وصلات من صمت متقطع:

«أنا محبط مما يجري. لقد قلت رأياً عابراً عن محفوظ وإدريس، أنهما متوسطا القيمة. وطلبت من الصحافي عدم نشر ذلك، ولم يكن قولي

عن الغيطاني أنه رجل مخابرات، من باب التشهير، لكن المحرر الصحافي كان يبحث عن الإثارة والفضائحية ولم يحترم الأمانة الصحافية... لقد كنت أول من كتب دراسات عميقة عن أدب محفوظ... وسأعيد نشرها رداً على هذه الفضائحية في حياتنا الثقافية، وكم أتمنى أن تعود إلى تقاليد الحياة الأدبية الرائعة كما كانت في الأربعينيات والخمسينيات».

يحتفظ الخراط بأرشيف ضخم لأكثر الشعراء والقصاصين الذين قدمهم في السبعينيات والثمانينيات، حيث لكل شاعر أو قاص، ملف خاص به، فهو متابع بعمق لكل حركة شعرية أو قصصية، ومحرّك ثقافي لندوات أو مجلات أو جماعات أدبية، حريص على تقديمها خارج مصر بعناية. وربما جعلت منه هذه الحيوية موضع أسئلة وشك بكونه راعي الجماعات، وصاحب طريقة في الأدب. ويتميز الخراط بأنه يبحث عن لغة خاصة لروايته وشخوصه، ويهجس بالرواية ـ القصيدة ـ مع قاموس ضخم من الشعر، مستلهماً المصادر القبطية والمسيحية في أعماله، وهو يشبه جمال الغيطاني في غرفه من الإرث الإسلامي الشعبي.

والغيطاني والخراط هما الروائيان الأكثر حضوراً في المشرق والمغرب بتجربتيهما بعد محفوظ وإدريس، ونتساءل هل أن المعارك بينهما هي خلاف على الإرث والإمارة؟! انطلاقاً مما كتبه عبد الفتاح رزق في روز اليوسف «أنه بعد رحيل يوسف إدريس وبعد أن قلّ نتاج نجيب محفوظ أصبح المكان شاغراً لمن يتولى إمارة القصة والرواية».

التقيت بجمال الغيطاني في مكتبه بجريدة «الأخبار»، وكانت تبدو عليه ملامح «ابن الحتة» سمات وثقافة وسلوكاً. فالرسوم الدينية وحواري صلاح عناني والخرز الأزرق المعلق على الجدران كانت

توحي أننا في غرفة شعبية، حتى إن المشهد من النافذة كان يطل على مواقف للباصات، وأسطح البيوت التي تعج بالفوضى والزحام. لكن الغيطاني يقلب المشهد إلى التراث، والمشاغل الصوفية، لذلك كان حديثنا في البداية عن مقام الحسين، وسيرته، وكربلائيته، وكان الحديث يتقطع بين العامية والإنكليزية بسبب وجود المستشرقة الإيطالية «باربرا بيتي» التي تعد دراسة عن أعمال الغيطاني، ولكن الحوار سرعان ما استقام بالعامية حين سألته عما يجري في الحياة الثقافية الراهنة، وخفايا المعارك بينه وبين الآخرين... فاسترسل يقول:

«قل لي عن ماذا أدافع ... يطالبني أحدهم أن أترك صفحة الأخبار وأن لا أعمل مستشاراً في دار نشر، بمعنى أن لا أعيش من مهنتي كصحافي، واتهامي كعميل للمخابرات، هو أمر ملتبس، فلقد كنت مراسلاً حربياً على الجبهة، مثل أي صحافي، وكتبت عن الجندي المصري على الجبهة... أليس الجنود من الشعب؛ لقد عرفت المعتقلات وذقتها، وفي أيام السادات انزويت سبع سنوات ووصلت إلى درجة الاكتئاب النفسي، وحين استلمت صفحة الأخبار كانت هناك قائمة من الأسماء الممنوعة ومنهم الذين يشتمونني الآن واستطعت أن ألغي تلك القائمة وكلفني ذلك معركة مع إدارة التحرير. صفحتي مفتوحة للجميع مع أن الصفحة هي أسبوعية، ولا تتسع لآلاف الأخبار. وعملي كمستشار لدار نشر يساهم بشكل أو بآخر بطبع المؤلفات والإبداعات المصرية التي لا يجد أصحابها من ينشر نتاجهم، أما بالنسبة للسرقة من التراث، فهذا لا يتعدى الاستلهام، كما يفعل معظم أدباء العالم أثناء بحثهم عن الأصول. وإذا تُرجمت بعض أعمالي قالوا إنني أدفع للمستشرقين، لكن ماذا تقول عن دار بنغوين الإنكليزية التي بادرت إلى ترجمة أعمالي؟ وإذا دافع أحد الأصدقاء عني، قالوا إنني دفعت له... ليكتبوا أنني أديب سيئ

وأن نصوصي لا تعجبهم، وهذا من حقهم. أما أن أتحول إلى رجل بلا أخلاق... فهذا لا يمكن أن أسمح به، وهذا حق لي».

قال لي أحدهم:

«إن هذه المعارك قد حادت عن جادة الصواب، ويمكن أن تشم منها رائحة مؤامرة على المثقفين المصريين من قبل النظام.

أما منى أنيس (محررة رئيسية في الأهرام ويكلي) فقالت:

«يجب أن تخرج هذه النميمة من المقهى إلى صفحات الجرائد، لماذا نخشى الفضيحة، ما دمنا كلنا في هذه المذبحة؟».

أما غالي شكري فلقد أصابته هذه المشادات بالاكتئاب، مما جعله يقول:

«إن ما يجري ليس معارك أدبية وإنما دخلنا في حالة «السطلنة» هذه الشتائم المتبادلة جاءت لتدخلنا في حالة تشتت وضياع... قد لا يوجد الآن مثقف معتقل، أو في السجن بسبب عمل إبداعي، فوزارة الثقافة الآن ناشطة، من المهرجانات والندوات وبناء قصر الأوبرا كتحفة فنية إلى إعادة فتح المتحف المصري بعد إغلاقه لعشر سنوات خلت. والآن نحن في مناخ ديموقراطي نتبادل السباب... هل يجوز أن تصبح العلمانية كفراً، وأن تكون عروبياً فتُرجَم؟ أنا من المؤمنين بالانفتاح على الثقافة العربية ولقد مارست هذا في كتاباتي النقدية».

ثقافة المقابر

من الأهرامات حتى مقام الحسين

لكثرة ما رأيت الأهرامات في البطاقات التذكارية والأفلام وغيرها من الملصقات، خفّت حماستي لرؤية هذا الأثر، لكن حب الاستطلاع دفعني لجولة حول خوفو وخفرع ومنقرع، وحين توقفت أمام قاطع التذاكر قال لي:

ـ أنت أجنبي؟

ـ لا ... أنا عربي.

ـ يعنى أجنبي.

ـ كما تريد.

ـ إذاً ... عشرة جنيهات.

حاول سعد ومحمد، مرافقاي في الرحلة أن يصححا هذا الخطأ العروبي مع قاطع التذاكر الذي لم يهتم للأمر، وحين وصلنا إلى الحارس على مدخل الأهرامات، أخذ البطاقات قائلاً لي:

ـ الأخ ... عربي؟

ـ لا ... أنا لبناني.

ما أفرحني، هو مشهد عاشقين يتفيآن أحد حجارة الهرم العملاقة، خطيبان مع ترمس قهوة وسندويشات، يحلمان، ويتشاجران، ويتلامسان بخفة. «هذه المقابر تدر علينا عملة صعبة» يقول سعد (صحافي في جريدة الأهرام). أما محمود فقال «نحن الصعايدة الذين بنينا الأهرامات، وعظامنا تحت هذا الرمل مطمورة منذ آلاف السنين، ومع ذلك ينظر إلينا أهل القاهرة على أننا سذج ومتخلفون». ثم يقف سعد مشيراً إلى أحد الأحجار: «وزن الحجر خمسة أطنان أو أكثر.. إيه التعب ده... إنها حضارة قبور». فأقول: «لكنها واحدة من عجائب الدنيا السبع» فيجيبني محمود بسرعة: «ونحن أيضاً شعب عجائب».

تحت هذه الأطنان الضخمة من الحجر، ثمة أرواح هائمة في الصحراء، أرواح من عاشوا ليعمروا قبراً لملك. أجيال تلو أجيال انقصفت لبناء هذا الصرح، هل الحضارة قبر؟ لكن ما تركه الفراعنة

يتجاوز ذلك نحو الآداب والفنون والهندسة، مع ذلك فهي تميل إلى فكرة الخلود، وثقافة ما بعد الموت.

مرّ أمامي الدليل العجوز يتوكأ على عصاه، يقود قافلة من الإنكليز والسياح العجائز. لكن مرة أخرى، لفت انتباهي منظر العاشقين الصغيرين اللذين استكانا، بعد شجار، متوحدين.

لم تكن الشمس من فوقنا ذهباً، وإنما ناراً ملتهبة. والرمل الذي نمشي عليه لم يكن ناعماً أو حنوناً بل جمراً يتّقد... كيف كان الطقس إذاً منذ آلاف السنين؟

«لو أهدر الناس وقتهم في حفر قنوات للنيل في الصحراء ألم يكن ذلك أجدى نفعاً وأكثر حضارة؟» هكذا لم يكفّ سعد عن التساؤل، فيما أنا أتأمل كتف أبو الهول المخلوعة التي يحاولون ترميمها، والسياح يتصايحون أثناء التقاط الصور، كالسعادين. ثم أردف سعد: «ها نحن نبيع موتانا ملوكاً وشعوباً... لهؤلاء الذين يسرقون مليارات الدولارات من ثرواتنا، تحت حجة الديون الخارجية. ونحن نخطف منهم حفنة قليلة من الدولارات، لقاء استئجار حمار أو حصان، وأهل نزلة السمّان المجاورون للهرم، يسرقون الفخار والتماثيل، ويبيعونه للأجانب أنهم يشترون قبورنا بأبخس الأسعار».

غادرنا الأهرامات في أسرع رحلة سياحية قمت بها، وتركنا خلفنا حصاناً شارداً لوحده في الصحراء، وصاحبه يركض خلفه. بينما السائح الإيطالي يصرخ وقد وقع على الأرض.

قال لي محمود: «هنا أقاموا أوبرا عايدة. هذه الأوبرا انتظرناها سنة كاملة من الإعلانات والتشويق. وحين تفرجنا عليها على شاشة التلفزيون لم نفهم شيئاً مما قالوه. ولم نعرف ما هي الأوبرا ومن هي

عايدة. ولماذا هذا البذخ... ونحن نموت من الجوع والفقر».

الموت هو سيد المكان والزمان، الموت حاضر بقوة في الجوار. لذلك اقترح عليَّ سعد ومحمد أن أزور مقابر قايتباي، حيث يقطن آلاف الناس في المقابر التي فرشوها وسكنوها وأصبحت مثل الشقق المفروشة.

فمن مقابر آلاف السنين انطلقنا إلى مقابر القرن العشرين، وبدأت أشعر برائحة الآخرة، في ذلك النهار الحار، وبدأت الصور تتوالى على الشاشة الممتلئة بالغبار، فتذكرت جنازة عبد الناصر حين شيعه الملايين على ضفاف النيل، وتجمعوا في أكبر جنازة تاريخية. ومرت أمامي جنازة عبد الحليم حافظ حيث انتحرت نسوة كثيرات لأجله، وتوالت مشاهد الولولة والزغاريد وحلقات الندب التي تملأ الفيلم المصري والرواية المصرية، فما قرأت رواية مصرية إلاّ وكان هناك جنازة أو مأتم، وتوقفت كثيراً ـ في سياق التداعي ـ أمام تمثال «كاتمة الأسرار» لمحمود مختار في متحفه وتلك الحالة الانطوائية إلى الداخل. حتى إن مشهد ملايين الناس في ميدان التحرير الراكضين خلف الباصات يوحي بأنهم في جنازة ضخمة يشيعون شيئاً ما، ومرَّ مثل لمح البصر في خيالي موت «فهمي» أحد أبطال نجيب محفوظ في ثلاثيته، وبكاء أمه «أمينة» وانزواء أبيه أحمد عبد الجواد، وبعدها موت الشقيقة وأطفالها. حتى أن النسوة في الشارع يغلب عليهن ارتداء الثوب الأسود فستاناً أو جلابية، كأنهن رايات سود، ترفرف على الأرض التي خرج منها «كتاب الموتى» أقدم نص شعري كتبه الفراعنة.

هل يتوارث المصريون رعشة الحزن وشفافيته؟ وحين لمحت النيل تحول فجأة في مخيلتي إلى جنازة أوزيريس أعظم آلهة مصر

القديمة، وهو حامي الموتى الذي قتل وبعث بفضل زوجته.

أصريت على ركوب الميكروباص في طريقي نحو مقابر قايتباي، وانحشرت مع الركاب لأشم رائحة عرقهم وأسمع أصواتهم وهمهماتهم واستنكاراتهم، وبدأ الركاب يتزايدون بشكل عجيب وغريب كأننا في يوم القيامة. أجساد متراكمة على بعضها البعض، في جدارية من النساء والرجال والأطفال، وجميعهم في طريقهم نحو البيوت الترابية المنخفضة وليس نحو عسل السماء ولبنها.

لحظة وصولنا، خرجت من الميكروباص بصعوبة، وكدت أنسى رأسي بين الركاب. ومن فوق اوتوستراد مدينة نصر لاحت لي المقابر المفروشة للإيجار. هنا مقابر عائلات وباشوات، لا يقطنها حفارو القبور أو غاسلو الأجساد وإنما الآلاف المؤلفة من العائلات.

دخلت وبسمل صاحبي: طريق ترابية، أقفاص وأضرحة وناس بملامح ترابية، وتأكدت أن الإنسان ولد من طين فعلاً. تلك السحنات القاسية المتعبة بدت حنونة رغم شراسة نظراتها التي كانت تحدق بنا. تنخطفان إلى تلفزيون ملوّن على ضريح عائلة المنيلاوي تارة وإلى بابور كاز على قبر مجاور تارة أخرى حيث امرأة بدينة تطبخ في حلّة وحولها قطار من الأطفال، ورجل يدخن الشيشة مادّاً قدميه على قبر صغير. توقفت قليلاً لأتأمل المشهد، لكن الرجل أخذ نفساً عميقاً حين لمحني، ونظر إليَّ شزراً فبادلته بنفس عميق لأضبط نبض قلبي بعد أن أخبرني سعد أنه: «هنا في هذه المقابر يقطن البلطجية وباعة المخدرات وهم يتحدّون الشرطة ويخشون الغرباء». فعقب محمد: «وانتبه أيضاً على الحقيبة من لص عابر. ولا تنس أن معظمهم من أفقر الناس». في تلك اللحظة أو بعدها بقليل، قفزت قطة من أحد أقفاص المقابر، وتبعها كلب

ينبح، وخلفهما امرأة تحمل عصا: «حتة اللحمة يا أولاد الكلب».

حاول سعد أن يطمئنني: «لا تخف، إنهم أموات جميعاً، من الراقدين تحت التراب إلى الراقدين فوقها». وتبسمت حين رأيت فوق أحد الأضرحة دكاناً صغيراً لبيع المرطبات وزجاجة كوكاكولا على شاهد قبر! «حاجة سقعة يا بيه». ومن إحدى الزوايا لمحت ضريحاً ضخماً مغطى بسجادات من الآيات القرآنية. وعلى حائط مجاور أفيش سينمائي لنادية الجندي، ثم سمعت صوت عمرو دياب يصدح من إحدى المسجلات، مترافقاً مع صوت زمور إسعاف أو شرطة! وقد شعرت برعشة خطر خفيفة، بسبب تلك العجوز التي كانت ترقبني وهي تدخن وتسعل.

حاول بعض أحفاد العائلات الحفاظ على مقابر أجدادهم، فوضعوا حراساً على الأقفاص، لكن الحراس استغلوا ذلك وحولوا بعض الأقفاص إلى غرف مفروشة للإيجار شهرياً أو يومياً لمن يريد قضاء متعة عابرة أو لمطارد أو هارب من السجن.

ماذا عن ثقافة المقابر وتعبيراتها وإشاراتها؟ «وحده خيري شلبي الذي يقطن في المقابر كتب عن تجربته». كما يقول سعد ويردف: «ناهيك عن بعض أفلام السينما التي صورت السكان بشكل ساذج وسطحي ومضحك بالإضافة إلى عشرات التحقيقات الصحافية العابرة وخصوصاً الأجانب» فتساءلت: «ترى هل تتحول هذه المقابر إلى آثار سياحية... من يدري؟» ولكن المفاجىء أكثر هو أن تتحول المقابر إلى أحياء شعبية، والأحياء إلى ما يشبه المقابر المتراكمة فوق بعضها البعض. فمثلاً في منشية ناصر يقطن حوالى ثلاثة ملايين مواطن، ومعظمهم عاطلون من العمل أو أنهم يعملون في تجارة الحشيش أو في تجارة المزابل، التي يتم تفريغها، وتقسيمها،

وتصنيفها. وحين أجرت إحدى المجلات الأجنبية تحقيقاً مصوراً عن الموضوع، أثارت فضيحة، حيث ظهرت الكنائس ممتلئة بالزبالة.

في اللحظة التي تجمع فيها الأولاد خلفنا، بدأنا نحث الخطى بعيداً عن خطر وهمي، ثم وقفنا فوق الجسر المشرف على المقبرة. وتأملت هذا المشهد السوريالي، إنها خرافة عيش، هل ينفجر هذا الضغط؟ هل تبدأ القيامة؟ وفجأة انطلق صوت أذان المغرب من مئات المساجد، عندها قال لي سعد: «صوت الأذان هو الذي يحقق التوازن في المجتمع المصري». إنهم يستسلمون لقدرهم، مؤمنين بيوم آخر، إنهم ورثة الأجداد، ورثة أوزيريس وبعثه.

من أقفاص الموتى وجيرانهم الجدد توجهنا إلى قفص «الحسين» ومقامه. فهو لا يبعد كثيراً عن مدافن قايتباي. الفاطميون هم الذين أتوا برأس الحسين من العراق، وشيدوا له مقاماً في مصر، ليتباركوا به. ويعتبر مقام الحسين من أكثر المقامات تقديساً، وفي باحته الخارجية يتجمع المتسولون والمعوقون، هو المخلّص، رأسٌ تحول إلى رمز، وحول القفص كانوا يدورون، ويتلمسون الدرابزينات النحاسية، يلهجون بالأدعية، امرأة تبكي زوجها الذي اختفى في الخليج، وأم تدندن: «يا حسين... لم يعد ولدي من ألمانيا». وأب يدعوه لأن ينجّح ابنه في امتحانات الثانوية العامية. حول القفص تجار وفقراء، نساء وصبايا، حاسرات ومحجبات، أطفال وجنود. ودمع كثير.

«من هذا المقام استوحى محفوظ وإدريس وحقي أبطال رواياتهم. الأبطال المشبعين بالشفافية والحزن، والبحث عن لحظة توازن» قال سعد وأصرّ على مفردة توازن في كلامه، فالمصريون عموماً مؤمنون بأهل البيت، ولكنهم لا يصلون إلى حدود الكربلائية، فهم

يحتفلون بعيد ميلاد الحسين، رقصاً وغناء وفرحاً، إنهم يبعثون البطل والشهيد، لتتحول الجنازة إلى عرس. إنهم يحتفلون بالولادة أكثر من الموت.

إن أقصى حدود الحزن هو الضحك، لذلك لا يكفّ المصريون عن إلقاء الطرفة واستحضارها، فالسخرية هي وجه آخر للبعث والتوازن، وفي ميدان الحسين انطلقت الزغاريد فجأة، من نسوة أخذن يتجمعن، وحولهن يتجمع الشباب، «سيأتي بعد قليل عروسان ليتباركا من الحسين، ثم يرقصان، فتلتقط لهما صورة تذكارية» قال محمود... تختلط أجواء المآتم بمناخات الأعراس؟ كيف تتشابك إشارات وطقوس الموت والحياة مع بعضها؟ لعله السر المصري في العيش.

ويسكي بالأرواح

كنت في طريقي أنا ومحيى الدين اللاذقاني (شاعر سوري) إلى منزل غالي شكري في الزمالك، فلفت انتباهي سرادق عزاء قبطي امتد ليصل إلى الشارع، وكان نفر من المعزين يتوزعون على كراسي فخمة، وسجادات تصل إلى طرف الرصيف، في أجواء أبهة مصطنعة، قال لي غالي شكري: «هذا العزاء لواحد من أقاربنا، وقد تكلفوا ألوف الجنيهات، لبناء هذا السرادق وحواضره. والعزاء يتحول إلى مناسبة لعقد الصفقات»، وهنا.. تحول الموت من الجلالة والمهابة والبساطة إلى تجارة ومناسبة لعرض العضلات المالية، وغيرها من الاستعراضات!

في سهرة اليوم التالي اجتمعنا في منزل سعيد الكفراوي (قاص) وتحولت السهرة في منتصفها إلى جلسة استذكار وبعث أرواح

موتى من أصدقاء وأقارب، حيث رفرفت روح الشاعر أمل دنقل فوق الرؤوس وكيف كتب أجمل قصائده أثناء مرضه بالسرطان. وكيف فتش إبراهيم أصلان عن دواء له في كل الصيدليات «لم أستطع أن أراه، كنت أخشى ذلك... وحين لمحته، كان قد تحول إلى عظم...» تلقف سعيد الكفراوي الحديث عن أصلان وروى كيف مات صديقه القاص يحيى الطاهر عبد الله في حادث سيارة. «كان يحيى سكّيراً يحتفل بموته... كأنه يحدس بذلك... لم يكرّمه أحد حين مات» ثم تبادل الكفراوي وأصلان ذكرياتهما عن صديق تشكيلي شاب أخبرهما أنه سينتحر في تلك الليلة، وانتحر فعلاً.

وحاول غالي شكري أن يفتح مسارب أخرى للذكريات، أن يحولها إلى مقلب آخر، بطرفة ما، لكن محمد القيناوي (محرر في الشؤون العربية في مجلة «صباح الخير») لم يستطع منع ذاكرته المشبعة بالاعتقال من استرجاع عشر سنوات ضاعت من عمره بين الزنازين المتفرقة وتقطيع الحجارة في الأشغال الشاقة، متذكراً الذين ماتوا قهراً، كذلك الأحياء ـ الأموات بسبب التعذيب.

لم تكن الأحاديث عن الموت وتفاصيله، فجائعية بقدر ما كانت استحضاراً خفياً لذكريات ودموع تتساقط في كؤوس الويسكي خصوصاً ضحكات الكفراوي وأصلان وهما يتبادلان أنخاب الأصدقاء والترحم عليهم.

حاول غالي شكري أن يمنع الاكتئاب عن الحاضرين، ولم يستطع بسبب انتقال الحديث مرة أخرى إلى الأحلام والكوابيس، وأن هزّ الأسنان في الحلم يعني موت صديق أو قريب.

حين غادرنا السهرة، كنت أسمع خلفي ضجة بكاء، من مكان ما،

ولم أعلم أنني أنا الذي يشهق من الداخل، وحين نزلنا فجراً من مقهى الأوديون، كان هناك قمر يسطع في السماء، وقبل أن يودعني محمد القيناوي، روى لي ـ على ذمته بالطبع ـ كيف أن كامل الشناوي كان يحب المطربة نجاة الصغيرة، واستأجر لها شقة، وفي أحد الأيام فوجىء بيوسف إدريس بالبيجاما في تلك الشقة. عندها كتب قصيدته الشهيرة، «لا تكذبي إني رأيتكما معاً».

من مقابر الأهرام إلى مقابر قايتباي. ومن مقام الحسين حتى آخر سهرة، ثمة ثقافة موت، ثقافة دمع شفاف تليق بمصر وأهلها.

أيها الأخوة المواطنون...

... إنهم يقتاتون من ٥ حزيران/يونيو، يجترون الهزيمة، وكأن حادثة الطائرات التي تحطمت ذات فجر، لم تكن منذ ٢٥ سنة وإنما البارحة، في تلك السهرة في أحد المقاهي الشعبية، كان هناك الناقد عبد الرحمن أبو عوف، وإبراهيم عبد المجيد، وعبد الوهاب الأسواني. وكان عبد الناصر بطل السهرة، سواء بدا محبوباً أو مكروهاً، مرغوباً أو منبوذاً.

ومع زجاجات «الستيلا» والفول النابت والترمس والكعك، والبيرة خارت ذكريات الأصحاب: أين كانوا ليلة ٢٣ تموز/ يوليو، وحين أمم القناة، ليلة تقديم الاستقالة، وبدأوا يحاكمونه، ويعاتبونه، كانت الدموع تطفر من عيني إبراهيم عبدالمجيد والبحّات تتعمق في صوت الأسواني، والارتجافات تتتابع في يد أبو عوف! ولا تختلف هذه السهرة عن أية سهرة أو جلسة أخرى، لجيل، ترمّد في ٥ حزيران/ يونيو، وتوقف الزمن بالنسبة له عند العام ١٩٦٧. في معركة استنزاف مع الكتابة واستحضار الذات، من معتقلات عبد

الناصر إلى لحظة «حنحارب» كانوا يتهدجون في الكلام، كأن البطل لا يموت.

ترى ألم ينهض اليابانيون من هزيمتهم؛ ترى ألم يتخلص الألمان من كارثتهم؟ وأسئلة عن خبز الديموقراطية أو ديكتاتورية الخبز. بين السد العالي وبين حرية الصحافة ومجانية التعليم، أو تعدد الأحزاب. من تصدير الثورة إلى اليمن وليبيا وسوريا إلى استيراد القروض والفنادق. في كل سنة الجميع يتذكرون الثورة. من السياسي إلى الديني، ومن المثقف الموالي إلى المعارض، بالإضافة إلى سيرة برلنتي عبد الحميد وعلاقتها بالثورة وعبد الناصر من خلال زوجها المنتحر عبد الحكيم عامر.. وكتاب «المشير وأنا». من الإيمان الأعمى بالناصرية إلى فضائحية الثورة. وأتساءل ماذا بقي من عبد الناصر سوى هذه السهرة من الدمع على زجاجة بيرة!

يبدو كأن الخارج يعود لينتقم من أخطاء ثورة أو أوهامها. الخليج حاضر بقوة في الثقافة والشارع بعد أن كانت الناصرية تحاول التغلغل في اليمن والكويت. والمشاريع القومية العربية والوحدة مع السودان، ووادي النيل، ترتدّ الآن تهريب أسلحة من السودان للجماعات الأصولية، بالإضافة إلى هجرة كثيفة للسودانيين نحو مصر، والذين كانوا في أفغانستان مع الثوار عادوا إلى مصر، مدربين ومتشبعين بالروح الأصولية أكثر، والأمبريالية الأميركية أصبحت حليفة وتطالب بفوائد قروضها، ومن عدم الانحياز وتيتو، إلى فرقة صغيرة إلى سراييفو، وياسمين الخيام تغني لمسلمي البوسنة والهرسك، ومن تأميم القناة إلى تهريب المخدرات عبر صحراء سيناء نحو عروق المصريين.

هل ينتقم الخارج الآن، من ماضٍ عنيد؟ هل تدفع القاهرة الآن ثمن

حسابات قديمة؟ هل هو الثأر القديم يطل برأسه تحت شعار العالم الجديد؟

من رُد قلبي، واحنا الشعب، إلى الإرهاب والكباب وأيس كريم في جليم.

من واقعية اشتراكية بلا روح إلى فانتازيا بلا طعم، الثقافة المصرية تعيد الآن خلط أوراقها، وتحاكم نفسها في السر والعلن، إنها تروّض خيبتها، بقسوة حتى أقصى درجات الحب.

حضرة الباشا ... دشداشة

هناك خلافات جوهرية بين المثقفين المصريين حول الدور الخليجي المتنامي في الثقافة المصرية. ويدل على ذلك الكلام الذي تسمعه في المقهى أو تقرأه على صفحات الجرائد، عن تمويل خليجي لمعظم الندوات والمهرجانات الثقافية والمشروط بموقف سياسي معين.. وثمة رشاوى ضخمة وغيرها من الاتهامات الموجهة إلى مثقفين ومسؤولين ومنشطين في الحياة الثقافية المصرية.

«حين انفجرت المعارك في عاصفة الصحراء، أصابتنا الشظايا في صدر ثقافتنا». هذا ما يقوله أحدهم الذي رفض أن يذكر اسمه، خوفاً من أن يحارب في وظيفته، ويتابع: «لقد أصبح الرقيب الخليجي يشرف على كتبنا ويتهمنا بالتعرض للمحرمات والمقدسات، فنتعرض للمصادرة ونحارب بكافة الأشكال». وقد أخبرني أن مسرحياً شاباً يدعى منصور محمد منعت مسرحيته «اللعبة»، أثناء مهرجان المسرح التجريبي، بأمر من دولة خليجية بحجة إهانة الأماكن المقدسة. وإضافة إلى المنع، تعرض هذا المسرحي للحصار المادي فطرد من وظيفته، وبسبب الضغط

النفسي مات منصور محمد كمداً وهو في ريعان الصبا، ثم أردف الشاب يقول: «إنهم يجبروننا على الانتحار». وأكمل قائلاً: «إن الرقيب الخليجي يسيطر على مسار السينما المصرية وذلك من خلال سوق الفيديو، فالإعلانات يحتكرها الوكيل الخليجي، وهكذا تمّ إنتاج مئات الأفلام من سينما المقاولات. حتى أن ممولاً خليجياً، ينتج لنجمة معينة لأسباب خاصة، وبعضهم يحارب السينما المصرية من خلال إغراء الممثلات على ارتداء الحجاب بأموال طائلة. ويقال إن من الأسباب الرئيسية لانحدار المسرح المصري جمالياً جمهور الصيف الخليجي، لقد سرقوا أرشيفنا المسرحي بأبخس الأثمان، وفي الموسيقى هناك جيش كبير من المطربين والمطربات يعمل في خدمة السائح الخليجي، وتطلبه الاستهلاكي للصرعات. وهذه الموسيقى تدعى كاسيتات الصيف. حتى أن مثقفينا أصبحوا موظفين بيروقراطيين في الصحافة الخليجية، يكتبون تحت وطأة قائمة من الممنوعات. لم تعد القاهرة عاصمة للتنوير وإنما سوقاً للمستهلك الخليجي في السياحة والثقافة والسياسة والفتاوي الدينية ودور النشر... وكل ذلك عبر الوظائف والمناصب والجوائز والهدايا».

ووجدتني أسارع إلى التساؤل التالي: هل يتحول النفط الخليجي إلى مشجب جديد نعلّق عليه هزائمنا؟

فلكثرة ما سمعت من مفردات حول النفط والخليج وقوات الانتشار، أحسست بأننا أدخلنا شعاراً جديداً إلى قاموسنا القديم، فبعد استهلاك شعارات ومفردات مثل: النكسة، الهزيمة، الاستعمار، الأمبريالية، ثمة يافطة عريضة يجري رفعها، تفيد بأن الخليج هو سبب مصائبنا، بعد أن كانت إسرائيل سبباً في تخلفنا

وانهيارنا، وكذلك الفرنسيون والإنكليز والأميركان. تساءلت ولم أجد جواباً مقنعاً، فنحن عادة نميل إلى عدم كشف أوراقنا الداخلية، ونلجأ دوماً إلى اتهام الخارج دون أن أنسى أو أغيّب أهمية ما يهجس به صاحبي في كلامه عن رائحة النفط المتسربة من مطبخ الثقافة المصرية والعربية.

تبدو العلاقة بين ثقافة القاهرة وباقي العواصم العربية في حالة توتر دائم، ومبالغة في الرهاب الثقافي. ويحرص المصريون على نقاوة وطهارة ثقافية من أي دخيل أو غريب، مع الإصرار على أنهم السباقون في كافة الميادين. ويصل نقد الخارج معهم إلى حد الاتهام بأن ثمة مؤامرة، وصولاً إلى حالة بارانويا يمتزج فيها جنون عظمة بعقدة اضطهاد.

أثناء ندوة في أتيليه القاهرة، هوجمت القاصة الكويتية عالية شعيب من بعض المثقفين المصريين بشكل شخصي، فإحدى المهاجمات وقفت وقالت لها: «لا يكفي أنك قاصة رديئة وإنما أيضاً كويتية... هل أتيت إلى القاهرة لتشترينا بفلوسك؟». وعندما طرحت رأياً طلبت فيه بأن لا ينظر إلى الثقافة الخليجية بكونها برميل نفط فقط فهناك تجارب شعرية وقصصية، ذات نفس تجديدي، من عمان إلى البحرين ومن الإمارات إلى الرياض والكويت، وهناك عشرات الأسماء الخليجية التي تحاول أن تضيف إلى مخزون الثقافة العربية شيئاً وليس بالضرورة أن يتحول كل مثقف خليجي إلى موزع هدايا ورشاوى، عندها انفجر صاحبي وقال: «أنتم اللبنانيين تجار، تسيطرون على الصحافة الخليجية، وتحاربوننا نحن المصريين وتتحكمون بتوزيع أفلامنا. أنتم تلعبون دور السمسار بيننا وبين الخليج، بالإضافة إلى أنكم تسرقون مطبوعاتنا من خلال دور

نشركم. وتحاولون رشوة سينمائيينا للعودة إلى استديوهات بيروت».

وقد أخبرني أحدهم أنه في الماضي «عندما كنا نذهب إلى مهرجان المربد كان العراقيون يأخذوننا إلى الجبهة مع إيران، والآن نذهب إلى مهرجان الجنادرية، فيأخذنا السعوديون لأداء العمرة، ولم يختلف علينا شيء سواء كنا في ثياب الميدان أو في ثياب الإحرام».

ثمة عمى ألوان في رؤية الآخر، كأن الثقافة المصرية لا تخلو من عيوبها الخاصة، ويكفي القول إن السينما المصرية رغم أنها الأولى في العالم العربي كماً ونوعاً، لم تستطع أن تطور تقنياتها وإداراتها التي أصابها الترهل، لم تتجدد كما قالت فاتن حمامة لإحدى المجلات. فمعظم المخرجين يعانون من التخلف التقني في المعدات، من الصوت إلى المونتاج وغير ذلك من العناصر الفنية، حيث إنه لم يجر تحديث لهذه الأجهزة منذ ثلاثين عاماً.

وبالنسبة للتحريم والفتاوى الآتية من الخارج فالذاكرة ممتلئة محلياً بمعارك طه حسين وتكفيره بسبب كتابه «في الشعر الجاهلي»، وممتلئة أيضاً بالفتاوى التي لا تحصى بحق الأدباء والتي صدرت عن الأزهر أو من السلطة وذلك قبل حضور السيد «نفط» إلى الساحة ليزيد إلى الطين بلّة. كما أنه من عدم الإنصاف اعتبار الخليج خارجاً صافياً، فالصحافة الثقافية الخليجية يشرف على تحريرها مثقفون مصريون ويوجهونها حسب أسلوبهم ورؤيتهم، ولا ننسى كذلك دور آلاف الأساتذة المصريين في الجامعات الخليجية والعربية، الذين يتمتعون بدور فاعل في ثقافة تلك البلدان عبر مناهج تربوية أو تعليمية أثرت وتؤثر على أجيال عديدة.

ينقسم المثقفون المصريون حول دور الثقافة الخليجية، فيقول إبراهيم عبد المجيد الذي لم يستطع الصمود أكثر من تسعة أشهر كموظف في السعودية، وكتب عن تجربته في رواية «البلدة الأخرى» حيث تحوّل إلى صائد فئران: «لقد واجهت الذل والإهانة بكوني مصرياً وعندما عدت إلى القاهرة رأيت الثري الخليجي يعهّر نساءنا وثقافتنا وصحافتنا، إنهم يحولوننا إلى خدم في بلادهم وفي بلادنا أيضاً». بينما يعتبر غالي شكري:«إننا كلنا في عصر النفط خدم، بما في ذلك ملوك وأمراء النفط أنفسهم. إنه العالم الجديد الذي حوّلنا جميعاً إلى ضحايا بنسب مختلفة».

في إحدى الجلسات قال لي الفنان التشكيلي عدلي رزق الله: «قد يختلف المصريون في كل شيء مع بعضهم، ولكن حين يهاجم أحد العرب ثقافتنا فإننا نتّحد جميعاً ضده في عصبة واحدة».

لا يمكنك أن تنتقد الحياة الثقافية المصرية إلاّ بحذر، حتى لا تقع ضحية كلام ملتبس، كأني بالثقافة المصرية تحتاج إلى عدو، سواء من العرب أو الغرب، وكل ذلك من أجل حب مصر وبقاء مصر، وهذا الكلام المبالغ في وطنيته قال عنه محمد حسنين هيكل في مقابلة مع مجلة «نصف الدنيا»: « لست متحمساً لنوع الوطنية المسطحة التي نسمعها الآن عن حب مصر... وعن الولاء لمصر، وعن الوفاء لمصر إلى آخره... هذه كلها أعراض أزمة وليست دلائل حب... هنا خلط شديد يحاول أن يجعل الوطنية نوعاً من الهستيريا... الوطنية ليست حفل زار أو حلقة ذكر».

فالظاهرة الشوفينية والقطرية والمناطقية بدأت تبرز في القاهرة وغيرها من العواصم العربية الأخرى، في القاهرة تكتشف أورام الثقافة العربية كلها. ولأن القاهرة هي القلب، تخشى على نبضاتها

المتسارعة، وتخشى عليها من ارتفاع في الضغط الداخلي، والانعزال إلى الأقصى.. فكل الآخرين أعداء!

أبواب في الممنوع والمرغوب

في باب اغتصاب الشارع والكتاب

حين تدخل إلى «باب العتبة» تشعر بأن القيامة قد قامت، وأنك في يوم الحشر. ألوف من البشر في حركة لا تهدأ، وأصوات ممزوجة بالشتائم والصراخ، مترافقة مع أبواق ألوف السيارات ومئات الباصات. إنه شارع أصوات فتسمع تسجيلات شيخ الكاسيتات ياسين رشدي وهو يحدثك عن عذاب القبر ويوم الآخرة. يقابله الشيخ الشعراوي في تحليلاته الفانتازية من أن اختراع المحرمة أهم من الوصول إلى القمر، ويقابلهما عمرو دياب وأصحابه في أغانٍ عن الحب والحبيب بين السكر والزبيب. «وما تخافيش أنا مش ناسيكي»، يختلط ذلك مع أصوات باعة الأقمشة والقطنيات وبناطلين الجينز حيث يلوح بها شباب وفتيان حُملوا على الأكتاف كأنهم في تظاهرة: «قرّب. جرّب الجينز الأميركاني». وسط هذه الألوف من البشر تمَّ اغتصاب فتاة أمام أعين الجميع، ولم يتحرك أحد. ثلاثة شبان هاجموا الفتاة، واغتصبوها بكل سادية وسط هذه الألوف من الأعين والأصوات!

دلني صديقي الصعيدي إلى مكان الحادثة، وكان يقف هناك بائع مرطبات ينادي «عاوز حاجة سقعة يا بيه». ولم أصدق مثل كل الذين استنكروا تلك الحادثة، فقد تحولت «فتاة العتبة» إلى مادة خصبة لرجال الدين في الكلام عن الأخلاق والتربية الدينية والفلتان الجنسي، أما المخبرون الصحافيون، فقد أخذوا ينكشون في

سيرة الفتاة والشبان. وقال رئيس الجمهورية وسط هذا الهلع الأخلاقي: «إن نساءنا أشرف نساء العالم»، وبدأ الحديث مع الصحافة عن غياب النخوة عند المواطن المصري، وتحوله من الإحساس الجماعي إلى الإحساس الفردي. وبعد الحادثة تمَّ تخصيص بعض الباصات للنساء فقط، مما أثار سخط بعض المثقفات لأنه يؤدي إلى التمييز بين المرأة والرجل. واستغل الأصوليون الحادثة مشيرين إلى ضرورة الحجاب. ولكن ما يثير العجب في قضية «فتاة العتبة» أنه ما زال ينظر فيها في المحاكم، والنقاش ما زال يدور حول تفاصيل الاغتصاب: هل كانت ترتدي الكيلوت أم لا أثناء الاغتصاب، وهل هي التي أثارت الشباب؟ وأين اختفى الكيلوت؟!

لا يبعد سور الأزبكية كثيراً عن باب العتبة، حيث عشرات المكتبات والأكشاك الصغيرة المنظمة على الأرصفة لآلاف الكتب والمجلات القديمة، من الأدب إلى السياسة والفلسفة والأزياء، لكن ما يميز هذه المكتبات أنها تهتم ببيع الكتب المصادرة والمجلات الممنوعة، والأكثر بيعاً من الممنوع هو الكتاب الجنسي. وحدثني صديقي الصعيدي عن علاء حامد الذي حُكم عليه بالسجن، مرة أخرى، بسبب كتابه الأخير الذي يتضمن نصوصاً جنسية فاضحة، بعد كتابه الأول الذي اتهم فيه بالكفر والإلحاد. لكنه استأنف الحكم، مع أنه هذه المرة سيحاكم بسبب الفضائحية الجنسية. وتقول الشائعات في القاهرة: إن علاء حامد تعرض في قريته للتهديد. وإنهم حاولوا اغتصاب ابنته رداً على كتابه. ولقد دافع معظم المثقفين المصريين عن علاء حامد، ليس بسبب موهبته المتواضعة وكتابه السيئ فنياً، وإنما انطلاقاً من الدفاع عن حرية التعبير.

ثقافة المكبوت والممنوع ظاهرة ينضوي تحت لوائها العديد من أنصاف الكتبة والباحثين عن شهرة مجانية، وهم بذلك يحرمون الآخرين، من فرصة الكتابة الإبداعية الخلاقة التي تقوم بنبش ثقافة المحرمات.

لقد خصصت مجلات كثيرة ملفات حول ظاهرة منع الكتب ومصادرتها ومنها مجلة «أدب ونقد» عدد (٧٤) تحت عنوان «لا تصادروا على الفن بسبب الدين»، وذلك بعد أن نشر محمد عبد السلام العمري قصة بعنوان «بعد صلاة الجمعة» في جريدة «الأهرام»، وبعد أسبوعين نشر الشيخ محمد الغزالي في عموده في جريدة «الشعب» هجوماً عنيفاً على القصة وكاتبها، وأعادت «أدب ونقد» نشر القصة مع تعليق الشيخ الغزالي بالإضافة إلى تعليقات وتعقيبات من المثقفين المصريين حول المصادرة. وذلك تحت سؤال هل يجوز لرجل الدين أن يعيّن للمبدع حدود ما يكتب وما لا يكتب؟ لكن هذا الملف في الدفاع عن العمري وقصته هوجم من قبل مثقفين آخرين كإبراهيم أصلان وإبراهيم عبد المجيد، لكون العمري برأيهم، يبحث عن شهرة مجانية ولا يستحق النجدة، والقصة ركيكة، والشيخ الغزالي في رده لم يسمِّ القاص ولم يكفره.

تختلط الأمور عليك في ثقافة الممنوع والمرغوب، والباحثون من المؤلفين عن الأضواء، أو عن ضجة مفتعلة كثر، ويضعون نصب أعينهم تجربة محفوظ في «أولاد حارتنا» الممنوعة في مصر منذ أواخر الخمسينيات، بأمر من الأزهر، لكن من جهة أخرى يبدو أن المصادرة أصبحت ظاهرة مألوفة، فقد منعت رواية «العراة» لإبراهيم عيسى لحجج جنسية وتمت مصادرتها. فاختلف المثقفون مجدداً

تارة دفاعاً عن الروائي الشاب وحرية التعبير، وطوراً هجوماً عليه لأنه هو الذي حرّض على مصادرتها ليكسب جرعة من الشهرة!

يُروى عن قاسم أمين أنه أثناء معركته من أجل حرية المرأة، أن أحدهم جادله قائلاً: «يا أستاذ قاسم، هل حرية المرأة تعني أنك توافق على أن أضاجع زوجتك؟» وانطلاقاً من هذه الخبرة، نسوق أمثلة كثيرة عن ثقافة الإلتباس التي تتعامل فيها الرقابة مع النص، فالرقيب السياسي أو الديني يحوّل النص إلى حقل إشارات ودلالات لا علاقة لها بالمعنى والمغزى الأساسي، إنه يفتش عن تفاصيل صغيرة من خلال قائمة ممنوعات تزداد يوماً بعد يوم، ويرافق ذلك، انتشار واسع في مادة الإثارة الصحافية المصرية، اللاهثة وراء الفضائح الاجتماعية والسياسية والأدبية، من جرائم القتل والاغتصاب إلى المهربين، ومن تجار مخدرات وأموال، إلى التشهير الأدبي، وغيرها من الأخبار التي تفرد لها صفحات كاملة، وأعداد خاصة، حتى أن جريدة «الأخبار» أصبح لها ملحق خاص بعنوان «أخبار الحوادث» مخصص لأخبار الجريمة، واستطاعت «روز اليوسف» خلال ستة أشهر أن تزيد عدد مبيعاتها بالألوف، بسبب الإثارة والمشاكسات والبحث عن الأسرار، والسبق الصحافي.

ثمة محاولات لكشف المكبوت وإن كان بعضها يميل إلى الفولكلورية والتجارة والإثارة الرخيصة، ولكن هذا يكشف عن جرأة في القول وتسمية الأشياء بأسمائها دون ترميز أو غمز، فبعيداً عن الصخب المصطنع ثمة إشارات في الثقافة المصرية تدل على التعرية ونقد الذات من تسليط الضوء على ثقافة الغرائز إلى النقد الديني وكسر المحرم.

هل تعيش الحياة الأدبية اليوم مناخات تشبه أيام طه حسين مع الأزهر وتكفيره؟ هل تجري وراثة شرعية لـ «أولاد حارة» محفوظ المحجوبة؟

من اغتصاب «فتاة العتبة» إلى اغتصاب الكتاب، هناك في القاهرة من يقف بثبات دفاعاً عن شرف الإبداع وسمعة الكاتب.

في باب السمعة والشائعة

في مقابل هذه الفضائحية، تحرص الثقافة المصرية على «سمعة مصر»، وتحت هذا الشعار تتوالى الاتهامات والمواقف: دعوة إلى محاربة يوسف شاهين، بعد فيلمه «القاهرة منوّرة بأهلها»، لأنه صوّر العالم السفلي للقاهرة ووجهها الآخر، مهاجمة فيلم «ناجي العلي» لأن الشخصية المصرية في الفيلم أساءت إلى سمعة مصر! وبعض المثقفين يتهمون الصحافة العربية بأنها تحاول النيل من المثقفين المصريين بتحريضهم على بعضهم البعض، ويهاجم فيلم تسجيلي عن المرأة المصرية أثناء أحد المهرجانات لأنه أساء إلى نساء مصر! وتكر اللائحة... إن شعار «سمعة مصر» سلاح أخلاقي، وحجة جاهزة دائماً، تنتج عنهما تدابير قانونية من منع وحذف، بالإضافة إلى قدح وذم صاحب العمل وشتمه، وتتحول «مصر» إلى طوطم فلا يمكن التعرض لثقافتها أو نقدها لا من الداخل ولا من الخارج. ويتحول كل نقد إلى جريمة شرف، ولا يسلم هذا الشرف من الأذى حتى يراق على جوانبه الشتم، فالشتيمة مجاورة أو متغلغلة في الرد النقدي، وما لفت انتباهي هو كلام عادل إمام في مجلة «روز اليوسف»: «نحن أكثر شعب بيشتم بعضه» فتذكرت جملة يوسف وهبي الشهيرة: «شرف البنت زي عود الكبريت ما يولعش إلاّ مرة واحدة». والشائعة تنمو بسرعة، كنار في هشيم

الحياة الثقافية، وهي سلاح حاد يمكن استعماله في أي لحظة، أو موقف، لتدمير الآخر، فقدأخبرني عدلي رزق الله عن شائعة تعرض لها حيث إنه أثناء التحضير لأحد المعارض في نقابة الصحافة كتب أحدهم خبراً في إحدى الصحف المحلية، أن عدلي رزق الله أقام معرضاً منذ فترة في إسرائيل، وأردف قائلاً: «عشت حالة رعب، واستعدت اعتباري في معركة ضارية، وتضامن معي بعض الزملاء، واعتذرت تلك الجريدة، وطرد ذلك المحرر الذي كتب الخبر بالتنسيق مع أحد الفنانين الذين يكرهونني... وهكذا كدت أذهب ضحية شائعة!».

في باب العنف والغضب

لا يختلف «باب اللوق» عن سينوغرافيا الأحياء والأسواق الشعبية الأخرى، حيث تبدو مفارش السمك، وعربات البطيخ، والمانجا، وحزمات قصب السكر وأقفاص الأرانب والفراخ. كنت أمشي وسط فاكهتي الأرض والبحر، ولم أنتبه كيف اندلع العراك في السوق، فتفخشت رؤوس البطيخ وسال دم رأس صاحب الجلابية الرمادية ممزوجاً بزوم البطيخ الأحمر، وتفرق الناس بعضهم يراقب البعض الآخر ويضحكون، ومنهم من يدعو للصلاة على النبي ولعن الشيطان، وهذا الشجار لا يختلف كثيراً عن أي شجار في أي سوق شعبي من أسواق العالم، لكن ما يلفت الانتباه هو أن الحس الشعبي المصري، بدأ يفقد طرافته وعبثيته لمصلحة الحس العدواني، والعنف. ويلاحظ هذا من الإشارات الجديدة في الثقافة المصرية، من الشارع حتى عناوين الأفلام والمسرحيات التي تدور حول الإرهاب والأكشن بالإضافة إلى نوافير الدم في القصيدة، وجرائم القتل في القصة والرواية.

العنف في الحوار، وصل إلى الاجتماعات النقابية، فأثناء انعقاد إحدى الجمعيات العمومية لنقابة المهن التمثيلية، تحول النقاش إلى مشادة، ومنع بعض الفنانين من الدخول إلى المقر واقتحم عادل إمام القاعة بسيارته وأدى الخلاف إلى انقسام الجمعية بين الكومبارس والنجوم، ووقعت حالات إغماء. وتعرض مراسل إحدى محطات التلفزة اللبنانية للضرب وحُطمت كاميرته عندما صرخ أحد الممثلين: «إنهم يصورون عراكنا... ماذا نفعل بسمعتنا وسمعة مصر». ولم تنته المعركة إلاّ بإطفاء النور عن الموجودين على المسرح!

وأثناء ندوة سياسية في نقابة المهندسين، تمَّ سحب المهندس عبد المحسن حمودة من الندوة بالقوة وعلى مشهد من الحاضرين، وأُخذ إلى حجرة جانبية، وتوالى على ضربه أربعة من الفتوات، والمفارقة هنا أن موضوع الندوة كان عن «الإرهاب».

العنف يتغلغل، والخطر يدق على باب الحي الشعبي، وباب أي حوار ثقافي، والديموقراطية في مصر تبحث عن مخرج للحرائق الداخلية، فقانون الطوارىء ما زال ساري المفعول، والمثقف المصري أعزل لا يملك سوى صرخته، متمسكاً بجذوة من عصر التنوير، جريئاً في مواجهة قانون الدولة، وشرع الأصوليين. كأنه وحده في الميدان بين كل الشرائح الاجتماعية في مصر. يتأرجح بين لقمة العيش وماء الحرية. بين جزمة الدولة وخناجر الأصوليين. بين الوظيفة الحكومية ومكاتب الصحافة الخليجية. ضائع بين عيون أهل الحي المتلصصة على زواره، وبين عيون الرقيب الحكومي والرقيب الخليجي على نصه. يمشي وسط ألغام من الشائعات والشتائم، يحار بين التستر والانزواء إلى الداخل، أو التحول إلى نجم ثقافي

وسط إضاءات كاذبة، أو يجادل ويحاور فينتهي مصروعاً برشقة رصاص، مثل فرج فوده.

ثمة غضب في الشارع، غضب متوارث كطوفان النيل، فهل يصبح المثقف المصري هو العروس التي يضحى بها، قرباناً على مذبح هذا الغضب؟ إن أكثر ما يخشاه المرء هو تحول الثقافة المصرية إلى أحجار تتبدل في شيشة يدخنها الآخرون في مهل.

بين الجنة والنار

يبدو المشهد الثقافي المصري الآن أكثر حيوية واستيعاباً للحيز الإبداعي من ذي قبل، بمعنى أن التغير السياسي الذي طرأ على بنية الحياة في مصر والمتمثل في رحيل السادات، قد أرسى لمرحلة جديدة في علاقة الدولة بالثقافة والمثقفين، حيث تمَّ توسيع الهامش الديموقراطي قليلاً، بالإضافة إلى إحياء العلاقة الثقافية مع الخارج، والانفتاح على الثقافة العربية، بعد مرحلة من الانقطاع القسري أو الطوعي.

فالجامعات المصرية، أثناء مرحلة السادات، كانت لا تحتفي سوى بموضوعات تاريخية وقضايا تتقاطع مع الواقع، ولكن الصورة الآن اختلفت فأصبحت الجامعات تتمتع بفعالية حقيقية إن من حيث النقاش حول الإبداع الجديد أو من خلال مؤتمرات وندوات للقصاصين والشعراء، بعد أن كان النقاش الأدبي في عهد السادات يعتبر من قبيل النشاط السياسي الموجّه ضد السلطة. ويذكر أن إحدى الجامعات قد جيّشت كل طاقتها العلمية والمنهجية أثناء حكم السادات، لإعداد أطروحتي الدكتوراه والماجستير للسيدة جيهان السادات تحت ضغوط الترهيب والترغيب، وقد أصبحت

السيدة جيهان فيما بعد، استاذة للأدب العربي في إحدى الجامعات الأميركية!

ثمة طفرة في المهرجانات الثقافية والفنية المصرية التي ترعاها وزارة الثقافة، كمهرجانات السينما والمسرح، ومعرض الكتاب والندوات المتعددة، ولكن يؤخذ على بعض هذه المهرجانات ـ حسب الصحافة المصرية ـ أن معظمها يتم بتمويل خليجي بهدف إبراز الرأي السياسي لهذه الدولة أو تلك، والتي تلجأ إلى تمرير موقفها السياسي من الأحداث على حساب الثقافة والمؤسسات الثقافية المصرية.

ومن جهة أخرى، فالمجلات التي كانت تصدرها الدولة في السابق (القاهرة ـ إبداع ـ فصول...) كان أقصى توزيع لها لا يتجاوز ٢٠٠ نسخة، وقد حققت خسائر فادحة للهيئة العامة للكتاب، مما حدا بسمير سرحان رئيس الهيئة بأن يستشعر هول الكارثة، إذا ما استمرت هذه المجلات في الوضع نفسه، فاتخذ قراراً شجاعاً وبدأ بعملية تغيير بادئاً برؤساء التحرير. وبدا الأمر عبارة عن نقلة نوعية خصوصاً عند عودة أسماء بارزة إلى الواجهة تتمتع بثقل أدبي وإبداعي مثل: أحمد عبد المعطي حجازي وغالي شكري وجابر عصفور، حيث أصبح بإمكانك أن ترصد علاقة جديدة بالثقافة من خلال تلك المجلات وانفتاحها على العالم العربي، عبر مساحات واسعة للتعبير، وانعطافة كبيرة في الأسلوب النقدي.

وتصدر الهيئة العامة سلاسل في الرواية والقصة والتاريخ والتراث، ويقابلها قطاع نشر خاص يدفع إلى السوق بآلاف الكتب المزيفة الداعية إلى السلفية والشعوذة، وتتعرض الهيئة للنقد ولغياب السلسلة الشعرية حيث يقول المثقفون: إنها لا تطبع سوى للنخبة أو لبعض المحسوبيات!

يعتبر أحمد الشهاوي (شاعر وصحافي) «أن مصر ليس لها نفوذ في العالم العربي، لا اقتصادي ولا سياسي، إلاّ من خلال الثقافة والفن، الكتاب والفيلم، لذلك أخذت الدولة تعي أهمية الدور الثقافي، فاهتمت بدعوة المفكرين والمثقفين العرب إلى المهرجانات والندوات والمؤتمرات.

يسخر معظم المثقفين المصريين من جوائز الدولة التقديرية والتشجيعية لأنها تمنح أحياناً لأسماء لا علاقة لها بالابداع ونتائجه، كذلك تمنح الجوائز أحياناً لأسماء كانت تستحقها من زمن بعيد مثل علي الراعي أو يوسف إدريس ولويس عوض، وفي الغالب لا تجد الكثيرين من الذين ماتوا ولم ينالوا جائزة الدولة أو رضاها. ومن المفارقات في جوائز هذه السنة أنها حجبت عن الرواية مع أن هنالك عشرات الروايات التي صدرت وكانت ذات قيمة إبداعية عالية.

وفي سياق الحديث عن الدولة وجوائزها، فهناك جوائز أخرى تنهال على ثقافة القاهرة من الخارج، من جائزة صدام حسين إلى جائزة الملك فيصل أو العويس، والبابطين، وسعاد الصباح دون أن ننسى جائزة نوبل، التي أوقعت المثقف المصري خصوصاً والمثقف العربي عموماً في ماراتون الترجمة إلى اللغات الأجنبية، وبترجمات سيئة في معظم الأحيان. أمام هذا المشهد البانورامي من الجوائز، ضحك إبراهيم أصلان وقال: «عاوزين جائزة... يا إخوان» ساخراً مما يجري من لهاث حول هذه الجائزة أو تلك.

هل يتحول المبدع إلى صائد جوائز؟ إلى الكتابة حسب شروط الجوائز المتفرقة؟ هل يتحول المثقف إلى موظف في العلاقات العامة؟ هذا ما يرفضه معظم المثقفين المصريين، لشكهم في مصداقية جوائز

الدولة أو جوائز الخارج؛ ويذكر أن واحداً من الذين فازوا بإحدى جوائز الدولة وهو فنان تشكيلي، ويعد من كبار موظفي الهيئة العامة، قد حاول تهريب مجموعة من المصاحف والكتب النادرة من دار الكتب تمهيداً لبيعها إلى مستشرقين أميركيين مقابل أربعة ملايين دولار، وناقداً آخر فاز بجوائز عربية كتب رسالة إلى رئيس الجمهورية يشي فيها بالمثقفين وانتماءاتهم.

أما قصور الثقافة التي أنشأتها الدولة فهي تهتم بتنشيط العلاقة مع أدباء الأقاليم وتنشيط المهرجانات المحلية للقصة والشعر، وذلك لربط مثقف الأطراف بالمركز الثقافي في القاهرة، وبهذا الصدد يقول إبراهيم عبد المجيد: «أثناء أي مهرجان شعري محلي، نحدد لكل شاعر ثلاث دقائق ليلقي قصيدته، ولكن الشاعر لا يكتفي بالوقت المحدد، فيسود الهرج والمرج بين الشاعر والجمهور أو يتعارك الشاعر مع زملائه الذين ينتظرون دورهم ويعدون بالعشرات فنغادر القاعة والعراك ما يزال محتدماً داخل الصالة». ولا يكف أدباء الأقاليم عن الاحتجاج لناحية تغييبهم وتسلط مثقفي القاهرة على الحياة الصحافية والثقافية مذكرين دائماً بأن عبد الناصر والعقاد وطه حسين وغيرهم كانوا من الصعيد!

يصف أحمد الشهاوي «اتحاد كتّاب مصر» أنه «جثة أسطورية هامدة ترمدت. فهو لا يحتفي إلاّ بصغار الموهوبين، وهم أتباع الباشا ثروت أباظة، فالاتحاد لا يخدم الابداع ولا المبدعين، حتى في قضايا الحرية والتعبير، لا يعبر سوى عن وجهة نظر الدولة وآرائها. وأبرز مثال على ذلك دوره أثناء خلاف محمد حسنين هيكل مع الدولة بعد كتابه «خريف الغضب» وكذلك دوره أثناء معركة يوسف إدريس مع وزير الثقافة السابق عبد الحميد رضوان،

حين كتب إدريس مقاله الشهير «أهمية أن نتثقف يا ناس». وفي الحالتين لم يكن هناك موقف مميز لاتحاد الكتاب بل كان مع السلطة في كل شيء».

ثمة هدوء حذر يشوب العلاقة بين المثقف والدولة، أو ما يشبه الهدنة الطويلة مع السلطة، بعد مراحل بدأت من ثقافة ثورة ملتزمة إلى اعتقال لحرية التعبير الأدبي أيام عبد الناصر إلى فترة التغييب والتعتيم والنفي والتعذيب في عهد السادات. وتثمر العلاقة الآن في حيز محدود وهامش ديموقراطي يتسع ويضيق حسب الظروف والأحوال. فمن قائمة ممنوعات ومحظورات لأسماء لم تكن تستطيع أن توقع بأسمائها، إلى حالة ثقافية مفتوحة على المعارك وبالأسماء. وبقدر ما تدل المعارك المتبادلة في عنفها وشتائمها، على حيوية ما وحرية نسبية في الاحتجاج، بقدر ما يبقى الالتزام واضحاً بثقافة الدولة ونصّها الثقافي الرسمي.

تنقسم المعارضة الثقافية المرتبطة بالمعارضة السياسية إلى عدة تيارات، أبرزها التيار اليساري المتمثل بمجلة ثقافية واحدة «أدب ونقد» الدائرة في فلك ثقافة ماركسية مطعّمة بعروبة ناصرية وتقابله ثقافة دينية إسلامية موزّعة بين الأصوليين وشيوخ الأزهر، أي ثقافة رجل الدين عموماً، المتمثلة بالفتاوى التي تطارد النص المعارض الساعي إلى هتك المحرّمات في الدين أو الجنس أو الفقه. وتبدو المعارضة التقليدية الثقافية أشبه بالمعارضة الرسمية، فهي لا تستطيع أن تتجاوز الحدود المرسومة لها. إلاّ أن المعارضة الحقيقية تبقى في أوساط المثقفين الفرادى غير المرتبطين الذين قد يواجهون وحدهم القتل والنبذ أو الاكتئاب.

والمعارضة عموماً تائهة بين ثقافة أسطورة اشتراكية، وخرافة رجل

دين، بين الشعوذة الدينية والوهم اليساري. بين ثقافة الجنة والنار وثقافة مشاعية العالم والسلام الكوني، بين ثقافة العمال والفلاحين، وبين المؤمنات والمؤمنين. وما بينهما ثمة رشقات رصاص من ثقافة الإرهاب: اعتقال بين لحظة وأخرى من زوار فجر على استعداد لأي طارىء سياسي أو ثقافي، لأفراد أو جماعات.

لكل دولة رجال، ولكل رجل ثقافته، في مترو الأنفاق، كان القطار يتوقف عند المحطات التالية: محطة عرابي باشا، محطة سعد زغلول، محطة جمال عبد الناصر، محطة أنور السادات.

لكل محطة اسم زعيم أو قائد أو رئيس، وأثناء عبورنا للمحطات في قطار الثقافة المصرية، نتذكر رجالاً آخرين مع كل زعيم، من محمد عبده إلى طه حسين حتى نجيب محفوظ وآخرين، أجيال تنمو، في محطات سياسية ومراحل مصيرية. وأثناء انتظاري للمترو، في محطة حسني مبارك، لمحت فتاة كانت تبكي لأنها رسبت في امتحانات الجامعة، فأي امتحان سوف تجتازه الثقافة المصرية من الآن وحتى العام ٢٠٠٠؟ وهل ينجح المثقف المصري في الخروج من النفق نحو آفاق أخرى؟ مثلما يتم توسيع مترو الأنفاق الآن؟

إنهم يتسللون عبر الصحراء

على الرغم من وجود عدد وافر من المجلات والصحف التي تصدر يومياً وأسبوعياً، إلاّ أن الحيز الثقافي المتاح قليل جداً في صفحاتها الثقافية اليومية النادرة، قياساً لأخبار الفنانين والمنوعات الغنائية. ويعتبر أحد العاملين في الصحافة الثقافية: «أن صفحات الثقافة تصدر من قبيل سد الخانة. ومن سياسة التحرير أنه إذا جاءهم

إعلان مفاجيء لا يفكر المسؤولون بوضع الإعلان إلاّ في الصفحة الثقافية، فهم ما زالوا ينظرون إلى الثقافة على أنها من الكماليات».

فالصفحات الثقافية متفاوتة الجودة لأنها خاضعة للسياسة العامة. وهي تتعامل مع رنين الشهرة أو مع قدرتها على تنفيذ خطتها أو مقاومة حسادها. والمحرر الأدبي ليس حراً في أحكامه، في صحف المعارضة أو السلطة، لأنه تابع بشكل دائم، ولا يوجد منابر مستقلة خاصة بالمثقفين بحسب رأي الناقد إبراهيم فتحي.

ثمة هجرة واسعة نحو صحافة الاستكتاب، وهي مشكلة من المشاكل التي تواجهها الحياة الإبداعية المصرية، خصوصاً لجهة هجرة النقاد، الذين يغادرون من أجل تحصيل الرزق كشاكر عبد الحميد ومحمد بدوي ورمضان بسطاويسي ومجدي توفيق... وغيرهم من النقاد الشباب الذين ساهموا في حركة النقد في السنوات الأخيرة... و«هؤلاء النقاد قد فتحوا مجالاً للاسهام في مناقشة الكتابات الجديدة، بوجه نقاد أنفقوا أكثر من نصف حياتهم في أبحاث أكاديمية تخصصت في مناقشة الكتب الصفراء والمناهج القديمة». وهذا الكلام للشاعر أحمد الشهاوي الذي أضاف: «هناك نقاد خصصوا جلَّ وقتهم للكتابة عن الأسماء اللامعة، باعتبار أن ذلك سيسوّق مادتهم النقدية في المجلات المصرية والعربية».

إن العلاقة بين المثقف المصري والصحافة العربية ليست كما هي في الظاهر، في حالة تواصل وتبادل آراء، بقدر ما هي حالة استكتاب بالجملة، وثمة معركة خفية بدأت تظهر إلى العلن في خلاف المثقفين المصرين مع الصحافة العربية والخليجية تحديداً، وكلام يقال عن مؤامرة على الثقافة والصحافة المصرية فيعتبر د .علي الراعي في

حديث إلى مجلة «آخر ساعة»: «أن هذه الهجمة الصحافية مقصود منها سحب البساط الإعلامي المقروء والمصور والمطبوع من تحت أقدام مصر، والمصيبة إننا نايمين في العسل». وفي مجلة «المصور» يبادر رجاء النقاش إلى القول بعنف: «إن في الصحافة العربية الآن حملة على ثقافة مصر وأدبها، ومحاولة واضحة، لإنزال مصر من مكانتها الأدبية والفكرية والفنية، وتحرير الثقافة العربية كلياً مما يسمى بالآثار السلبية للثقافة المصرية».

لكن الناقد إبراهيم فتحي أثناء لقائي معه قال: «إن المثقفين المصريين يحبون المبدعين العرب ويبحثون عن أعمالهم، لكن هذا خاضع للعلاقات المتبادلة والمتغيرة بين الأنظمة. والثقافة المصرية لا يمكن أن تكون شوفينية، فالعرب هم الذين أسسوا المسرح والصحافة والمصرية. والتلامذة العرب عاشوا في القاهرة، والأساتذة المصريون علّموا في الجامعات العربية... إن أية غربة هي قاتلة للثقافة، ونحن نتعلم من الفرنسيين والإنكليز فكيف نكون شوفينيين مع العرب بالذات؟».

في الفندق، كانت الموسيقى الكلاسيكية نفسها تتكرر وأيضاً مشهداً لسياح الذين يتمطّون في صباح متأخر، ويتنقلون في الردهة بين المقاعد الجلدية، وكنت أشم عطوراً مخلوطة برائحة الخمور الثقيلة... ابتسامات بالجملة من الموظفين والمستخدمين... وتذكرت منذ خمس سنوات أنني رأيت السياح الإسرائيليين يتجولون بوقاحة وصلافة، أما الآن فلم أصادف أحداً منهم، وأخبرني سعيد الكفراوي: «إنهم أصبحوا يعرّفون عن أنفسهم على أنهم أميركان أو ألمان... ولا ينزلون إلّا في فندق واحد في مدينة نصر. ويأتون جماعات منظمة بدون إشارات تدل على هوياتهم»... فطرحت

السؤال التالي على نفسي: هل يفكر الإسرائيليون بالتغلغل في الثقافة المصرية حيث إنهم بدأوا يقولون: «إن الأهرامات والحضارة الفرعونية هي جزء من تاريخهم»... وكونهم خرجوا في سبيهم من بوابة الصحراء فهل هم في طريق العودة عبر الصحراء أيضاً!

شباب في خريف المقاهي

يقع مقهى زهرة البستان بين تقاطع زاروبين ضيقين، حيث تصطف الكراسي بالطول على الجانبين بين شركة سفريات متواضعة، وكاراج ميكانيك للسيارات. ويتوافد على هذا المقهى الشعبي أكثر المثقفين الشباب من شعراء وقاصين، وأصحاب خدمات صحافية، وكتاب أغانٍ شعبية ورسامين، ومعظم الذين يطلق عليهم اسم الحرافيش. في هذا المقهى تأنس إلى فتحي عبد الله رغم عبثيته، وفتحي الشاعر بلا ديوان، والذي يلم التبرعات من الأصدقاء لطبع مجموعته قال لي: «قضيت خمس سنوات في القرية أقرأ وأكتب، غادرت إلى السعودية لأعمل فرجعت بعد تسعة أشهر، ثم رحلت إلى العراق، وعدت إلى القاهرة لأتسكع وأتشرد في هذه المدينة أبحث عن صوتي الشعري وعن عمل تاركاً في القرية زوجتي وأولادي يقطنون في بيت أهلي». ثمة طمأنينة يمنحك إياها فتحي لكثرة ما يقرأ وما يعرف من التجارب الشعرية المختلفة والمتنوعة في العالم العربي، لكن معظم قراءاته تجري في المقهى، عندما يترك قدميه تقودانه دائماً إلى نفس الشيشة فيغير الأحجار ويسحب أنفاساً عميقة.

وسط الغبار والشحم والأتربة يبدو مقهى زهرة البستان حيّاً بشبان يبتسمون بقسوة حاملين تحت آباطهم دفاتر وكراسات يقرأونها

لبعضهم البعض، مع ذلك تتحول الجلسة إلى حلقة نميمة لا تنتهي، كان الحر شديداً وكنت أتقيه بجلوسي في المقهى بين بناءين بحيطان سوداء، أصغي إلى انفعالات فتحي، وكان ثمة ماء يزرب من قسطل بقطرات ساخنة، وخلاف في وجهتي النظر حول القصيدة.

في المقهى نفسه، التقيت بعلاء خالد الآتي من الإسكندرية وهو من جماعة الأربعائيين فبادرني قائلاً: «لا أطيق القاهرة بثقافتها ومقاهيها ونميمتها، أعيش في شبه عزلة في الإسكندرية». كان الشاعر علاء خالد يسألني عن بيروت وبقية العواصم، وأنا أسأله عن ثقافة القاهرة، فلم نصل إلى قاسم مشترك في الأسئلة والأجوبة، ويبدو علاء خالد بعد مجموعتين من الشعر أكثر تأملاً، وأكثر قلقاً، يتنقل من طاولة إلى أخرى، بملامح سوداوية، كأنه يريد القفز إلى المجهول، فبين الإسكندرية والقاهرة، ثمة تجارب واختلافات، في البحث عن أصوات، ومنابر، لشباب يحاولون الاجتماع في السهرة، لكنهم يتفرقون في النص.

حين تدخل إلى مؤسسة الأهرام تشعر بالفخامة لبصمات تركها محمد حسنين هيكل، الذي حوّل هذه الجريدة إلى مؤسسة عملاقة، مانحاً امتيازات خاصة للمحررين، بالإضافة إلى الهندسة الداخلية من جداريات ولوحات ومرايا كأنك في دولة صحافية. في مطعم الأهرام التقيت بأحمد الشهاوي أكثر من مرة، وكان لا يخرج إلى المقهى إلاّ مرة واحدة في الأسبوع، في أحد اللقاءات أسرّ لي: «أتجنب الخروج حتى لا أحتك بأي مثقف مهما كانت علاقتي به لأن رصاص البذاءة يصيبني». ويحافظ الشهاوي على هدوئه، وعلى إرث من مجموعاته الشعرية، ويصر على الأناقة في

الشعر وفي المظهر، ويقبل على الحياة بشراهة: «أعاني من فيروس في الكبد وخطي التلفوني موصول إلى المستشفى، لتأخذني سيارة إسعاف في لحظة طوارىء، من نوبة إغماء مفاجئة». والصوفية عند الشهاوي مرافقة لتجاربه مع الموت، ولكن مع جهة أخرى يعتبر أنه لم يتمتع برخاء متواضع إلاّ بعد تجربة مريرة مع الجوع: «تركتني الخطيبة بسبب الشقة، أما الآن فلدي شقة واسعة، وحساب مصرفي، لكني في انتظار رحمة الله بين ساعة وأخرى». والشهاوي صحافي، حيوي، تشغله مهمة البحث عن أفق إنفعالي، يحاول أن يقدم معظم الأصوات الشابة المجايلة له دون تأخير أو استثناء.

في مقهى إنديانا في الدقي، التقيت بهشام قشطة، التائه بين كتابة القصيدة و«الكتابة الأخرى» وهي المجلة التي يُشرف على تحريرها وطبعها، والتي جاءت رداً على مفهوم الصفوة والحرافيش الذي أطلقه أحمد عبد المعطي حجازي في مجلة «إبداع». لكن هشام لم يعد يؤمن بما يكتب رافضاً قصيدته، يحاول أن يكون محرّكاً ثقافياً لجيل جديد عبر منبر «الكتابة الأخرى» مستديناً من والده تكاليف الطباعة. ومقهى إنديانا كان ملتقى للتجمعات الثقافية والسياسية، وقد حدثني هشام عن ذكريات المقهى قائلاً: «صدام حسين كان يجلس يومياً هنا عندما كان هارباً في أوائل الستينيات، وفي السبعينيات كان المقهى مكان تجمع معظم الشعراء، لكنه الآن تحول إلى مكان للعشاق، يشربون عصير المانجا ويأكلون الآيس كريم». وازداد انفعال هشام في مكان آخر، في لقاء آخر، في الـ «بوب لا غريون» وذلك بوجود صديقته الأميركية إيف، الباحثة عن تاريخي مصر والسودان، فحدثتنا عن الفراعنة والإسلام، وصراع المثقف والسلطة، بانفعال من يتناول قضايا خاسرة. ويبقى هشام وهو يحمل رزمة أعداد، ويجمع القصائد والمقالات، ويتابع الطباعة

ويوزع بيديه أعداد المجلة بدون شعارات فضفاضة، نموذجاً لجيل تسعيني يحاول بصدق.

في مقهى الموادري في الشيراتون تحاورت مع إبراهيم عيسى بعد لقاء صباحي سريع في مكتبه في «روز اليوسف» فتكلمنا باختصار عن الجرأة والمشاكسات الصحافية، وكيف منعوا وصادروا روايته «العراة» التي بقيت في المستودعات، لكن إبراهيم هو الوحيد الذي قال صراحة: «أنا لست ابن هزيمة الـ ١٩٦٧» كأنه يفتح مسرباً آخر للحديث ويعبر هذه الجملة إلى ضفة أخرى، متابعاً: «طموحي، الكتابة للنخبة، ولا وجود للقارىء الشعبي، لا أؤمن بالانتشار والتوزيع، ويجب علينا أن نتطرق إلى كل الموضوعات بلا خجل ودون انتظار القرّاء».

إبراهيم داود، لا يتصل بأهل الثقافة، رغم أنه عمل كسكرتير تحرير لمجلة «أدب ونقد» ما زال يكتب الشعر، لكنه ابتعد عن الوسط الثقافي نحو الوسط السينمائي. وقد حدثني عن تجربته في كتابة أغاني فيلم أخناتون قائلاً: «لقد قالوا عني أنني أصبحت من بتوع السيما... والسينما في رأي الشعراء هي مجرد هزة خصر، ومجموعة من التقنيات، السينما والمثقفون في حالة خلاف، ورغم أن السينما استعملت العديد من الأعمال الروائية ومشهدتها، فما زال هناك نظرة دونية لهذا الفن في أذهان معظم مثقفينا». وإبراهيم بذقنه الخفيفة، يكتب في حجرة خاصة به، معتزلاً وعاكفاً على كتابة ما، وانفعاله يقترب من حدود البحث عن تجربة مختلفة في حياته ونصه.

حين دخلت نادي الأتيليه للمرة الأولى، فوجئت بامرأة تضحك بشكل هستيري مع شلة، يشربون القهوة ويتكلمون بصوت عالٍ،

وعلمت أنها مناضلة سابقة وخريجة سجون، بحثت طويلاً عن العدالة الاجتماعية، والآن أصبحت أكثر عدوانية.

الأتيليه في ذاكرة المثقفين كان أكثر هدوءاً وأرستقراطية، تشغله جماعات ثقافية تشكيلية من أبرزها رمسيس يونان وأنجي أفلاطون. ولكن مع التحولات والانقلابات تحول المكان إلى تجمعات ثقافية تتناقش وتتشاكس، وتجتمع كل ثلاثاء في ندوة أسبوعية عن رواية أو قصة أو مجموعة شعرية.

محمد متولي، ابن الثانية والعشرين، يكتب القصيدة بشغف ولكن حبه الأكبر هو للسينما ويطمح إلى أن يصبح مخرجاً سينمائياً، ويتطلع بقوة إلى ذاكرة السينما العالمية. محمد متولي شاعر شرس في الكتابة، هادىء في الحوار، خافت الصوت، قوي النبرة في القصيدة. وقد حدثني هامساً تقريباً: «أبحث عن شكل جديد، وأتحاشى المثقفين، وصداقاتي قليلة». وفي طريقنا إلى الحسين وخان الخليلي والسكرية وقصر الشوق كانت أفواج السياح تروح وتجيء في أرض نجيب محفوظ، قلت له: «هل أصبح أحمد عبد الجواد سمسار شقق...؟ وهل هجر كمال آراءه الفلسفية وذهب إلى صحافة الخليج؟». فتشت عن «ناس» الثلاثية برفقة محمد متولي، فلم أهتدِ إلّا إلى مطعم كتب عليه «مطعم نجيب محفوظ» وباللغتين العربية والأجنبية مع بطاقات «الأميركان أكسبريس».

صيادون وناس وسمك

فوق الكوبري (الجسر) كنت أتفرج على السمك الصغير الذي كان يتجمع حول قطعة خبز ملمومة على صنارة أحد الفتيان، وعلى يميني كانت محطة باص لركاب يتهافتون، ويركضون نحو

مدخل الأوتوبيس. يركضون نحو لقمة عيش، والسمك ما زال يتهافت حول الطعم. ناس وسمك وصيادون كثر في «نيل» من الماء والبشر...

كنت أودع الشارع الممتلىء بالوجوه الحزينة، من ماسح الأحذية إلى بائعة العرانيس وبائع الصحف المسائية، وسمسار الشقق والمتسول، والعشاق المتلاصقين فوق الكباري مديرين ظهورهم للمارة والسيارات والسياح.

القاهرة مدينة في مليون مشهد، فانظروها... حتى لو أصبحت نفرتيتي قاعة حفلات، أو خوفو محلاً للحلويات، وأبو الهول دكاناً للطعمية، أو تحول أخناتون إلى ملهى. كان عليَّ أن أقول لأهل مصر وداعاً.

وداعاً للذين لا يتوقفون عن الشجار بالمطاوي في زفّة الشوارع ولا الشتائم على صفحات الجرائد.

لطرائف وغضب سائقي التاكسي عن الزحمة واللحمة.

للنائمين في المراكب وتحت الكباري، للنساء يغسلن ويتحممن في النهر.

للمدلوقين من القطارات والباصات من قبلي وبحري.

للناس الذي تلتقطهم كاميرات السياح وهم يصطفون في الطوابير.

للشرطي النعسان تحت الشجرة، والشجرة دائخة من الغبار.

للعجوز الذي يصلي بين الدفلى، ومصحفه معلق على شجرة وخلفه عائلة من الملاءات حول صرة غداء.

للوجوه المغسولة بضوء النيون من كوكاكولا وكوداك في ميدان التحرير.

للباحثين عن لقمة الخبز في صحارى العرب وثلوج الغرب.
لكل الشباب الذين دُفن آباؤهم مع جزماتهم في صحراء سيناء.
لقداس الأحد الأنيق في الكنائس المنزوية.
لصلاة الجمعة في الشوارع والأحذية المصفوفة بترتيب.
للمجنون الذي وقف في وجهي في الشارع وقال: «أعمل إيه... أقول إيه... الناس كفرت».
للنادل الذي يدق الباب كل خمس دقائق: «أية خدمة يا باشا... أية خدمة يا بيه».
للزمامير والدفوف لعروسين على كورنيش النيل والنقوط المتطايرة من الصعيدي.
لمقابر الأهل، وأهل المقابر.
وداعاً لكل هؤلاء من ناس وأصحاب وأصدقاء.
وتبقى مصر:

يمّه يا بهية	يا أم طرحة وجلابية
الزمن شاب	وانت شابة
هو رايح	وانت جاية

(«الناقد» العدد ٥٣ ـ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٢)

ليبيا ١٩٩٤:
ضحية الثروة يتيمة الثورة

لأهـــل طـــرابـــلـــس عـــادة
مـــن الـبـرّ تـنـســي الـغـريـبَ الحـمـيـمـا
حــلــلــت بــهــا مُــكْــرَهــاً ثــم إذ
أقــمْــتُ بــهــا أبــدلــوا الــهــاء مــيــمــا

الفقيه أبو الحسن

منذ نعومة أظفاري وأفكاري، سمعت عن «ليبيا»، حيث تغّرب إليها والدي وعاش هناك أكثر من عشر سنوات كعامل بناء. وقد روى لنا ونحن صغار عن أهل تلك البلاد سارداً ذكرياته وغربته ووجعه وحبه. وما زالت أحتفظ ببعض صوره ومنها تلك التي يعانق فيها غزالاً كان يربيه في «حوشه». وما أدهشني حين دقّقت في وجهه أنه كان يشبهني، فالعمر هو نفسه، والغربة عينها، حيث أنا الآن في عمره تقريباً، عائد من تلك الصحراء الشهية للكتابة، متأبطاً موجاً ضخماً من الرمال، شغوفاً بنفسي القلقة وفضولي الصحافي للبصبصة على عواصم العرب.

عدت من طرابلس الغرب، محملاً بحقيبة من ألغاز، أحاول فكها ولا أستطيع. أجلس في «بيروت» لأتذكر ما جرى معي، فأعجز عن كتابة ما سمعت وخبرت، حيث رأيت هناك على شاشة البحر الليبي، شريط حياتي أمام عيني. خفت وارتعبت لانفصال الروح عن الجسد، وانفصامي عن نفسي، إنها الغربة المُبهجة ولأيام معدودة.

أن تقرأ عن السوريالية شيء، وأن تحياها شيء آخر. فالدهشة رافقتني أينما حللت، ولم يكن فرحاً بقدر ما هو لذة وجع، لعين ترى خراباً أنيقاً، وأذنٍ تصغي إلى غرائب الأدب وعجائب السياسة. إنه السراب بلا عطش. فكم من رأي في السياسة أو الثقافة طمرته عند أقرب كومة رمل، متخلياً عن شروطي وأسئلتي، وأجوبتي، رامياً بها عند ذلك الشاطىء الليبي الذي لم أرَ أجمل منه! هناك أعدت النظر في بعض ما آمنت به من أفكار حول الثورة والعروبة والأحلام. قلت لنفسي، إنها فرصتي التي لن تتكرر، رغبة الاكتشاف في مغامرة نحو عاصمة مجهولة ثقافية. فدخلت ليبيا المحاصرة من الخارج والداخل، من البعيد والقريب، من العدو والشقيق.

بلاد بلا أبواب، إنها أرض العرب للعرب، ولست في حاجة إلى تأشيرة أو فيزا لتعبر، حيث الدولة شيطان والثورة جنة أفكار. بلاد خارج التبويب السياسي أو التصنيف الثقافي، حسب ما تقوله المدارس والمذاهب في السياسة والثقافة. بلاد للتجريب والاختبار والبحث عن هوية خاصة.

في كل مرة حاولت الكتابة عن تلك الجماهيرية، يتحول المشهد بين يدي إلى كلمات متقاطعة وغامضة؛ ولست ساحراً. حاولت

أكثر من سيناريو لرسم رحلتي القصيرة، فكانت الشخصيات والكائنات والأحداث واليوميات تذوب متحولة إلى حبات رمل. حتى كتب التاريخ لم تسعفني لأقرأ تلك البلاد التي كانت تُدعى صندوق الرمال وتحولت إلى جماهيرية وعربية واشتراكية وعظمى.

بلادي رغم كل شيء

حين عرف رجل الحدود الليبي عند رأس أجدير من صديقي فرج العربي أنني صحافي، تغيرت ملامحه ورفض إدخالي! إلاّ بإذن من أمانة الإعلام. ولكن رجل الحدود كان مهذباً وأشفق على تعبي وعاد وفتح لي باب الاستراحة لأنام وأرتاح من عناء سفر بري طويل بدأته من تونس. وتمَّ حل القضية ببساطة بعد اتصالٍ هاتفي. وشتمت فرج العربي لغبائه.

أدهشتني «جزيرة فروة» التي رافقني مشهدها في طريقي إلى طرابلس. إنها ثروة سياحية لا تقدر. فليبيا تملك كل المواصفات الطبيعية لتصبح بلداً سياحياً، من الرمل والبحر إلى المساحات الخضراء والمواقع الأثرية الضخمة. لكن الثورة والسياحة على عداء، حيث الأجنبي جاسوس حتى يثبت العكس. وحين وجدت أن أسئلتي السياحية لا تعني صاحبي وصديق رحلتي، انكمشت على نفسي وجسدي وتكومت في المقعد الخلفي أفكر في الثروات والثورات. وخطر على بالي النوم لكثرة تكرار مشهد الرمل طوال الطريق.. حتى وصلنا إلى معرض طرابلس الدولي، حيث الاحتفاء بمعرض الكتاب. وجدت أصحابنا الناشرين اللبنانيين متفرقين ومجتمعين وكأن على رؤوسهم الطير، يسألون عن الباخرة «عبد الرزاق» حيث إن المعرض بدأ منذ أسبوع، والكتب لم تصل بعد.

وأخبرني أحدهم أنها ليست بمفاجأة، فهذا يحدث معنا كل سنة.. ونقضي الوقت على مهل.

لحظة وصولي إلى غرفتي في الفندق البحري لم أنم، تذكرت أنني في مهمة صحافية وخطر على بالي سؤال... أين هو الحصار؟ فالحياة طبيعية جداً، وما نسمعه عن الحصارات في التاريخ القريب أو البعيد لا يمت بصلة إلى المحاصرين في الجماهيرية المغضوب عليها من أميركا!

في منزل الشاعر نصر الدين القاضي، كان لقائي الأول بالثقافة الليبية: قصاصون وشعراء، واستراحة على طراريح ومساند، إنها الجلسة المفضلة على الأرض. دارت السهرة، دار الكلام ودار حتى دخت فرحاً بهم. فعلى الرغم من الحصارات المتنوعة والرواتب المتأخرة منذ شهور والعزلة التاريخية، لم أسمع منهم قصائد رثاء أو ندب أو خبريات فجائعية أو بكائيات ثقافية. كانوا متماسكين وواثقين من شيء ما. يروي محمود البوسيفي طرائف لا تعد ولا تحصى في الصحافة والسياسة والثقافة، وعمر الكدي يلقي قصائد عن عواصم عربية وغربية ساخراً من طرابلس وبنغازي والقاهرة وتونس وأثينا وروما. ويعلق أحمد الفيتوري بهدوء، ويطيّب إدريس بكلام مقتضب.

إنها الدهشة التي رافقتني حيث الوسط الثقافي الليبي لا يعتاش من نميمة أو شجار ثقافي مفتعل. ثمة احترام متبادل بين الأجيال، كأنهم يحامون ويدافعون عن بعضهم بالحنان. ولكن في المقلب الآخر يلاحظ أن معظم المبدعين الليبيين، من شعراء وقصاصين ونقاد وباحثين، يحتفظون في جواريرهم بعشرات المخطوطات والمجموعات القصصية والدواوين، حيث يغطيها الغبار ويثقلها

اليأس من عدم نشرها وطباعتها؛ ولا ينطبق ذلك على المقيمين خارج البلاد.

إنهم يتناسلون ثقافة نسخ (فوتوكوبي) وثقافة مشافهة وسهرات حميمة للكلام، ونادراً ما يسمع بهم خارج الحدود، رغم الأموال التي تصرف على الإعلام الخارجي للسياسة. ولا يكلف أحد خاطره، ليبياً كان أم عربياً ليلقي الضوء على الحياة الثقافية الليبية. كأن الصحافي العربي وهو ينهب أموالاً من السياسي لا يعود يعنيه الشأن الثقافي أو الفني. وحين طرحت السؤال على عدد من المسؤولين لم أجد جواباً مُرضياً. كأنما المواهب تحيا وتموت في أرضها.

في تلك السهرة المتأخرة ضحكوا عليَّ حين أردت طلب تاكسي إلى الفندق. محمود البوسيفي قال لي: «وهل تريد.. ليموزين»! فمن الصعب إيجاد تاكسي؛ لأنه لا توجد في طرابلس حياة ليل بالمعنى الذي أعرفه. إنهم يأوون باكراً إلى بيوتهم، بلا غضب أو أحلام. وتذكرت ما قاله فرج العربي لحظة وصولنا إلى طرابلس: «أحب بلادي رغم كل شيء».

أيتام على مائدة!

فرج العشة وفاطمة المحمود صديقان في الشعر والصحافة والزواج، انطلقا بي إلى «صبراتة»، تلك المدينة الأثرية الرائعة، ولحظة دخولنا، إلى ذلك المسرح الروماني فاجأني الناقد أحمد الفيتوري ببروزه من بين الأعمدة، يصرخ عالياً ويقفز بجسده الضخم. كنت أراه من بعيد مثل أوديب الذي فقأ عينيه، وأتذكر كيف قاده غرامشي إلى زنزانة. حين تفرقنا على المدرجات، شممت رائحة حيوانات

مفترسة ودم المصارعين السجناء على المسرح الروماني، أولئك المتروكين للأنياب والوحوش الجائعة، ليتفرج عليهم الملك وأهالي المدينة. همس في أذني المسرحي محمد العلاقي: «الرومان قدموا للمسرح مؤلفاً مسرحياً واحداً هو «سينكا». المسرح لليونان». وتخبرني الشاعرة تهاني دربي عن أحلامها وزوجها الشاعر إدريس ابن الطيب التائه بين القصيدة والوظيفة في روما. ثم أشارت إلى كومة فخار فينيقي، فقلت لنفسي: هل أنا واحد من أحفاد الفينيقيين الذين وصلوا إلى الشاطىء الليبي وبنوا ثغوراً؟ هؤلاء التجار البحارة كانوا يلجأون إلى تلك الموانىء الطبيعية الليبية وقت الخطر، للتزود بالماء والطعام. تذكرت أيضاً ثوار بلادي وبلاد الآخرين وقراصنتهم، أولئك تجار السياسة والصحافة، حملة الحقائب الصغيرة والشعارات الكبيرة، الذين لجأوا إلى ليبيا وتزودوا بالمؤن المالية على حساب شهداء وأرامل وأوطان، ثم حولوها إلى أرصدة خاصة بهم، وفروا حين انتهى وقت اللعب وبدأ الحساب.

ترى هل يعاقب أهل هذي البلاد على أفكارهم أم على نفطهم؟ وتشعر بأن ثمة حصاراً عربياً أيضاً وكأن الثائر أصبح يتيماً إلى مائدة اللئام! وقد آن الأوان لينفضّ الجمع الثوري الفولكلوري من أصحاب الكوفيات والبيريه الإيرلندية أو النيكاراغوية.

ليبيا المحاصرة لا تشعر بنقص في المواد الغذائية أو غيرها. فالدولة ما زالت تشتري السكر والشاي والدقيق وغير ذلك بسعر رمزي، لكن المهربين بالمرصاد من أهل البلد حتى بلاد الجوار، كأنها فرصة نادرة للثراء السريع قبل فوات الأوان. وليبيا تحاصر نفسها بالشعارات من العروبة والأخوة حتى الثورة العالمية واللاحدود. كما البحث عن شكل آخر للحياة مثل العودة إلى بداوة عيش. ثمة حصار آخر من مفردات العزة والكبرياء. وتقرأ في الصحف الليبية احتجاجات

بصوت عالٍ ضد المهربين والتجار من جميع الأنواع والأصناف الغذائية والفكرية من مثل: ما الذي جنيناه من حبنا للعروبة والثوار! وطبعاً هناك كره لأميركا، والبعض يعتبر أن التاريخ يعيد نفسه فيقول لي محمد القذافي أحد المسؤولين في الإعلام: «إن الأميركيين حاولوا احتلال ليبيا سنة ١٨٠١، واستمرت الحرب أربع سنوات، حيث هُزمت البحرية الأميركية على شواطىء طرابلس ودرنة وبنغازي».

من على المدرج الروماني في صبراتة، رأيت البحر شاسعاً وضخماً وتساءلت أليست طرابلس مدينة بحرية؟ إذا أين الصيادون! أين السمك! أين الحانات والمقاهي البحرية! وتذكرت شعاراً قرأته أن البحر عدو دائم، منه أتى الرومان والأتراك والطليان. البحر جلب الخراب والموت والاستعمار. وأخبرني أحدهم حكاية البدوي الذي جاع فأقفل البيت على نفسه، وأغلق الباب والنوافذ بالحجارة، ومات جوعاً حتى لا يذله أحد، مع أن البحر على خطوتين منه ماء وسمكاً. فتذكرت شعار: «لا استقلال لشعب يأكل من وراء البحر». إنه العداء التاريخي بين البدوي والبحر، والخوف الدائم من قراصنته، لذلك ينكفيء الليبيون إلى الداخل حتى عمق الصحراء، ويبتهجون بأبطال مثل عمر المختار: قاتلوا وماتوا.

في الاستراحة في صبراتة شربنا القهوة أكثر من مرة، وعندما هبط الليل وهبت نسائم أيلول/ سبتمبر قلت لصديقي: «ربما يلزمني وقت لأفهم ما يجري»، مع أني لست محللاً سياسياً أو منظراً فكرياً حول طبيعة الأنظمة المتعددة، ولا أفقه شيئاً في علوم الاستراتيجيا والتكتيك وتاريخ القبائل والعشائر، لست سوى صحافي متواضع. أصغيت إلى محمد العلاقي، المسرحي الذي

يحاول إخراج «في انتظار غودو». أما فاطمة العائدة من قبرص بعد أن أقفلت مجلتها «شهرزاد» واستلمت تحرير مجلة «البيت»، فأخبرتني أسطورة البنت التي سجنها أبوها لجمالها وخوفاً عليها، في قصر زجاجي حتى لا تموت، لكنها ماتت من شيء آخر، من عنكبوت يُدعى الضجر أحياناً والوحدة أكثر الأحيان.

من يشاكس من؟

أفترق أنا والقاص حسين المزداوي على رصيف البحر الذي قطعناه أكثر من مرة. وقد أصغيت إلى شغبه في القصة وانضباطه في الحياة الدبلوماسية. نفترق تاركين خلفنا البواخر المضاءة في الميناء، وعشاقاً صغاراً يتلامسون وسط الدفلى في لحظات حب نادرة وسط صخب الموج.

أعود إلى غرفتي تعباً من التجوال طوال النهار، من كافتيريا فندق باب البحر إلى كافتيريا الفندق الكبير. أتمدد على السرير مثل مجلة عتيقة وأتصفح الجرائد الليبية، ويلفت نظري أن جريدة «الشمس» المعارضة تضع ترويسة دائمة: «الشمس جريدة حائط أسسها الطالب معمر القذافي». وكنت قد علمت أن مجلة «لا» النموذجية في المشاكسة قد ساهم في تأسيسها معمر القذافي. ويروى أن العقيد يزور المثقفين في منازلهم على حين غرة، يناقشهم ويجادلهم في شؤون الأدب. وعنَّ على بالي سؤال: هل يقود هذه البلاد قاص؟ وحين قرأت مجموعته القصصية.. «الأرض، الأرض..»، فاجأني بوجهة نظر مختلفة يدفع بها الحاكم إلى الناس بقوله: «بماذا أطمع أنا البدوي الفقير التائه في مدينة عصرية مجنونة، أهلها يتناهشونني كلما وجدوني؟ «ما أقسى البشر حين يطغون جماعياً!... والمدينة كابوس... وهي مقبرة للترابط الاجتماعي...

وأحب الجموع وأخشاها كما أحب أبي وأخشاه... هو المسحراتي الذي يطبل ولا يسمع أحد...» وتتالى القصص في مشاكستها عن كسل أهل بلاده واتكاليتهم. إنه الاحتجاج المتبادل. إنها بلاد من التجارب واعتراف الثائر بأن ثورته كانت ٢٥ سنة من التجريب، يبحث عن ريف وبداوة وقمر وموت جميل يستسلم له كأنثى. يبحث عن نقطة ماء في بطن صحراء، والصحراء تنتج أنبياء جدداً. يبحث عن تقويم مختلف عن أي زمن عربي أو أجنبي. واكتشفت أن الزمن بطيء جداً في ليبيا وكذلك الإخلال بالمواعيد. فالعجلة من الشيطان، والصبر جميل.

إنها بلاد مشدودة على أوتار عدة، من إسلام علماني عروبي وأرض العرب للعرب إلى أفريقيا للأفريقيين. وهي تفتش الآن عن ليبيتها. يقول الباحث د. علي فهمي خشيم المتهم «بتلييب العالم»: «إن الليبيين أو (لوبيون) هاجروا إلى إيطاليا بعد فشل الغزو العظيم على مصر في عصر مرنبتاح الثالث، وإن الأسماء اللاتينية والإيطالية وروما هي عروبية وكذلك الإنكليزية». وأثبت أن اللغة المصرية القديمة الفرعونية هي عروبية الأرومة! ترى هل تعيش ليبيا بارانويا سياسية، فكرية من اعتزاز بعروبة التاريخ والجغرافيا، المتهافتة الآن وإلى الهجس بعالمية في السياسة والثورة. والذات المشبعة بالغضب والنقمة والمكابرة على الجرح، والخيبة. وصراع بين أجيال لا يتعدى حدود المعارك الأدبية؟ وحين التقيت بعلي فهمي خشيم على شرفة مقهى المعرض وتحتنا بركة ماء آسنة، كان ودوداً في النقاش، على عكس ما رواه لي أحدهم أنه يرفض أدب الشباب وقصيدة النثر والشعر الحديث رغم قوله: «إن التجربة الشعرية الجديدة هي كارثة قومية أدبية واجتماعية وسياسية». وحين تبادلنا أطراف الحديث القليل كان مُتفهماً وحاضناً لأدب الشباب ولكن على طريقته.

وهذا يقودني إلى انطباع أن الأدب الليبي المعاصر، في الشعر والقصة، هو أقرب إلى التجارب الطليعية والاختبارية في العالم العربي، وإن كان مهملاً ومحاصراً في الإعلام والمهرجانات العربية. فالليبيون مظلومون إعلامياً ومهضومو الحقوق ثقافياً، حيث الحياة الثقافية الليبية تحفل بأدب الاعتراف وبالجرأة النادرة، ولا تغلب عليها لا النجومية المفقودة والممنوعة أصلاً ولا التهييص الفضائحي، ثمة كتابة في السر وطمأنينة تشبه طمأنينة البدوي إلى سمائه ليلاً.

صورة لألبوم العالم

في منطقة «الزاوية» وفي بستان شاسع، كانت سهرتنا. كنا قبيلة من شعراء وقصاصين، توزعنا على مصطبة، تظللنا أشجار ليمون ونخل. هناك، أنشدوا بشكل جماعي أغاني لفيروز. وجوههم كانت تلمع وتضيء، ولم يكن في السماء قمر أو نجمة. رقصوا وغنّوا وألقوا شعراً لا يحصى. كانوا خارج الحصار، وكنت أراقبهم بحذر خشية أن أكسر شفافيتهم وحساسيتهم المفرطة. كانوا خارج الجوار العربي، خارج الدولة، خارج العائلة. كانوا عشيرة يتيمة وسط القبائل الأخرى. إنهم وحيدون وكأن البلاد خيمة لبدوي، يركّبها، ويفكّكها وينقلها تارة من صحراء إلى واحة وحيناً من زمان إلى آخر.

في السهرة كان يوسف الشريف (رئيس تحرير مجلة الفصول الأربعة) أكثرهم طفولة. ذلك الخمسيني الذي يشرف على منقل الشواء بجلابيته، ويغفر للفتيان طرائفهم عنه. كانوا يدبدبون حوله كأن المثقفين الليبيين يتشابهون دون حساب لأجيال أو أعمار. أراقب إدريس المسماري الذي لا يكف عن ضحكة متقطعة، رغم

السنوات المطمورة بين جدران رطبة. ومجاهد البوسيفي الفتى المشاكس نصاً وسلوكاً يروي عن حوادث سير مجنونة، وعن شغبه في الشعر والسياسة، والآخرون يراعون فوضاه. وترى الشاعر نور الدين الخجول لساعة واحدة، بعدها ينطلق في أغنية لا تنتهي، يغني عن أخوة تفرقوا في الصحراء أو الغربة. فرج العشة يلقي قصيدة إلى فاطمة كيفما اتفق، وعن هجرات في حبها من ليماسول إلى بيروت وباريس، ويصل إلى ذاكرة الجبل الأخضر الذي لا ينساه. تراقبهم من أحمد الفيتوري الذي لم يتركني لحظة أشعر بغربة، وفاطمة التي تبتسم رغم صداعها، إلى تهاني التي تحضن أطفالها، وأم العز الفارسي الكتوم الواثقة التي تحتفظ بأوجاعهم جميعاً.

من «الزاوية» إلى طرابلس أعود فجراً، يقودني يوسف الشريف بسيارته تاركين خلفنا رجالاً نائمين وقصائد معلقة على الشجر. لم نتكلم طوال الطريق، عيناي على اللافتات: «الدجاجة تبيض والدينار لا يبيض» إلى الكومونات واللجان في كل مكان. كل شيء هادىء مثل هذا الفجر. السيارة تنهب الإسفلت الطازج. وأرى شعوباً بكاملها تنام، غانيون ومصريون وسودانيون وغيرهم، يبحثون عن لقمة عيش. أصل إلى الفندق وأجد رسالة من صديقي فرج العربي يخبرني فيها أنه اضطر إلى المغادرة إلى بنغازي، فخفت عليه من سقوط الطائرة بسبب النقص في قطع الغيار.

ربما كان يلزمني وقت لأعرف. وقعت في الاكتئاب، وازداد شعوري بالوحدة. حين فقدت صورة طفلي «زكريا» وفتشت عنها ولم أجدها، تذكرت أبي وصورته مع الغزال. أين ضاعت صورة ابني؟ هل أصبحت حياتي مرهونة بصورة! وهل أصبحت الثورة هي صورة تذكارية في ألبوم العالم؟ تذكرت تشي غيفارا الذي

رفض الدولة ومات وحيداً في الأدغال... ولأتخلص من اكتئابي لجأت إلى الهاتف أتصل ببيروت، وعلى الهاتف أخبرتني زوجتي أن مقهى الويمبي قد أقفل أبوابه وتشرد الشعراء أمثالنا. هل أصبحنا غزلاناً شاردة؟ فازددت اكتئاباً وخوفاً على عاصمتي أيضاً. وحين وقفت أمام المرآة تأملت نفسي وصرخت: «يا إلهي... لماذا كلما زرت عاصمة عربية يزداد الشيب في رأسي؟».

في طريق العودة براً من طرابلس إلى تونس، كنت أتصفح كتاباً عن متحف طرابلس، وحين وصلت إلى الحدود، استرعت انتباهي أسطورة تحكي لنا قصة الأخوين فيلّيني في النزاع حول الحدود بين قرطاجة واليونانيين، وكيف فُضّ هذا النزاع حوالى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، حيث اتفق القرطاجيون واليونانيون على أن يقوم عداؤون من الشعبين بسباق للجري. على أن يبدأ العداءان اليونانيان من مدينة شحات، والعداءان القرطاجيان من مدينة قرطاجة في اتجاهين متضادين، وعند تلاقيهم تقام الحدود الفاصلة بين البلدين. وبدأ السباق في وقت واحد، وأسرع العداءان القرطاجيان فقطعا ثلثي المسافة تقريباً فاتهمهما اليونان بالغش في السباق. وحسماً للصراع طالب اليونانيون إما بدفن العداءين القرطاجيين في موقع التلاقي، أو ترك العداءين اليونانيين يواصلان السباق، ودفنهما حيث يقفان. وفضل العداءان القرطاجيان أن يدفنا حيث التلاقي حتى تظل الحدود كما هي. وقد دفن العداءان القرطاجيان في المكان نفسه. وهذه القصة في الواقع هي مزيج من الحقيقة والخيال، كما يدل على ذلك لقب العداءين باللغة اليونانية، ومعناه: «محبا الشهرة».

(«الناقد» العدد ٨٠ ـ شباط/فبراير ١٩٩٥)

- ٣ -

دمشق ١٩٩٥:
عينٌ على كابوس سلام!

تبدو دمشق في هذا الخريف من العام ١٩٩٥، مطمئنة إلى التوقيت العالمي الجديد، وتحاول ضبط إيقاع خاص بها.

تغريك دمشق بالتحقيق عنها كآخر عاصمة عربية تقول: «لا»، أو لأنها تستشعر عن قرب، وتستطلع على مهل ما الذي تخبئه رياح القرن المقبل على المنطقة، فتنظم لنفسها قواعد سير صارمة في الطريق إلى المفاوضات.

بلاد تمشي على حذر... ترفض دور «الكومبارس» على خشبة الصراع، ولا تقفز إلى المجهول. إنها تنسحب إلى كواليسها، أو تتفرج على عروض الآخرين في الجوار: استعراضات، اتفاقات، حفلات توقيع، مؤتمرات اقتصادية.. ناهيك عن فولكلور جوائز «نوبل» للسلام.. ثم ترصد بأعصاب «باردة» الأخطاء الفادحة للاعبين الأشقّاء.

في الطريق إلى القرن الواحد والعشرين، ثمة حقل شاسع من الأفخاخ، وبخبرة بارعة، تنزع دمشق ألغاماً قديمة، وتنزع الصواعق

من ألغام أخرى تمّ زرعها حديثاً، لتبحث عن حداثة و«عصرنة» تليقان بها، وعن انفتاح اقتصادي هادىء بعيدٍ عن أوهام الرخاء والسوق الحرة!

أمكنة وأصدقاء

اعتدت زيارة دمشق مرات عدة في السنة، لدواعٍ مهنية أو إبداعية، ولإلقاء التحية على أصدقاء كبرت وإيّاهم، وأنا أراقبهم بعين صحافي، وأتلمس كل مرة تغيّراً وتبدّلاً ملحوظين في إيقاع حياتهم: هامش للحريات يتسع يوماً إثر يوم، تغيّرات اقتصادية واضحة في نمط العيش... أصبحوا أقلّ احتجاجاً وصخباً. حتى إجراءات الحدود باتت أخفّ وطأة: رجل الجمارك يبتسم لك، وخلفك الباصات، والسيارات السياحية تقل اللبنانيين.

لكل لبناني مشاغله في الشام: السياسيون إلى فندق «شيراتون»، المؤمنون لزيارة مقام السيدة زينب والتجار للتبضّع من سوق «الحميدية» الشهير. ناهيك عن الرحلات الطلابية والشبابية في الربوع السورية، حيث حرية الإقامة، والأسعار المخفّضة في الفنادق والمطاعم والملاهي، التي لا تقاس بمثيلاتها في بيروت «الملتهبة»!

في دمشق، يمكنك أن تجد كل شيء، فقد انحسرت ظواهر التهريب واختفاء المواد التموينية. قال لي سائق الأجرة: «بعد توفر معظم المواد الاستهلاكية، اختفى المهرب والمرتشي، وخفّت القيود على الحدود لجهة الأسئلة والأختام».

اخترت توقيت زيارتي، في أواخر أيام مهرجان دمشق السينمائي التاسع. استقبلني مدير المهرجان مروان حداد بودّ ومحبة بالغين. وحللت ضيفاً لثلاثة أيام. أقمت وسط مشهد سينمائي لأكتب ما

يشبه «السيناريو» المفكّك عن دمشق في عيون أشقّائها الغرباء عنها، وضيوفها واللاجئين إليها.

فندق «الشام» لم يتغير ولم يتبدل كما في كل مهرجان: نافورة المياه، الكنبات الجلدية، موسيقى تشايكوفسكي في البهو والغرف، عازفتا الكمان، نادلا مقهى «برازيليا»، أضف إلى ذلك موظفي الاستقبال الذين تعرفهم جميعهم منذ عشر سنوات، والديكور نفسه، لكن الأصدقاء تغيروا. تنقلت بين الأصدقاء أحاورهم وبينهم: الممثل، الموظف في الدولة، الشاعر، المخرج، الصحافي، الفنان التشكيلي. أصغي إليهم وهم على عجل لكثرة مشاغلهم. فاكتشفت أنهم باتوا يحوزون على فرص عمل جديدة ومتنوعة: «الاستكتاب» للصحافة العربية، النشاط المكثف في حقل الإنتاج التلفزيوني الذي بدأ ينافس نظيره المصري، هذا بالإضافة إلى «عجقة» المعارض التشكيلية، وكثرة صالات العرض، وازدهار حركة الطباعة والنشر. كل ذلك شكّل بالنسبة إليّ مؤشرات واضحة لنمو اقتصادي بارز قياساً على السنوات التي انقضت.

حكواتي مقهى «النوفرة»

ما الذي يقوله زوار دمشق وضيوفها وكيف ينظرون إلى دمشق التسعينيات؟

أخبرني الباحث والناقد العراقي فاضل الربيعي فقال: «عشت سبع عشرة سنة، ولم أشعر أنني من بلد آخر. ثمة ميزة في المجتمع السوري تتجلى في روح التسامح القومي، التي تمنحك فرصة للانخراط في المجتمع من دون عوائق أو أي تعرض لكرامتك الوطنية. فالشام كانت دائماً ملتقى الغرباء والتجار من كل

الأجناس من: شيشانيين، بنادقة، ألبان، شركس، أرمن وأكراد. أعراق وشعوب تتعايش، ولا تشعر أنك في مدينة معادية. وهنا سرها وسحرها وتناقضاتها».

في مقهى «النوفرة» الكائن في أحد الأحياء الشعبية الأثرية، خلف المسجد الأموي، كان الحكواتي الشاب يروي لنا: « ..يا سادة يا كرام، عبلة زينة النسوان، وجهها كالبدر، وعينها عين الغزال، وصدرها أوسع من ميدان...» وحين يتأوّه بعض الحضور، يصرخ: «بيكفّي يا شباب.. O.K.. shut up» ويكمل بإنكليزية «مكسّرة» كرمى عيون السياح الهولنديين. خلف الحكواتي، على الحائط، صورة لعنترة «أبو الفوارس»، وبعض اللوحات التشكيلية للفنانة ريم الخطيب: عري، أجساد مجرّدة تفوح منها رائحة الشبق الجنسي. «الأراكيل» «تكركر»، والحكواتي يخبط بسيفه على «الطربيزة» بفرح، ويضحك طويلاً لوحده، لأننا نبحث عن «عنترة» حقيقي وسط هذه الصحراء من الممالك المنهارة من حولنا.

لم تكن سورية موحدة في الزمن الغابر، كانت مجموعة من الإمارات والممالك: حمص، حلب.. الشام.. وسورية الحديثة تدافع بقوة عن فكرتها القومية وعودة أرضها وشعبها، لذا تتقن فن السياسة، فهناك إرث كبير من الحنكة في التفاوض.

وسط هؤلاء جميعاً، تقع دمشق في دائرة الاستهداف، وفي قلب جوار قلق تترصده العيون المتربصة. حنكة دمشق تعود لكون الشام، تاريخياً، ملتقى للتجارة الخارجية والدولية في الشرق القديم. وما يعرف بخط «تدمر» للقوافل التجارية، قبل خط مكة التجاري، كان لعب دوراً مهماً ورئيسياً في العلاقات السياسية، وفي الحروب التي اندلعت على هذه الأرض بسبب موقعها الاستراتيجي.

ويحق لدمشق أن لا تبتهج الآن، أو تصاب بغرور لموقعها المميز كخط دفاع أخير، ولا تخدع بكونها حسناء الشرق، والغواني لا يغرهن الثناء. فلا إغراء القروض الدولية أو سياح بالجملة أو أوهام تنمية خارجية، إنها مكتفية إلى حد ما، وليست طموحة سوى للدفاع عن نفسها في شرق أوسط جديد.

قال لي يوسف: «الشام أم الفقير»، يمكنك العيش بتناول الحمص والفول لتسد جوعك، وفي الشتاء، أكلنا من «المونة»، حيث ما زالت الحياة الريفية تلعب دوراً مهماً في الاستقلال الغذائي، من تموين المكدوس والزيتون والجبنة والمربى، والاكتفاء بحواضر البيت، وهذا النمط من العيش ليس حكراً على الريف، وإنما يطاول الحواري الشعبية في المدينة..

لذا لا تشعر دمشق بابتزاز اقتصادي يجبرها على التنازل، فلديها اكتفاء ذاتي من النفط، مع إمكانية تصديره، وكذلك هناك محصول القمح، وامتصاص البطالة المقنعة بإيجاد فرص عمل لشرائح واسعة كهجرة العمال إلى لبنان والخليج أو عبر تنمية السياحة الداخلية.

سوق «الحميدية»: سر الشام

حين تدخل إلى سوق الحميدية، تكتشف سر الشام وأهلها في علاقتهم مع الزمن والتاريخ والسياسة. فالبائع يتجادل معك لساعات من دون أن يفقد صبره، ولا يكل من الكلام في وصف جودة بضاعته. يساومك، ويناقشك في كافة الأمور حتى يوقعك في أسر الخجل والاحراج، فتشتري أو تهرب.

إنه فن المجادلة، والعجلة من الشيطان.. وهذا ما يؤكده المفاوضون

من كيسنجر حتى كريستوفر وصولاً إلى كلينتون، الذين يفقدون صبرهم من محاور عنيد متمسك بفكرته وثوابته، يوضحها ويسلسلها في التاريخ والجغرافيا والقيم والأرقام، من دون أن يفقد السيطرة على المسلمات والحقوق.. وصاحب الحق سلطان الكلام.

الجدال في كل شيء بين الركاب وسائق الأجرة.. بين المثقفين ونادل المقهى.. بين التاجر والزبون، بين المرأة والرجل، حتى إنك تفاجأ بين الحين والآخر بشجار بين شخصين في الشارع، ويتجمع الناس حولهما.. واللافت أن سجالهما الصاخب وتشاتمهما يحصلان من دون أن يلمس أحدهما الآخر، ونادراً ما تصل المشكلة حدود إراقة الدم والعنف الجسدي.

إنه التفاوض بين عرض لسلام ناقص يقابله رفض مبني على المنطق والكبرياء التاريخي، من دون أن يقفل الباب على الحوار. إنها الشعرة حيث لا قطيعة مع أي طرف محلي أو عربي أو دولي، ولا تسامح أو نسيان مع عدو في الذاكرة والتاريخ.

تخرج من سوق «الحميدية» وتجارها بقميص قطنية وفكرة لا بأس بها عن النسيج الاجتماعي، لترى سيارة «المرسيدس ـ الشبح» تطلق «زمّورها» «منذرة» عربة «كارو»، وحماراً نعسان يتهادى، وشرطياً ينظم السير للمشاة والمواطنين الذين تبدو عليهم سحنات الأرياف المتعددة الأزياء واللهجات المختلفة، حيث الهجرة المتزايدة لأبناء القرى إلى المدينة.

دمشق في عيون ضيوفها وزائريها

دمشق مدينة محافظة على تقاليد وعادات وطقوس أقرب إلى الريف منها إلى المدينة المعهودة، لذا تبدو معظم الأشكال الإبداعية

من الشعر حتى السينما تغرف من الحياة الريفية. وكذلك السياسي حين يستعير من الفلاح صبره وعلاقته المقدسة بالأرض ومفاهيم عزة النفس ومفردات الشرف. أضف إلى ذلك الشعور القومي والعروبي الذي يبدأ من التربية المدرسية والأناشيد انتهاء بالحياة السياسية.

في رواق الفندق يخبرني «راسم» أن فلسطين أصبحت بعيدة أكثر. ويقول: «أرفض العودة وسأبقى في دمشق ملجئي الأخير. أغادر وأعود. ولا أحد يسألني عن تأشيرة الدخول!». ويضيف: «نحن الفلسطينيين لا نعاني من عنصرية الإقامة، بل على العكس من ذلك، فنحن نتمتع بالحقوق والواجبات وحرية العمل والحركة أكثر من أي دولة في العالم العربي».

أما «فاروق» القادم من الأردن لحضور المهرجان السينمائي فقال: ذهبت إلى فلسطين، إلى غزة وجنين ورام الله، أفتش عن وطني، وأحاول الاستقرار، لم أستطع الإقامة، عدت وشعرت بالاحتلال أكثر: في إحدى الليالي، عطشت، فجلبوا لي قنينة ماء كتب عليها بالعبرية. لم أتمكن من شربها، لأنني ما زلت معتاداً على مقاطعة البضائع الإسرائيلية. ولكنني اكتشفت أن الحاجز الإسرائيلي، حين تتم إزالته يترك خلفه بضاعته وفرص العمل. إنه الاحتلال الحقيقي يصل إلى لقمة العيش. عطشت واضطررت للشرب على مضض. ومع كل جرعة غصة!.. إنه سلام الغصّات. وأنا في دمشق الآن أشعر بحرية ما، وأراهن على بعض كبرياء قبل العودة إلى عمان.. أقفل الباب على نفسي... بيتي هو وطني».

أترك «فاروق» في البهو قرب نافورة المياه. أخرج إلى الشوارع بعد منتصف الليل، أرى المدينة هادئة، حتى طلقات الرصاص التي

صرعت إسحق رابين لم تعكر صفو الحياة الدمشقية السائرة على مهل، مع شعور بالدهشة انتابني من تصرّف الأشقاء العرب الذين استنكروا وشيّعوا، واعترفوا بالقدس عاصمة لإسرائيل. أحاول أن أفكر بسلام ما مع روحي وجسدي مع عدو يكرهني في أعماقه. أتذكر ما قاله «فاروق» عن السلام الأردني والوعود التي تغدق عليه: «أن الشركات السياحية الإسرائيلية تضع في برنامجها السياحي الموجّه إلى الأوروبيين، زيارة إلى «البتراء»، فتأتي وفود السياح، وتقيم في فنادق «إيلات» التي تبعد عن «العقبة» مسافة ربع ساعة من الزمن في الباص، وعن «البتراء» ساعة. مزودة بالسندويشات والمرطبات الإسرائيلية. ويقوم هؤلاء الناس بالتقاط الصور، وتنتهي رحلتهم بالعودة على متن الباصات الإسرائيلية من دون أن يصرفوا قرشاً واحداً، لكنهم يتركون وراءهم قناني المرطبات الفارغة بين الأعمدة الأثرية، يغادرون نحو الفنادق الإسرائيلية، نحو بهجة أخرى تدعى سلامهم وازدهارهم».

العراقي «التائه» حديثاً من بغداد، واختار دمشق منفاه، حدثني: «أنه قبل هروبه من العراق شهد سهرة عامرة في أحد بيوت المسؤولين العراقيين، امتلأت بما لذَّ وطاب من مآكل ومشروبات وكأن لا حصار! وفي اليوم التالي علم بقصة جاره في الحي الذي باع جهاز التلفزيون ليشتري بثمنه ثلاث دجاجات، وطلب من زوجته أن تحضر الطعام، وما لبث أن وضع بعد حين كمية كبيرة من السمّ في أواني الحساء، وتناولت عائلته المؤلّفة من ثلاث بنات وثلاثة صبيان إضافة إليه وزوجته، فماتوا جميعهم «وارتاحوا» من القهر والذل. عندها قررت الهرب من هذا الجحيم إلى دمشق، التي أصبحت ملجأً للمنفيين العراقيين الموزعين في أصقاع أوروبا والقارات الأخرى.

بين عمان وغزة وبغداد وتل أبيب، تبدو دمشق متماسكة الأنفاس، وعلى قلق طبيعي تقرأ الإشارات المبثوثة، تتريث، وتنتقل من اقتصاد إلى آخر بلا انقلابات درامية في الحياة والسلوك والعيش.

«الليل» والسكّين

في السهرة التي دعانا إليها المخرج السينمائي محمد ملص، كنا «تشكيلة» عربية. سهرنا في بيته الجديد في «دمّر» المدينة الجديدة بضواحي دمشق. من أقطار عربية عدة جئنا. فنانون وفنانات وصحافيون وأدباء من تونس والجزائر والأردن وفلسطين والمغرب وسوريا ولبنان.

في تلك السهرة، اختلفنا على أمور كثيرة، وتباينت آراؤنا خلال الحوادث وتفرّقت اللهجات. أشقاؤنا في المغرب العربي تحاوروا بالفرنسية، ونحن تحادثنا بلهجاتنا المحلّية - المشرقية.

على الحائط، ملصق لفيلم «الليل» هو عبارة عن خلفيّة سوداء لسكين تقطر دماً في صحن. هي السكّين التي تفرم اللسان العربي التائه بين عروبيّته وفرنكوفونيته وإسلاميّته... السكين لطعنة في الظهر من عاصمة مجاورة.. السكّين لحزّ الحدود وانفصالها، السكّين التي تلمع في الليل.

خفت على نفسي، وأشفقت، ولم ينقذني سوى سلطان النوم. وصرت أحلم بعيداً عن كوابيس السلام وهلوسات الحرب.

(«السفير - سفير الناس» ٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٥)



- ٤ -

بيروت ١٩٩٢:
خطأ أبيض وسط صواب أسود

بيروت في العناية الفائقة

تبدو الجمهورية اللبنانية بلا خارطة وبلا حدود أحياناً. وفي مقلب آخر تختزل تناقضات العالم ووجعه. جمهورية تختصر نفسها إلى مدينة. والمدينة مفتتة إلى أحياء. والأحياء المجتمعة تشبه القرى. هل هناك عاصمة تدعى بيروت؟ وهل هناك جمهورية تدعى لبنان؟ المدخل إلى هذه البلاد مفخخ بألغام مطمورة في الزواريب، في الأفكار، وفي الحوارات. كيف نقرأ هذا المجلد الضخم المطلسم بألف شعار وشعار؟ وكل من حاول حلّ كلمة سرّ من أسراره وقع في متاهة لبنانية، حتى أصبحت اللبننة مفهوماً فكرياً وسياسياً في العالم المعاصر وفي الخطاب العالمي، يدل على معنى الدوامة ويشير إلى اللاشيء تارة، وإلى أشياء عظيمة تارة أخرى. وذلك بالمعنى الكوارثي والفضائحي في العلاقة بين الفكر والسياسة، بين المثقف والسياسي، بين الدولة واللادولة.

نحن أبناء هذه البلاد نحاول استعراض المشهد الفكري لبيروت ١٩٩٢، حيث السياسي بلا مشروع فكري، والمثقف بلا فكر

سياسي، حيث الأسئلة الفكرية لا تتجاوز التصريح السياسي الغرائزي، ثم انقلابات تلو انقلابات. وإعادة نظر في نتاج الحضارة الفكرية، من معانٍ وقيم ومفاهيم، كالدولة والحرية والديموقراطية والعلمنة، والطوائف، والعروبة والوحدة والأممية وكل تلك الأفكار في حالة تجاور وتصارع في آنٍ معاً.

تعب الجميع، حتى الأفكار داخت لكثرة دورانها، أيديولوجيات في «العناية الفائقة» ينتظر أصحابها ووكلاؤها في غرف الانتظار. وزعماء طوائف يرممون صروحهم من كنائس مدمرة إلى مساجد محترقة، والرعية في حالة إغماء، والجماهير تفتش عن أقرب سفارة غربية، تنصب الخيام بين ألمانيا وكندا، وتحلم بجواز سفر آخر، بجمهورية أخرى. تعب الجميع من خطيب الجمعة إلى مطران قداس الأحد، وزعماء الأحزاب العقائدية يفتشون عن مخارج طوارىء. الكل في حالة انزواء إلى الداخل. الشيوعيون يلملمون بقاياهم، ويفتشون عن اسم جديد. العروبيون منشغلون بندوة عن الوحدة في زاروب ضيق. وعبد الناصر حي في ملصق في مركز عمر المختار في البقاع أو مركز معروف سعد في صيدا. القوميون السوريون تمزقوا، وأصبح الهلال الخصيب مختصراً في «شارع الجاندارك». والجمهورية الإسلامية لا تتعدى حي «بئر العبد» و«المجتمع المسيحي الحر» مشتت في غابة صنوبر على سفوح كسروان. والعشائر تتنقل جماعات تلو جماعات من حزب إلى آخر تبعاً لمصالحها العصبية والزراعية، تعبوا جميعهم، وتوحدوا على مفهوم دولة، مطلق دولة. لذلك تشهد بيروت زحمة سير في الأفكار، فتتصادم، فتحتاج إلى شرطي ينظم سيرها وحركتها عكس الجوار العربي، حيث يوجد شرطي قوي ينظم فكرة واحدة

للجميع، ربما اتفقوا في لبنان على دولة. ولكن أية دولة؟ وأي مواطن؟

بيروت مختبر حقيقي لتجارب لا تنتهي، حيث الطائفي يتقبل العلمنة ويروج لها كخلاص، والذي يؤمن بالعلمنة يستنفر طائفته من رهاب أقلوي. والبعض يعيد النظر برموزه وأبطاله العالميين والاقليميين من ماركس إلى عبد الناصر وسعادة والخميني، ويبحثون أيضاً عن بطل محلي يتوحدون معه. ثم يتماهون مع آخر شعار يدغدغ الغريزة الجماعية وإرثها الديني، كدخول آخر في وهم بطولة، وفي بارانويا جماعة من جنون عظمة وعقدة اضطهاد، إلى شطارة لبنانية ملازمة لأي فكر محلي. لذلك تبدو الحرب ـ رغم نهايتها ـ أنها تغلغلت في عمليات التفكير وآلية الرؤية في إلغاء الواحد للآخر رغم حصص الجميع المتساوية في عدد الشهداء والقرى المدمرة. طوائف تخرج منهكة لكنها لا تتخلى عن رماحها وأسلحتها المختبئة في أعماقها. فما زالت شجرة العائلة هي التي يتفيأ ظلالها المجتمع اللبناني وأحزابه رغم الادعاءات.

في المشهد الآخر تنقلب الآية. لنأخذ شارع الحمراء مثلاً، سنجد سينما البافيون تعرض أفلام البورنو قرب أحد المساجد، وتظاهرة تعبر الشارع ضد السلام مع إسرائيل، وفي الشارع الآخر تظاهرة للسلام الأهلي. وقرب بار «الكيت كات» يوجد مركز ديني، وخلفه كنيسة في شارع المكحول تدق أجراسها. وفي سينما الحمراء سلسلة أفلام «رامبو» الأميركي. في اللحظة نفسها تنفجر سيارة مفخخة في الجامعة الأميركية، وتمر راهبة في الشارع قرب رجل يرتل ويجوّد آيات قرآنية، وآخر يبيع أحجية وأدعية وأيقونات على الرصيف حيث تعرض مجلات البلاي بوي. وتصادر الدولة

كتاباً من المعرض بحجة جنسية، وفي الأمسية الشعرية المجاورة شاعر يهدد إسرائيل، ويتضامن مع العراق. وفي الجوار معرض للدفاع عن الكويت، ونسوة يجمعن التبرعات لأرمينيا، وآخرون يصرخون دفاعاً عن الإسلام في «طشقند». ولا ننسى التضامن مع الأكراد وشعب كوبا وكل ذلك يتم برعاية خيول مارلبورو التي تصهل في الإذاعات (١٠٠ إذاعة) وفي التلفزيونات (٢٠ محطة تلفزيونية) التي تبدو متعارضة مع بعضها البعض، لكنها متفقة على أن الإعلان هو الأساس للتسويق وللبرمجة. وطبعاً أميركا هي عدو الجميع بنسب مختلفة، لذلك تنفعل بيروت فكرياً بأي زلزال مجاور في أية دولة في العالم، لأن أهل البلاد مشدودون إلى عواصم مختلفة من موسكو إلى الفاتيكان ومن طهران إلى دمشق، وواشنطن، والقاهرة، والرياض... وحتى سيرلانكا الحاضرة بقوة.

ما يشفع لبيروت أنها ما زالت حرة، والحرية شعار الجميع: الطوائف (١٦ طائفة) والأحزاب (عشرات) ويحكى أن المدن المولودة على البحر لا تموت. ولكن ثمة ادعاء بأن بيروت عاصمة عربية ولكنها بلا عرب، وأنها غربية لكن بلا أجانب. بيروت ١٩٩٢ غائبة عن الوعي، ننتظر لحظة خروجها من «الكوما».

المؤسسات نوادي قرى والصالونات جوقات زجل

تصعب الإحاطة بثقافة لبنانية محض، أو إبراز بطاقة هوية خاصة. فثمة ثقافات متنوعة لها إرثها الديني المتعدد وكذلك زئبقية حضورها، وسرعة إفلاتها بعد التقاط أول خيط. وهذا لا ينفي بعض خصوصية لعاصمة تملك ذاكرة حيوية، لحياة سابقة في

الستينيات والسبعينيات، مضافاً إليها الآن ذاكرة حرب، فيصعب حصر هذه المروحة الضخمة من الثقافات، ولكن يمكن إبراز بعض سمات بيروت الثقافية الراهنة، دون الخوض في إعلاء النص اللبناني، فننظر إلى المدينة بذاتها، بكينونتها دون مقارنتها مع عواصم العالم الثالث أو العالم العربي.

ثمة ثقافة اغترابية تعتبر أن الزمن قد توقف في ١٣ نيسان/أبريل ١٩٧٥، أي يوم اندلاع الحرب الأهلية، وأن ما جرى من فظائع وكوارث وحروب ليس من شيم أهل البلاد، والعنف ليس من ثقافتهم، وأولو الثقافة هذه ما زالوا محتفظين بألبوم ضخم من الصور التذكارية ويعيدون اجترار فولكلور ثقافي، وإخصاب ماضٍ منفصل عن الشارع وعن روزنامة الأحداث، نحو إحياء عز مزعوم، وازدهار موهوم، وتطوير هالات، لأسماء عادت من المنافي أو خرجت من الملاجىء لتشتم وتلعن هذا الحاضر والأدوات نفسها، من معارض تزيينية إلى حركة مسرحية رخيصة، وسينما استهلاكية، والثقافة التي كانت تمجد لبنان السلام سابقاً عبر ثقافة «الكارت بوستال» السياحية، تحولت الآن إلى ثقافة فولكلور الحرب وبطاقات الحرب والندب، وانزلقت إلى خرافة أندلسية منعزلة على كراسي هزازة أمام موقد الحرب، تتأمل وتستحضر أرواح ثقافية من مجلة «شعر» وأسطورتها وخرافتها، إلى موضوعات الحرية والعروبة في مؤتمرات اتحاد الكتّاب اللبنانيين، وإحياء ثقافة صالونات أدبية يغلب عليها طابع حفلات الزجل والتطريب المتبادل، في عمليات نبش متواصلة في الجمهورية بحثاً عن ذهب الإبداع. وبالسقوط في شوفينية محلية لا تعود تستغرب الثقافة المناطقية (مناطق) التي تغلغلت في تخاريم الحياة الثقافية من تمجيد للقرية في عاداتها وتقاليدها وشهدائها، وتعميم القرية كنموذج

للجمهورية اللبنانية وللعالم، وكذلك الزاروب والحي في المدينة، وهذا يستدعي طبعاً الطوائفية في النص من حضور الإرث الديني كفولكلور براني سطحي فندخل في ألف ذاكرة وذاكرة. وطبعاً لا ننسى النوافذ الخارجية التي تدخل من خلالها رياح ثقافية شتى تتصارع بين بعضها البعض. ثقافة فرانكوفونية وإنكلوسكسونية، ثقافة باريس التي تنحسر وثقافة نيويورك وهوليوود الزاحفة، وهذا الصراع له مكانه في بيروت إن في اللغة والمشهد والنظرة إلى العالم أو في المؤسسات المتعددة. صراع بين ثقافة الكلية اليسوعية وبين ثقافة الجامعة الأميركية. كذلك نتلمس خفايا صراع ثقافي عالمي يتجلى في بيروت [مناهج تربوية ـ تعدد برامج تلفزيونية ـ تعدد الترجمات والكتب والقراءات] وخارج غربي عموماً يتصارع مع ثقافة إسلامية لبنانية لها مراجعها العربية [الأزهر والنجف] ترافقها أصولية ثقافية متعددة الهوى والانتماء.

يمكن الحديث عن حيوية في الثقافة اللبنانية، لكونها ما زالت طليعية في إطار الخدمات والتسويق. فالناشر اللبناني له مكانته الأولى في عالم النشر العربي، والموزع السينمائي اللبناني هو المسوّق الأول للفيلم العربي والأجنبي. وحيوية متعهد الحفلات اللبناني في جلب الاستعراضات والمسرحيات العربية ما زالت مستمرة، ناهيك عن حيوية الخدمات الصحافية اللبنانية التي تشكل ما يشبه «الكارتل» الصحافي في الصحافة العربية، وفي هذا الإطار هل ما زال ممكناً بعد الحديث عن حيوية ثقافة خدمات؟ أي ثقافة ترانزيت وإعادة تحويل لكل خارج غربي إلى داخل عربي والعكس صحيح؟

في إطار آخر، تبدو المؤسسات الثقافية اللبنانية كأنها في فترة نقاهة

بعد حرب تدميرية لكل البنى. لكنها تعاود طرح الأسئلة نفسها بالأدوات التقليدية، فهي لا تتجاوز حفلات التأبين بين استنكارات وتضامن وتقبل تعازٍ وشهادات من بيروت الميتة، وإحياء أشخاص من ذاكرة عميقة عن رواد في جبل عامل أو كسروان وجرود جبيل والبقاع، فتتحول المؤسسات إلى ما يشبه نوادي القرى.

رغم ما يروى عن دور الصحافة اللبنانية وأهمية صفحتها الثقافية قياساً للصحف العربية، فإن هذه الصفحة قد تراجعت بشكل مذهل، حيث غابت الملاحق الثقافية (النهار/ الأنوار/ السفير...) وتحولت الصفحات في معظمها إلى متابعات وصياغة أخبار ولملمة أخبار وكالات أنباء، وتراجع تفاعلها بالثقافة العربية، خصوصاً إذا اعتبرنا أن أهمية بيروت كانت بالحضور الثقافي العربي، فانكمش هذا الدور وانعزلت على ذاتها، لأسباب تقنية كغياب البريد والاستكتابات، وغياب المثقف العربي عن المدينة. وما يفجع في هذه الصحافة انحسار العصب النقدي لمصلحة صحافة النميمة، حيث انزلق الحوار الثقافي إلى حوار ميليشياوي من تهميش وتهشيم وإلغاء الآخر، فنجد في المجلات الأسبوعية زوايا نميمة من فلاشات إلى مضادات ودبابيس وخبايا في عملية تقليد للمجلات الفنية الرخيصة، بحثاً عن فضيحة شخصية كمثل: شاعر شوهد يأكل الهمبرغر. وخبريات شخصية تنفي الآخر وتغتصبه وتشتمه. ويترافق هذا مع حضور ثقافة الصالون الأدبي وتفقيسه للكتّاب والشعراء، وإبرازهم في اليوم التالي على صفحات الجرائد والمجلات في حوارات يغلب عليها الإنشاء والمحبة والسلام واليمامة وطائر الفينيق. وتجاور هذه الثقافة ثقافة الاستهلاك مع المطرب الصاعد في لعبة ملاءٍ ثقافية. كأن المدينة في طريقها نحو ثقافة الإعلانات المضاءة بالنيون. ثقافة الخدمات السياحية مرة أخرى.

هواجس النجومية

ما زال الشعراء الشباب في لبنان يستندون في تنظيراتهم ونصوصهم إلى مجلة «شعر»، كمرجع وحيد وإرث يتيم، في محاولات لوصل النسب تارة وإنكاره تارة أخرى، بالإضافة إلى اجترار أسئلة أولى في الحداثة المفتوحة وكسر السائد الشعري وثورية اللغة. والفرق بين الشعر الحر وقصيدة النثر، في سياق نزوع لمزيد من التنوع في فسيفساء القصيدة اللبنانية وأوهامها بكونها طليعية، واعتزاز بمدينة كانت هي القابلة لولادة ورعاية شعر عربي حديث، وشعراء عرب طليعيين في القصيدة العربية.

إن ما يحكى عن فرادة القصيدة اللبنانية التي تلد من ذاتها تلقائياً وتشع من داخلها على نفسها وعلى الآخرين في الجوار العربي، يستدعي سؤالاً حول حضور القصيدة العربية في القصيدة اللبنانية، وعن شعراء عرب دخلوا إلى الساحة الشعرية البيروتية وغادروها تاركين فيها آثاراً وبصمات تبدو متنوعة ونتيجة لتنوع الصوت العربي. فمن أسئلة أدونيس الشعرية إلى فجائعية السياب، ومن ثورية وشفافية نزار قباني إلى غنائية محمود درويش. ومن شراسة الماغوط إلى شتائم مظفر النوّاب، وغير ذلك من أسماء وتجارب عربية يسطع التفاعل والانفعال مع وفي القصيدة اللبنانية، وهذا ما يؤكد حضور قصيدة الستينيات والسبعينيات في المشهد الشعري الراهن لبنانياً، وإن اختلفت أدواته أو حصلت إضافات إلى قاموسه. شعر مملوء بالخيبات، وتأنيب ضمير بالجملة. وندم على خراب وأطلال، يرافقه نقد صحافي ـ شعري لا يتعدى لعن وشتم «الأصنام» و«الطواطم» الشعرية وهتك أعراض وأغراض قصيدة من

سبقوا، والادعاء بالفرادة المطلقة والتميز لشعر لبناني صرف، ينفيه نص شعري لبناني يقتات من فتات قصيدة عربية، وإن بدت القصيدة اللبنانية أكثر أناقة واختزالاً، ولكن هذا لا يلغي مشهد الكوكتيل الشعري السائد.

هذا الكوكتيل الشعري ليس بالضرورة أن تكون معه أو ضده، من قصيدة المنبر المحلي إلى قصيدة المهرجان الشعري العربي، ومن قصيدة الوردة والفتاة إلى قصيدة هجائي أو مداحي الزعيم والقبيلة، ومن قصيدة الأرزة والأناجيل إلى قصيدة شتلة التبغ والكربلائية والتصوف، ومن قصيدة الصمت والبياض إلى قصيدة الحرب اللبنانية وأخواتها في المعارك العربية المجيدة.

في هذه المروحة تبدو كل قصيدة أسيرة دورتها وتجربتها، ويرتبط كل نوع وغرض فيها بقصيدة سائدة أو سابقة، وهو ما يختصر تجارب شعرية عربية في حيزٍ واحد. ولا شك أن القصيدة اللبنانية لها حضورها في العالم العربي لاستنادها إلى عاصمة متسامحة إضافة إلى قوة الحركة الإعلامية المترافقة مع حركة النشر، كذلك المثابرة والمواظبة على حضور المهرجانات الشعرية العربية، وتمكن الشعراء الشباب من نشر قصائدهم وطبع مجموعاتهم الشعرية بسهولة قياساً إلى العالم العربي.

يبدو أن أصحاب الشعر اللبناني مجتهدون، لا يرسبون في امتحان، ويتوزعون حضوراً وإعلانات وتيارات. يجيدون إعادة تسويق القصيدة العربية أو الغربية في خياطة جديدة، ويشترك معظم الشعراء اللبنانيين مع الشعراء العرب في هاجس النجومية والاستعراضات النقدية لزعامة شعرية مطلقة، وفي البحث عن مرافقين وأتباع، لانقلابات وهمية من أجيال ـ تفقس كل سنة ـ

ضد أجيال أخرى، وينزلق الشعراء إلى جزرٍ منفصلة عن بعضها البعض يفتشون عن مواهب صاعدة لتأكيد الرسالة!

خشبة من غير خلاص

ثمة فجوات ضخمة في مسار الحركة المسرحية اللبنانية التي تبدو متقطعة في وتيرة نشاطها، حيث العمل المسرحي غارق في بطالة مقنعة، وخاضع لشروط قاسية أمنياً وإنتاجياً، ويرتبط المسرح بثقافة الهدنة والحذر، في اقتناص فرصته للتجريب. وكذلك خضوعه للإنتاج المسرحي الاستهلاكي التجاري، ولكن هذه المحاولات لا تتعدى حالة البقاء على قيد حياة مسرحية. ورغم تقلص الخشبات المسرحية وتحولها إلى كاراجات أو أمكنة لعروض سينمائية لأفلام البورنو، رغم ذلك أمكن لبعض التجارب المسرحية اللبنانية أن تكون في طليعة الأعمال المسرحية العربية من خلال حضورها وفوزها بجوائز مهرجانات مسرحية عربية [روجيه عساف والحكواتي، ريمون جبارة، رفيق علي أحمد].

فرضت الحرب الأهلية على بيروت واقعاً مرّاً، فهناك الأعمال المسرحية الهزيلة والرخيصة من جهة، ومن جهة أخرى جرى انتقال العمل المسرحي من خشبات بيروت إلى خارجها. فأصبحت المسرحيات الجوالة تقدم عروضها الأولى في المناطق والأطراف والقرى ثم تنتقل إلى بيروت، كأن العاصمة تحولت إلى بلدة، وهذه الحركة المعاكسة للمألوف أوجدت مناخاً مسرحياً متخلفاً لجهة التعبير الفني المسرحي، الذي خضع لذوقية جمهور المناطق، ودغدغة خصوصية كل منطقة إن في الانتماء السياسي أو الديني، لذلك أصبح النص خاضعاً للتحوير والتعديل في بنيته وإشاراته،

ليبقى الاتصال متناغماً بين مسرحية مباشرة وجمهور غرائزي متعطش لـ «النهفة» السياسية. ونشير هنا إلى أن في معظم أعمال المسرح اللبنانية ثمة سمة أساسية من سماته وهي السياسة وتناقضاتها، فهي هاجس الجميع من التجريب المسرحي الاختياري إلى المسرح التجاري الاستهلاكي، وينضوي الجميع تحت هذا الهاجس، كل حسب قدرته وميوله، فيقع النص المسرحي اللبناني في حالة التباسية غائمة ومعممة رغم وجود تجارب نصيّة مهمة [مسرحيات عصام محفوظ قبل الحرب وبول شاوول في الحرب].

ما يلفت الانتباه في الظواهر المسرحية اللبنانية أنها تعمل على استعادات مسرحية من مسرح السبعينيات نصاً وإخراجاً وتمثيلاً، لدرجة استعادت أعمال مسرحية بكاملها [آخ يا بلدنا ـ المارسيلياز العربي] فإذا أخذنا مثلاً مسرح «شوشو» وما يحفل به اسم هذا النجم الراحل من إشارات ودلالات، نجد أنه من مسرحه ولد أكثر من نجم يدعي أنه الخليفة والوارث للمسرح الشعبي والمسرح الجماهيري، ومسرح الناس. فجرى نهبه وتقليده ونسخه [أداء وصوتاً وحركة] حيث يتنافس الورثة على ممثل جماهيري في الذاكرة، وصولاً إلى شباك التذاكر. وهذا المسرح الحاضر بقوة يغرق في ظاهرة النجم الواحد الذي يعمل على المادة نفسها، من لطشات ولسعات سياسية وجنسية. ويتحول بقدرة قادر إلى منتج وخطيب سياسي مباشر تحريضي لأبناء جماعته أو منطقته.

حركة المسرح في التسعينيات، ما زالت مشدودة بقوة إلى ذهنية الستينيات والسبعينيات، رغم تطور بعض التجارب كتحول محترف بيروت للمسرح إلى مسرح الحكواتي مثلاً وأعمال المسرحيين الشباب الذين ينهلون من نص عالمي عبثي [يونسكو

وبيكيت] ويقاربون في حركتهم الإخراجية تجارب أبو دبس وملتقى وجبارة.

ما يشفع لهذه التجربة المسرحية المنهارة أنها تملك ذاكرة حيوية، وكذلك كونها نتيجة جهود فردية. فلا دعم من الدولة لمسرح قومي كما في باقي الدول العربية، والمنتج المسرحي تحول إلى متعهد حفلات، إضافة إلى انحسار الخشبات المسرحية، وغياب الممثل اللبناني وتحوله إلى نجم تلفزيوني، كما أن معهد الفنون في بيروت يخرّج عاطلين من العمل، ونقابة الفنانين مشلولة، والجمهور ضائع بين أعمال رخيصة عربية ولبنانية. وتبقى سمة المسرح اللبناني فردية ـ شخصية، حيث مجموعة من الفرادى يحاولون النجاة بخشبة صغيرة وسط طوفان الأعمال الاستهلاكية المتزاحمة.

سينما «أونطة»

لا يوجد صناعة سينمائية في لبنان ولا رعاية رسمية للفيلم اللبناني. فقط بعض الأفلام من تجار محليين أو من تمويل مشترك، وهذه سمة الإنتاج السينمائي الراهن، حيث يؤدي التمويل المشترك إلى غياب هوية سينما لبنانية. نجد على خارطة الأفلام المنتجة حالياً، إنتاجاً مشتركاً لبنانياً ـ مصرياً أو لبنانياً ـ فرنسياً. أو لبنانياً ـ بلجيكياً، أو لبنانياً ـ روسياً. وهذا الإنتاج المشترك يأتي نتيجة جهود فردية وعلاقات اجتماعية تأتي ضد النص والرؤية المحلية، وتضع السينما اللبنانية في حالة انفصام. رغم المحاولات المحلية التي يغلب عليها إنتاج هزيل لا تتعدى سينما الأكشن والإغراء الجنسي ولبنان الأخضر. ولكن على هامش هذه المحاولات ثمة تجارب إخراجية تجريبية لشباب تخرجوا من معاهد أوروبا وأميركا وروسيا، تقتصر

على تجربة يتيمة لأول فيلم، ثم يجري الوقوع في مطب النظرة الفولكلورية للحرب وموضوعاتها السطحية عبر نزعة استفادة من خراب المدينة، كخلفية جاهزة لدراما مملة في السيناريو.

ويأتي انهيار البنية التحتية للسينما نتيجة الحرب، ليفرض واقعاً مهنياً متردياً، والسبب هجرة المخرجين وتأسيس سينما المنافي [برهان علوية ـ مارون بغدادي] وإغلاق عشرات الصالات في العاصمة والمناطق، وفقدان الممول المؤسساتي مما يجعل السينما في مهب الريح، ومن يشأ يلتقط فرصة ما، لكن من الخارج طبعاً. وقد يبدو ساخراً أيضاً في واقع هذه السينما اللبنانية، عدم التخصص المهني، فمدير الإضاءة أصبح مصوراً، ومدير الإنتاج ـ نتيجة الخبرة ـ تحوّل إلى مدير تصوير، والمصور بدوره تحول إلى مخرج... وهكذا يتم تبادل الأدوار. وقد تبدو هذه الظاهرة العشوائية لصالح الفيلم اللبناني، الخاضع للارتجال الفردي، ولكنها تؤطر الفيلم في نظرة سطحية وتقليدية.

ما يشفع لواقع السينما في لبنان، هو تعدد الصالات السينمائية المتبقية التي ما زالت رغم الحرب تقدم عروضاً أولى لأفلام مميزة عالمياً، حيث توجد الصالات المتخصصة لأفلام الفن والتجربة وصالة للفيلم الهندي، وأخرى للفيلم المصري، كذلك الأفلام الوافدة من أندونيسيا وهونغ كونغ للكاراتيه. وتتعدد نشاطات النوادي السينمائية في العاصمة والمناطق. ولا يزال الموزع اللبناني متحكماً في سوق توزيع الفيلمين العربي والأجنبي، وهذا لا ينفي أن السينما اللبنانية المحلية لا زالت تحبو على مهل، ولا تتعدى التمنيات الإخراجية لشاشة سوداء وبلا أفلام.

(«الناقد» ـ العدد ٤٤ ـ شباط/ فبراير ١٩٩٢)

القسم الثاني

وداعاً أيها السلاح

- ١ -

من متاريس الحرب
إلى متاريس الشعر

الشعراء الشبان وذكريات الحرب

جيل الحرب، أطفال الزواريب، أولاد الأحزاب، رجال الميليشيات، تسميات مختلفة أطلقت على طوابير طويلة من المراهقين الذين كانوا القتلة والضحايا للاجتماع والاختلاف اللبنانيين. أولئك الذين تعرفوا على البلاد بقوة السلاح، وتجولوا بـ «الرانجات» و«اللاندات» كأنها باصات سياحية في رحلة جماعية إلى أماكن مجهولة، تحولت خلفهم إلى آثار وشواهد وأطلال. تنقلوا بثيابهم الكاكية، على طول الخارطة اللبنانية، ينبشون الجمهورية من أعماقها، ينتفون القرى، ويدرزون المدن بالرصاص والصواريخ والشتائم. طرشوا على الحيطان شعارات وأسماء وكثيراً من الدم، ثم انسحبوا إلى الظل بعيداً عن ضوء الحرائق، منهم من مات أو هاجر، أو جُنّ، أو أدمن، أو دخل إلى الاستيعاب، ومنهم من ركن إلى أشياء خاصة كالكتابة.

نحن الذين شاركوا في رشق الرصاص، وتسلقوا الجبال والحبال، وانتظموا في طوابير صباحية، وقاتلوا في أيام لبنانية، لكنهم

انسحبوا باكراً، ونجوا عبر الكتابة وأعادوا تأهيل أنفسهم في ثكن الشعر، فقفزوا من بقعة الدم إلى بركة الحبر، وكانت القصيدة خشبة خلاصهم من وحل الأيديولوجيات والمعارك.

في هذا التحقيق مع شعراء قاتلوا في الحرب انطلاقاً من انتماءاتهم المختلفة (سابقاً) وبطاقات انتسابهم إلى أحزاب، تخلوا عنها أو تخلت عنهم، نستعيد معهم ذاكرة تلك الأيام. وهذا التحقيق ليس استجواباً، إنما محاولة لفتح أرشيف عمر مضى بين المتاريس.

نتذكر الآن مع شارل شهوان (١٩٦٠ - جونيه) وبلال خبيز (١٩٦٣ - كفرشوبا) وفادي أبو خليل (١٩٥٨ - الأشرفية) ويوسف بزي (١٩٦٦ - بنت جبيل) ما جرى. من بوسطة عين الرمانة إلى حرب السنتين، حتى حصار بيروت والاجتياح الإسرائيلي و٦ شباط/ فبراير، وحروب أخرى من «حرب العلمين» إلى الكورة وطرابلس وصولاً إلى مجازر الصفرا وأشياء أخرى.

معهم نتجوّل في البلاد من الأشرفية إلى الأسواق التجارية وبركة العنتبلي، من بناية البيبسي وخط مار مخايل وصفير، ومن الكحالة وجرود كسروان إلى صيدا وصور والنبطية، ومن بعلبك والبقاع وحاصبيا إلى الكورة وطرابلس، وأسماء أماكن ومعارك وألقاب.

بطاقات انتساب

يحيى: كنا على الرصيف، حين كانت التظاهرات العملاقة تجر نفسها في الشوارع، كان الزعيق يصل إلينا متأخراً، دخلنا إلى الأحزاب دون خلايا سرية أو مناشير. الأقارب هم الذين قادونا إلى بطاقة الانتساب. كنا نعجب بالرياضيين أكثر مما نأبه بالمثقفين الثوريين، لاعبي كرة قدم أو كمال الأجسام والكاراتيه. أذكر أنني

انتسبت إلى الحزب الشيوعي في قريتي لأن خالي كان شيوعياً ملتزماً، كذلك لأن أصدقائي في الطفولة المتأخرة كانوا يرفعون الأثقال في إحدى الزرائب، ونتمرن على كيس رمل يتدلى من السقف، ثم انضموا جميعهم إلى جبهات وأحزاب فاخترت أن أكون في الحزب الشيوعي لصناعة اسم وجسد وعائلة أخرى.

شارل: لم أنتسب إلى أي حزب، لأن علاقات أبي كانت جيدة مع معظم الطوائف والجنسيات، فلم أكن أغلي طائفياً أو حقداً، لكن في فترة الـ ٧٥ ـ ٧٦ كان لديَّ قريب تولى مسؤولية بيت الكتائب في جونيه وقال لي إن ثمة دورة عسكرية، وكان عمري ١٥ سنة، حيث تمرنا على بواريد الخشب وقفزنا في جرود كسروان. كان لدي (فضول) وحماسة خوفاً على الوطن والعلم من الفلسطينيين، وكان هناك مدرب في الجيش يلعب كاراتيه وكنت أنا لاعب فوتبول ماهراً، وهذا المدرب أذكر يومها أن سحاب بنطلونه قد فرط أثناء إحدى القفزات.

بلال: انتسبت إلى منظمة العمل الشيوعي العام ١٩٧٨ في جب جنين في البقاع الغربي، وكنا يومها مهجّرين من الخيام، وقبل ذلك من قريتنا كفرشوبا ـ انتسبت فقط لأنني كنت أحب ذلك، وكنت مخيراً بين الدخول إلى حركة «فتح» أو المنظمة. ولأن أقاربي كانوا في المنظمة انتسبت إليها، لكنني قبل ذلك كنت أعرف كيف أفك الكلاشنكوف لأن أحد المقاتلين في «فتح» درّبني على ذلك وأنا في السابعة من عمري في إحدى القواعد العسكرية في كفرشوبا.

فادي: انتسبت إلى حزب الكتائب العام ١٩٧٣ وكان لدي بطاقة حزبية يومها لأن أصحابي كانوا في الحزب، وموقع بيت الكتائب قريب من منزلي، وبسبب وجود نادٍ رياضي، حيث نلتقي مجموعة

من الشباب ونتمرن على لعب الجودو والبليار. وأتانا شاب وقال لنا نريدكم في فرقة «الأشبال»، فوافقنا.

يوسف: لأن أبي كان أول شهيد في الحرب، في الحزب السوري القومي الاجتماعي والعائلة كانت قومية، فأصبحت شبلاً في الحزب أتعلم العقيدة مع دورات شبه عسكرية، وكان عمري ١١ سنة حين تدربت تدريب الصاعقة (كاراتيه مع سلاح أبيض) وفك السلاح والزحف على الحبال والقفز فوق النار.

تمارين أولى

يحيى: الذين انسحبوا أو تخلوا عن لافتات التظاهرة، وتخرجوا من جامعات وكليات لم ينتبهوا إلى دخولنا بعدهم في أقصى الشعار، حيث تدربنا، وتسلقنا وقفزنا فوق الدواليب، وأدينا التحية، وتراصفنا في صفوف منتظمة.

دورتي العسكرية الأولى كانت في كفرحونة، نفك الرشاشات، ونصرخ «نحن وحوش، ولسنا جوعانين». رمينا قذائف المدفعية ب ١٠، وطسّينا مناجل ومطارق على الأشجار، وتعلمنا نشيد الأممية، وكان اسمي الجديد «لوركا». لم أكن شاطراً في حساب الزوايا ولا في الرماية والركض الطويل.

شارل: قمت بدورة تدريب عسكرية العام ١٩٧٧ وكانت مع حزب الوطنيين الأحرار في منطقة الذوق على البحر، تدربنا على القفز والزحف، كنت الأول في القفز، وكنا نذهب إلى صيد السمك والطيور بأسلحتنا الرشاشة في منطقة «شط الوطى» في الكسليك. تدربت عسكرياً، ولكنني لم أذهب إلى أية جبهة ولم أحارب على خطوط التماس، ولا أخفيك أني كنت أحب

البنطلون الكاكي بسبب جيوبه، وكان أصحابي يطلقون عليّ لقب «أبو الشرور».

بلال: بعد الاجتياح الإسرائيلي العام ١٩٧٨، رحت إلى منطقة الكفير، ولبست بدلة عسكرية لننصب مكامن. لم يكن هناك أي اشتباك، سوى أن أمي أتت وأنبّت المسؤول وأخذتني إلى البيت وراءها، لكن بعد ذلك قمت بدورة عسكرية في عين عطا، وتدربت على مدفعية ١٠٦ وب ١٠ وصواريخ الـ ١٠٧، كنت شاطراً في الأسلحة الخفيفة وكان اسمي الحركي يومها «طوني»، لكن رفاقي كانوا يسخرون من هذا الاسم لأنه غير لذيذ و«مدلوع» و«ممحون».

فادي: في الثالثة عشرة من عمري، تدربت على أسلحة متواضعة كالسكين والرشاش الأسوجي (بورسعيد). كنا كفرقة أشبال في الكتائب محط أنظار القوى النظامية. وأذكر وقتها، العام (٧٣ - ٧٤)، كنا ننزل إلى ساحة البرج نأخذ معنا أمواساً وسكاكين السبع طقات، نتحرش بالعالم ونقصد المسلمين تحديداً، ونفتعل المشاكل بلكم وضرب وشطب الأمواس. وكان قادتنا في الحزب يؤنبوننا على أفعالنا وأهل الحي يعتبروننا زعراناً. بعد ذلك اشتركت في أحد مخيمات التدريب لمدة ثلاثة أيام، تدربنا على أسلحة أكثر تطوراً من «السلافيا» و«السمينوف» ورمينا قنابل يدوية، وكل ذلك دفاعا عن لبنان والعلم، وكانت خلفية الأحداث الحرب الدائرة بين الجيش والفلسطينيين، وأذكر أنا كنا نقوم بالسقطة الهوائية حيث يتمدد أربعة أشخاص ونقفز فوقهم ويقول الواحد منا: قفزت فوق أربعة فلسطينيين، ثم يصرخ آخر: أريد خمسة فلسطينيين! وهكذا دواليك.

من الصرخات التي أذكرها أن يقول القائد «أنتو لمين؟» فنجيبه «للبنان»، «أنتو لشو؟ للموت»، «أنتو شو؟ «كتائب... كتائب». في الدورة كنا نطبخ طبخات مقرفة، نعصر عليها معجون الأسنان ونبصق في الطبخة ثم نلتهمها مع الرمل، وكل قنبلة كنا نرميها ندفع ثمنها من جيوبنا.

يوسف: دورتي العسكرية الأولى كانت في منطقة «بوارج» حيث تدربنا على كل أنواع الأسلحة من الكلاشنكوف حتى الـ ب ٧ والقنابل اليدوية ورشاش الـ ب.ك.س. كنت أعتبر نفسي مقاتلاً خفيفاً يلزمني ٣ ـ ٤ قنابل مع وحدة نارية كاملة (١٢٠ طلقة) وكان تقييمي في الدورة جيداً جداً كمقاتل خفيف، سريع الحركة لا يتعب، وقمت بعدها بدورة اختصاص على مدافع الهاون في ترشيش في منطقة الزعرور ـ صنين. وكان لقبي الجديد هو «الشيطان».

الحرب

يحيى: الجرأة تكمن في قول المخالف، أن تطلق النار أولاً ثم تشعر بعدها بالخجل، كبرنا على شعار واحد «هناك أعداء». الآن يخاف فادي أن يحكي خبرياته، وترتجف أصابع يوسف، ويتنفس شارل ببطء، أما بلال فيتأمل في حذر من حوله...

ألا يحق لنا أن نروي ما جرى؟ أن تصبح شاعراً من وحل، في لحظة حرب، لا تعرف الآن أننا نجونا من دائرتها. كنا صادقين يومها، علمونا كيف نحب وكيف نكره، هذا عدو، وذاك صديق. لسنا بحاجة إلى استيعاب وطني أو ثقافي. نحن واثقون من حبنا للبلاد التي تمزقت تحت جزماتنا، ويحق لنا أن نعيد رتق هذه

المسافات وتضميدها، ونتحول نحن المقاتلين سابقاً ـ بعضنا في مواجهة البعض ـ إلى أصدقاء في الشعر والحياة.

سنة ١٩٧٥ كانت لحظة ولادتنا الثانية أو موتنا الآخر، وحين أجريت هذا الريبورتاج التقيت بزملائي كل واحد على حدة، ثم أعدت جمعهم في حوار واحد، كأنه سيناريو ـ لمسرحية ناقصة، أو أقول إن ما جرى هو فيلم سينمائي كنا فيه الأبطال والأعداء ثم نشرب القهوة إلى طاولة واحدة ـ ونروي.

فادي: في ١٣ نيسان/أبريل ١٩٧٥ كنا مجموعة من الشباب، حين سمعنا خبر مقتل جوزف أبو عاصي ثم حادثة بوسطة عين الرمانة، انتشرنا مجموعة واحدة في أنحاء المنطقة، حاملين العصي والسكاكين نبحث عن مسلمين ووقع البعض منهم في أيدينا، وأذكر أننا دخلنا إلى ورشة بناء وكمشنا أحد العمال فبدأ الشباب بضربه وارتطم رأسه بنمرة سيارة وأغمي عليه ولم يقم، فركضنا نصرخ هاتفين شاتمين.

يوسف: في أول معركة خضتها كنت في الرابعة عشرة وكان ذلك خلال المعركة الشهيرة بين القوميين و«المرابطون» العام ١٩٨١ إثر اغتيال كمال خير بك حيث شاركت بالهجوم على مكاتب «المرابطون» في رأس بيروت.

بلال: العام ١٩٧٩ أصبحت مسؤول المنظمة في الأمن الشعبي في حاصبيا وكانت المهمة الأولى الدفاع عن حاصبيا ضد إسرائيل وحفظ الأمن، ثم تحولت مهمتنا إلى الفصل بين اشتباكات البعثيين العراقيين والاشتراكيين أو بين القوميين والاشتراكيين وقس على ذلك من مهمات وحواجز.

شارل: العام ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ أخذوا أصحابي إلى المتاريس

وخطوط التماس وكانت الحرب بعيدة عن جونيه، وكان الضغط النفسي والحربي في عين الرمانة والأشرفية، ونادراً ما ذهب سكان جونيه الأصليون إلى جبهات القتال. ولكن أذكر أن أحد الأصدقاء ذهب إلى خطوط التماس في الأسواق التجارية ليحارب، وعندما وصل أصيب بانهيار عصبي ونوبة بكاء فأرجعوه.

معارك أولى

يحيى: كان الحزب الشيوعي يستدعينا من القرى المجاورة لحماية المركز في صور وننزل بثيابنا المدنية في نوبات حراسة متتالية ضد أعداء يتكاثرون في الحي. كان الأهالي ينظرون بحذر وريبة إلى لحانا الخفيفة، لكنهم يجيبون عن أسئلتنا عند دخولهم وخروجهم قرب المركز. أمي طبعاً سألت عني لكن لم أعد إلى البيت. فبدأت ألفّ البلاد مقاتلاً من صور إلى النبطية إلى قلعة الشقيف فأحراش عازور وقلعة سجد، قذائف ورصاص وقنابل مضيئة. وأذكر حرب الجسور صيف ١٩٨١ عندما أغار الطيران، لمدة أسبوع، على القواعد والمراكز. أذكر يومها أننا قطعنا باللاند روفر وهو يجعر في نهر الليطاني والطائرات فوقنا، وكان خلفنا النهر يفيض بالسيارات والأحذية... كنا نحرس في الجبال المواجهة للشريط الحدودي ونحن على حذر من أشباح الليل فنطلق النار فزعاً. وكم اصطدنا خنازير برية.

بلال: في أواخر الـ ١٩٧٩ أصبحت مسؤولاً عن قاعدة في سهل البقاع وكان تحت إمرتي أربعون عنصراً، أدربهم على الهجوم والتسلل، ثم فصلوني إلى منطقة سحمر المواجهة، وتسلمت قاعدة «برغز» ثم قاعدة «العيشية» الفارغة من المسيحيين المهجرين،

وبيوتهم المحترقة. وأذكر هجوماً إسرائيلياً على العيشية وأرنون، ليلتها دمروا قاعدة لـ «فتح»، أما أنا فبدلت مواقعي.

في تلك المرحلة قمت بعملية عسكرية ضد قوات سعد حداد في منطقة بين دبين ومرجعيون. وفجرنا مركزاً للذخيرة، ومرة أخرى في منطقة الخيام كان برفقتي شخص اسمه «كبوجي» حيث وقعنا في فخاخ من المشاعل اصطدمنا بها، فأنارت المنطقة فانكشفنا، فعدنا هاربين والرصاص يلاحقنا وقطعنا عدداً من الكيلومترات ركضاً في ثلث ساعة.

فادي: شاركت جزئياً في حرب السنتين، ونزلت مرة إلى أحد الأماكن الخطرة في منطقة الأسواق التجارية، قرب بركة العنتبلي حيث كان هناك مصلبيات عدة، ولا تعرف حدود خطوط التماس، وكانت المواقع تتبدل وتتغير بسرعة، وكل ساعة يسيطر عليها أحد الأفرقاء. وما أذكره أننا كنا واقفين قرب البركة وقُنِصَ أحد أصدقائي قربي فهرّ نخاعه قدامي، وبال صديقي الآخر تحته، أما أنا فأصبح لوني أزرق. لقد مات قربنا فانسحبنا بسرعة ونحن نصرخ بين المحلات والدكاكين المحترقة والمهجورة.

شارل: في الأشرفية كان هناك محل لأحد أقاربي، وكنت أتفرج على المقاتلين الذين كانوا عدائين، وأصغي إلى خبرياتهم وأحبهم وأحياناً أزور برفقتهم منطقة خطوط التماس لأتفرج. كنت أشعر حين أسمع بأنني أحيا الأشياء أكثر في مخيلتي دون أن أشارك فيها.

يوسف: في الاجتياح الإسرائيلي العام ١٩٨٢ كنت في منطقة حبّوش في النبطية، وانسحبنا إلى بيروت، ثم قاتلت خلال الحصار

في منطقة المتحف ثلاثة أيام لصدّ الهجوم الكبير، والمفارقة أن موقعنا كان مشتركاً مع «المرابطون» الذين قاتلناهم قبل فترة. وفي المرحلة نفسها كنت رامياً على مدافع الهاون في منطقة الكارلتون. وعندما دخل الإسرائيليون إلى بيروت هربت إلى البقاع لمدة شهرين لأن الجيش اللبناني وقتها صادر كمية من الأسلحة في منزلي، ثم عدت إلى بيروت مشتغلاً في العمل السري من تدوين أسماء وتقارير عن الذين يتعاملون مع المكتب الثاني، وخطفهم إلى منطقة الشويفات ثم إلى المتن الشمالي، وذلك رداً على خطف الكتائب للعديد من القوميين، وقمت أيضاً بجلب أسلحة وأموال من الجبل إلى بيروت.

اجتياحات وانتفاضات بالجملة

يحيى: حين بدأ الرصاص ينحرف، ويميل صوب الأهل والقرى، كنت لا أصدّق أنني بدأت أغطس في الوحل، ومع ذلك كنت أستنفر نفسي لأني أصبحت عدواً أيضاً للآخر، وحين سقط «طه اليمن» برصاصة قنص في «بئر العبد» بعد اشتباك الشيوعيين مع حركة «أمل» العام ١٩٨١، بدأت أعرف أنني تورطت مع الغير، في تبادل الأقنعة، وحين احترقت بلدة دير قانون النهر بعدما اجتاحتها قوات الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية بدأت أفكر في نجاتي من هذه الدوامة. فأحسست من خلال موقعي كمساعد لقائد فصيل، برغبة في التمرد والانسحاب، فتحولت إلى موزع لجريدة «النداء» و«الوطن» وممرض في مستشفى الحركة الوطنية في صور وقائد كشفي وطالبي جُلّ ما أفعله هو زيارة أهل الشهداء، وكان المسدس يلازمني خوفاً من تعرّضي لاغتيال. أصبت بنوع من البارانويا ـ وطبعاً في مثل هذه الحال يعتبرك الحزب مثقفاً صغيراً

وبورجوازياً حقيراً. لكن الوقت كان قد فات حين بدأ الاجتياح الإسرائيلي وتحولنا جميعنا إلى فزاعات من ورق.

بلال: مع بدء الاجتياح الإسرائيلي كنت مسؤولاً عن راجمة، فذهبنا إلى زفتا وأطلقنا راجمة في اتجاه العيشية، وفي تلك الأثناء قصف الطيران جسر الزهراني القريب منا، وفي الليل سحبت الذخيرة من صيدا، ونقلت الراجمة إلى جنسنايا وكانت صيدا مطوّقة، ومن جنسنايا قصفت جسر الأولي، وانتقلت بالراجمة إلى الزعرورية في إقليم الخروب، ثم إلى جون حيث أطلقت راجمة من دير المخلص، وأنا واثق أن قصفي بالراجمة آخر الهجوم الإسرائيلي على الأولي، كنت أرى إصاباتي، وآخر مرة أطلقت فيها راجمة كانت في منطقة الشوف، تحت بعقلين، ولكن من هناك بت لا أعرف إلى أين أوجه صواريخي، فقصفت منطقة صيدا. وبعدها اتسخت الراجمة وتعطلت وبقي فيها صاروخان لم ينطلقا، فأخذت مفاتيح السيارة التي تحمل الراجمة وانسحبت إلى البقاع حيث قاعدة للمنظمة بين بساتين بعلبك.

شارل: أذكر مرة أني وجدت قنبلة على الطريق فخبأتها لمدة سنة، كنت خائفاً منها، ثم بعتها بمئة ليرة.

يوسف: شاركت في الانتفاضة الأولى (آب/ أغسطس ١٩٨٣) وكانت مهمتي في منطقة الحمراء تطويق مركز للفرنسيين والاستيلاء على أسلحة من سيار الدرك إلى فردان، وعندما فشلت الانتفاضة الأولى، لم أنم يوماً واحداً في بيتي، متنقلاً في عملي من مطعم إلى مطعم. وكنت أهرّب الأسلحة من الضاحية إلى بيروت. وفي إحدى المرات قال لي المسؤول «إن هذا هو الأسبوع الأخير من نقل الأسلحة ويوم ٦ شباط/ فبراير تحضرون أنفسكم». ونقل لنا

المعلومة الآتية: أنه في الثانية عشرة ظهراً سوف ينطلق رشقان من الرصاص في منطقة الظريف وتكون الإشارة. وهذا ما حصل تماماً، كنت أتناول طعامي (المجدرة والملفوف) في البيت. وفجأة طلع الرشق فركضت إلى مركز الحزب القومي في البريستول، وجدت سلاحي في مكان معين نظيفاً وجاهزاً. ونظمنا أنفسنا في مجموعة، وسيطرنا على المنطقة الممتدة من السفارة الألمانية حتى منطقة الظريف، وشاركت في الهجوم على الإذاعة اللبنانية وفي اعتقال مجموعة من المكتب الثاني.

فادي: آخر مرة أطلقت فيها النار كانت في منطقة الكحالة، حيث كنا نطلق النار على عاريّا لنتسلى، لكنهم لم يردوا بالمثل.

بلال: حين حصل الاجتياح الإسرائيلي، دخلت إلى كامد اللوز حيث كان أهلي يقطنون، وفي الطريق وجدت أنا وإبراهيم القادري ألغاماً على الطريق فحملناها، طمرناها في الليل تحت عريشة عنب. وتجرأنا في أول عملية فزرعنا لغماً على طرف بلدة كامد اللوز وطلع اللغم بشاحنة إسرائيلية وسقط جريحان. وشعرنا بالنشوة. ولكن بعدها حين رمى أحدهم قنبلة يدوية على الإسرائيليين بدأوا بحملات الاعتقال، فهربت إلى الخيام حيث كان أبي يعمل في العمار واشتغلت معه، ثم علمت أنهم سيعتقلونني، فرحت إلى صيدا ومنها إلى بيروت حيث تمرنت على العمليات وعدت إلى صيدا بأوراق ثبوتية مزورة وباسم جديد هو «بلال»، أما اسمي الحقيقي فهو يحيى خبيز. في صيدا كانت أولى عملياتي في منطقة سهل الصباغ حيث رميت قنبلة على دورية راجلة وكان برفقتي أحدهم أدربه على رمي القنابل وهربنا في السيارة.

شارل: أول شعور عدائي حيال الحرب بدأ يوم مجازر المسلخ

وضبيه (١٩٧٥) حين مرّ أحدهم بقربي يحمل رؤوساً بشرية على عربة ويجرها مزهواً ويرمي بالرؤوس على الطريق.

المكامن الجوالة

يحيى: هل كانت دوراتنا العسكرية وحروبنا هي تمارينا الأولى على الكلام؟ وهل كنا نعلم أن المكامن وساعات الحراسة ورائحة البارود والمماشط ستدخل إلى النص كقاموس جديد؟ إنها الكتابة التي تقترب من شفافية اللغم، وتغرز الكتابة في الأعصاب، كأنها حياة جديدة. ولكن ماذا نقول نحن الذين كانوا مقاتلين يوماً، وشعروا أيضاً بالخوف من الآخر عندما تحولوا إلى مدنيين؟ نكتب القصيدة ونرتجف من مسلح آخر جاء بعدنا؟ نحن ندخل في كتابة جديدة، فلندخل إلى الجحيم من بوابة السيرة.

فادي: كان يأتي «الكميون» (الشاحنة العسكرية) في حرب السنتين ويصرخ أحدهم: من يريد أن يتطوع للقتال في الأسواق؟ وكنا ننزل مزوّدين أسلحة خفيفة مع قنبلتين ويرافقنا آخرون بهدف السرقة. كنا نؤمن أن المسلمين سيذبحون المسيحيين.

يوسف: بعد انتفاضة ٦ شباط/فبراير، انطلقت إلى خطوط التماس في رأس النبع وبعدها إلى منطقة حي ماضي - في الضاحية، وشاركت في الهجوم على منطقة صفير - المعلم عند خط مار مخايل، وأصبت يومها في يدي اليمنى بطلقة قنص أثناء محاولتي السرقة من بناية. ما أذكره في معركة صفير، كان هناك ثلاثة جنود قتلى، وكان أحد رفاقي يخلع ضرساً ذهبياً من فم أحد القتلى، وبعدها شاركت في معركة الكورة ضد المردة في منطقة القويطع - كفتون. وللمرة الأولى كان القتل وجهاً لوجه. وبعد ذلك نزلت إلى محور الأسواق - بناية البيبسي في مواجهة بنك الريف، حيث

الكتائب على خط المرفأ. وكنا نتبادل الرصاص والقذائف من مسافة لا تزيد على الثلاثة أمتار، وفي هذا الموقع رأيت أكبر برغشة كانت في حجم الصرصور.

شارل: كان يمكن أن أكون مقاتلاً عدوانياً وشرساً، لكن لا أطيق تلقي الأوامر من أحد، لم أنخرط مطلقاً ولا أعرف لماذا، كنت أنظر إليهم وكأن العنف ينقصهم، حين أدخل إلى مراكزهم كنت أريد أن أرى هذه الآلة كيف تعمل، كنت أراها مغارة مجرمين. ولكن معظمهم كانوا من أصدقائي، تعرفت عليهم وأحببتهم، وكنا نذهب إلى صيد العصافير، بعضهم مات في ثلوج عيون السيمان، وصديقي خاتشيك قتل في مجزرة الصفرا، وهو أقربهم إليّ.

كان صديق عمري، يومها شاركت في جنازته، وأذكر أنهم منعوا البكاء عليه أو على القتلى. كانت جنازة خاتشيك محدودة، خاتشيك أخبرني عن بطولاته لكنه انتهى جثة على كومة زبالة. أصبح بعدها المقاتلون مقيتين بالنسبة إليّ. في مرحلة ٨٥ ـ ٨٦ تعرضت لمضايقات وتلفيق تهم، وخصوصاً بعد صدور كتابي «جاز العزلة» حيث اعتبروا قصتي عن «اليسوع» هرطقة. وبدأت أخاف.

بلال: في صيدا بدأت أنظّم العمليات ضد الجيش الإسرائيلي، ثم توليت مسؤولية خط الساحل من صيدا إلى أبو الأسود. كنت أقوم بعمليات جوّالة من إطلاق قذيفة ب ٧ في المدينة الصناعية على تجمع عسكري، إلى مكمن لدورية في بساتين عدلون، إلى عبوات مزروعة في الزهراني، بالإضافة إلى أهم عملية، كانت في بساتين «سينيق» عند المثلث في صيدا حيث انطلقت على رأس مجموعة لتكمن عند الرابعة فجراً.. ففوجئنا بالإسرائيليين وقد نصبوا مكمناً

في الليل وكانوا يهمون بتوضيب أمتعتهم للمغادرة وكانوا يتكومون فوق بعضهم البعض فبدأنا بإطلاق النار من كل الأسلحة والقذائف والقنابل، وكنت أراهم يسقطون ويصرخون وتشردوا في البساتين، وعند الظهر جرت عملية أخرى، ويومها اعترفت إسرائيل بسقوط ١٢ قتيلاً.

كان تخطيط العمليات سهلاً بالنسبة إليّ، من اختيار مثلث طرقات واستعمال سيارتين، الأولى للاستطلاع والثانية للأسلحة، بالإضافة إلى سيارات كنا نتركها عند المنعطفات وهي محملة بالأسلحة ثم نستعملها في الوقت المناسب.

يوسف: شاركت في معركة طرابلس العام ١٩٨٥ ضد حركة التوحيد والفلسطينيين، قاتلت على محور البحصاص، والأوتوستراد، وباب الرمل. هذه المعركة هي التي دفعتني للتفكير بترك السلاح، حيث رمينا خمسة عشر عنصراً في البساتين الكبيرة التي تحيط بطرابلس بعد منتصف إحدى الليالي دون دليل. قالوا لنا إن البساتين ممشطة، وعلينا الوصول إلى غرفة التجارة والصناعة، وعندما وصلنا إلى غرفة التجارة والصناعة، صادفنا أحد مكامن التوحيد، وبدأ الرصاص ينهمر علينا من كل الجهات ومن كل الأعيرة فقتل ثلاثة على الفور [أحمد ـ وأبو علي ـ وحسن]، كانوا جالسين بالقرب مني تماماً وانسحب قائد المجموعة عند أول طلقة وتركنا دون جهاز اتصال وكان العشرة الباقون مصابين بجروح مختلفة. وصادف أنني كنت ممدداً لحظة المكمن فوق كثيب رملي، وقاومت بمفردي مدة عشرين دقيقة، وكان الجرحى يلقون إلي بجعبهم، فأسمع صراخهم، ثم انسحبنا إلى الخلف ومكثنا في البساتين حتى الفجر. وعندما وصلت إلى المركز رأيت

المسؤول جالساً في المكتب فأردت قتله لكنهم وضعوا مسدساً في رأسي ثم أخذوني إلى بيت أحدهم وأطعموني عصافير مشوية مع كأس عرق ونمت خمس عشرة ساعة ثم أيقظوني لأشارك في معركة الجميزات.

فادي: حاولت أن أنتمي إلى حزب آخر عبر أصحابي، لأن مناخ الكتائب عموماً مناخ ذكوري، وما جذبني في الحزب الآخر هو العنصر النسائي وقدمت يومها ورقة انتساب إلى أحد أفراده ولم أعرف إذا قبلوني.

معتقلات متفرقة

يحيى: كأن نؤرخ أعمارنا بالمعارك التي جرت، وحتى إن الفجيعة لم تحولنا إلى ندابين، طمرنا الأسلحة وتخلينا عن ألقابنا إلى أسماء جديدة مثل صحافي وشاعر ورسام وممثل. إنه الانقلاب والانسحاب للحفاظ على جسد ونص، ربما معظمنا تزوج باكراً تحت وطأة المعارك والذعر، وأنجب أولاداً ومجموعات شعرية. كل ذلك يزامنه حاضر مرعب ورعب من ذاكرة قديمة. وبدأ العد العكسي لعودتنا كمواطنين... ما أصعب العيش حين تتحول إلى مواطن في بلاد بلا دولة! وثمة جماعات ترفضك.

أنا شخصياً لم أعرف نفسي يوماً هل أنا شيوعي أو مسلم، لبناني أو شيعي، عربي أو أممي... هل أنتمي إلى حلقة شعراء موتى؟.. كل شيء مضى، حتى الذين التقطنا صوراً تذكارية في رفقتهم في القلاع والخنادق، لا أعرف الآن أسماءهم... فقط أذكر نظرة أم طه اليمن في صيدا ونحن نعزيها بابنها، حين صرخت بنا. وكذلك أم «بسام» في قرية «لوبيا»، حين بصقت في وجوهنا! وعادت تندبه...

لا نكره ذاكرتنا ولكننا ندوّن يومياتنا المفلوشة كالدخان، وثمة آخرون يرسمون هويتي حسب مزاجهم ومنطقهم وطائفتهم... ولكني من جيل لا يعرف تماماً من هو.

شارل: لأني أصبحت حيادياً، أصبحت أشعر بشيء من العدوانية حيال الحزبيين، وصرت أشعر بالمراقبة في البيت أو الجامعة، و«من ليس معنا، فهو ضدنا»، أشعر بأنني مراقب وموضع شك، انعزلت أسبوعاً في البيت، وكنت أخبيء مسدساً عيار ٧ ملم وهو لأبي، ثم اكتشفت أنه لا يصلح لإطلاق النار.

أذكر في تلك الفترة (١٩٨٥ - ١٩٨٦) عُرض عليَّ أن أكون رجل مخابرات في منطقتي على جيراني وأصحابي، فرفضت. لقد تأرشفنا جميعنا.

بلال: في إحدى العمليات ألقي القبض على أحد أصدقائي، وفجأة أحسست أنني مراقب وأن سيارتي قد انكشفت، فهربت من صيدا إلى عدلون وكان الإسرائيليون يفتشون عن اسمين هما بلال خبيز ويحيى خبيز وهما اسمان لشخص واحد، هو أنا. وفي عدلون ألقي القبض عليَّ بمحض المصادفة بسبب اعتقالهم لشباب البلدة. واتهموني يومها بـ ١٠٠ عملية في مناطق مختلفة. وأذكر أنني اعتقلت في ١٧ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٥، واقتادوني إلى معتقل الريجي في النبطية، وبعدها نقلت إلى معتقل أنصار لمدة شهرين ثم إلى سجن عتليت في إسرائيل حيث أمضيت ثمانية أشهر حتى الانسحاب. وأذكر الزنزانة التي كانت عبارة عن علو ٦٠سم وعرض ٧٠سم، وكنت مكبل اليدين إلى الوراء وثمة ذبابة تحوّم حول أنفي ولا أستطيع طردها.

يوسف: في شتاء ١٩٨٦ كنت في المنزل، جاء الشباب وقالوا لي

إن مركز الحزب في البريستول قد احتل من قبل متمردين على الحزب، فحملت سلاحي بقصد الهجوم على منفذية بيروت، وأثناء حصار المنفذية تقدم واحد من المتمردين خطأ نحو خطوطنا فقتل على الفور. كان على بعد أربعة أمتار ثم سمعت صوتاً من مواقعهم يقول: قتل «جورج» وعرفت هذا الصوت، إنه صوت أخي حسين وهو يقاتل مع المتمردين، وعندما أدركت ذلك طلبت من الشباب عدم إطلاق النار، وسلمت سلاحي لرفيقي، ودخلت مدنياً إلى المنفذية من مكان آخر وناديت على أخي، وطلبت منه الذهاب إلى البيت، وبعدها مباشرة استقلت من الحزب كمقاتل وسافرت إلى أفريقيا.

أصدقاء وأحلام وأسلحة وشعر

يحيى: سيمر وقت طويل قبل أن نصرخ معاً «هذه البلاد لنا... أليس كذلك؟» فالمقاتلون الذين أصبحوا شعراء، لم يكتبوا المراثي، ولا تعنيهم شعارات شعرية من ديناميت اللغة وتثويرها، ولم يزرعوا مشاتل ورد ورياحين، إنها الكتابة بلا لافتات، ويحضر الأصدقاء والرفاق والأهل فيها، بهدوء تارة أو بقسوة تارة أخرى، إنهم يتلمسون الكلام من جهات مختلفة، يكتشفون أنفسهم بانفجارات جديدة تليق بهم فقط... لذلك يتذكرون، ويكتبون لأجل أنفسهم أولاً ثم لمن يعنيهم من بين الآخرين.

فادي: من بقي على قيد الحياة واحد كان في «فرقة الشبح» أصبح الآن مليونيراً كبيراً.

الآخرون مات بعضهم في الأسواق، «أكل» أحدهم قذيفة ب ٧ في صدره وكان بطلاً في كمال الأجسام، وآخر أيضاً كان بطلاً

في المصارعة الحرة. وكنا نحضر كل شهر جنازة أحدهم ونسأل من يكون التالي.

سلاحي المفضل هو الكلاشنكوف الأخمص حديد المزود بحربة. كتبت عن الحرب، فقط عن عزلتي... وخصوصاً في مجموعتي «غيوم طويلة إني أتذكر».

شارل: لا أحب الحرب، ولكن أحب الإرهاب، أحب أن أكون إرهابياً على رأس منظمة تخريبية، كان لدي استعداد، ولا يزال، لأن أكون لصاً محترفاً، وليس قاتلاً.

من الأصدقاء: طوني الذي خطف يوم ٦ شباط/فبراير ومكث ثلاث سنوات محبوساً.

خاتشيك الذي يحضر كثيراً في قصة «حرب شوارع»، أما «سيرج» في القصة فهو أنا.

سلاحي المفضل هو بندقية الـ «أم ١٦» لأن صوتها لذيذ.

يوسف: سلاحي المفضل هو بندقية الـ «أم ١٨» المقنبلة والتي لم أحملها يوماً، ولكنني أحب الكلاشنكوف الأخمص حديد المشطوف دائرة (١١). الأصدقاء تفرّقوا: الوطواط أصبح عاملاً في معمل خاله في فنزويلا، خالد سجن في إسبانيا بتهمة حشيشة، وأنطون لديه محل ألبسة في البقاع، وكفاح قتل في حرب الجبل مع محمود التقي.

في القصيدة يحضرون جميعهم، في «الدشم الباردة» وينهضون ببطء العجائز ومجمل قصائد «المرقط».

بلال: في قصائدي كتبت تفاصيل عن غيري، ولكن في قصيدة «الحجرات التوائم» كتبت عن تجربة عشتها وحدي كمقاوم

مختبىء في بيت واسع وفارغ من العفش في منطقة الغازية، وفي قصيدة «يتوزعون القسوة» وهي عبارة عن أصوات متعددة لأيام في المعتقل، أما قصيدة «الأيدي» فهي صوت صديقي إبراهيم القادري الذي استشهد في عملية العيشية. وصوت هشام العربي الذي استشهد أيضاً في عملية. أحب الكلاشنكوف الأخمص حديد المشطوف.

(«ملحق النهار» ـ ١٤/ ٣/ ١٩٩٢)

- ٢ -

تجارة السلاح في لبنان

من المعابر والمرافىء وبين الميليشيات

حين فكرت بإجراء هذا التحقيق عن تجارة السلاح حذّرني كثيرون من خطورته وصعوبة إنجازه بسبب سرية العالم المحيط بتجار هذه المهنة. إذ ليس من السهل الوصول إلى تاجر السلاح وإقناعه بإجراء حوار صحافي. فهو حريص على أن يكون بعيداً عن الإعلام لضرورات الأمن والحفاظ على أسرار المهنة. كانت المواعيد تلغى في كل مرة ولا تنفع كل وسائل الاقناع والوساطات في زحزحة التاجر عن رأيه الرافض للكلام. ولكن بعد توظيف مجموعة من الأصدقاء وأرقام الهاتف المتنقلة تمكنا أخيراً من الالتقاء بتاجرين: الأول تاجر سلاح بالجملة، والثاني بالمفرق. وقد أكدنا لهما أننا لن نذكر اسميهما.

أعترف أنني شعرت بالخوف من الحقائق التي وردت بعد انتهاء الحوارين، إذ تكشفت أدوار لسياسيين بارزين في هذه التجارة، لم يكن يخطر لي سابقاً احتمال مشاركتهم فيها. وفي لبنان لا يستطيع أحد أن يحمي أحداً. لذلك، اعتمدنا، حفظاً للسلامة،

على الاكتفاء بالأحرف الأولى من أسماء كبار تجار السلاح.

يروي أبو علي حكايته كتاجر سلاح بالجملة بكثير من الحذر، فيجيب عن الأسئلة بأسئلة توضيحية ويستخدم مفردات من خطاب سياسي سائد معتبراً ما يقوم به «ضرورة وطنية». بدايته مع هذه المهنة تعود إلى بدايات الحرب الأهلية. وذلك «ليؤمن لشباب المنطقة ما يحتاجونه من أسلحة وذخائر»، أما هدفه فلا يتعدى «الحرص على الطائفة والثورة» وتمتد تجربته مع السلاح إلى أيام حرب فلسطين العام ١٩٤٨، عندما قام «بواجبه القومي» كخبير متفجرات ناسفاً الكثير من المراكز الإنكليزية واليهودية في عكا وحيفا. وبعدها بسنوات كان أحد قادة المقاومة الشعبية في ثورة ١٩٥٨ ضد الرئيس كميل شمعون، إلى أن اندلعت الحرب الأهلية العام ١٩٧٥ حين اكتشف أن شباب المنطقة يشترون السلاح بأسعار مرتفعة، فقرر أن يلعب دور الوسيط انطلاقاً من خبرته في أسعار السلاح والاستفادة من معارفه القدامى.

يقول أبو علي إن أول صفقة سلاح اشتراها من المنطقة الشرقية. هي عبارة عن ثلاثة صناديق من مسدسات (٧ ملم). وباع البضاعة «بسعر الكلفة»، مع ربح زهيد لا يتجاوز الثلاث ليرات عن كل مسدس. ثم تطور الأمر حين بدأ الطلب على السلاح الثقيل من بنادق ومتفجرات حتى الصواريخ والمضادات الأرضية والراجمات وغيرها.

والمستوردون الرئيسيون للسلاح، بحسب أبو علي، يقيمون في المنطقة الشرقية من بيروت. وهم من أصحاب المراكز العليا في السلطة: منهم مثلاً نائب شمالي هو من أكبر المستوردين للسلاح عبر المرافىء غير الشرعية. وهناك بعض مسؤولي الأحزاب الذين يبيعوننا بعض الأسلحة الثقيلة بعد مصادرتها من حزب آخر.

أما عن الأسعار فهي تختلف عن أسعار السوق العالمية للسلاح. فالكلاشنكوف مثلاً سعره حسب السوق العالمي ٢٢٠ دولاراً، أما في لبنان فيتراوح سعره بين مئة ومئة وخمسين. وكذلك الأسلحة الأخرى. وأسباب ذلك كثيرة، منها كثرة التجار في السوق السوداء والمضاربة. إضافة إلى السلاح الذي يأتي مجاناً للأحزاب. وأبو علي، بالمناسبة، يطلع على الأسعار من المعارض الدولية للسلاح في ألمانيا وفرنسا، ويتابع أسعار بورصة السلاح من خلال نشرات دورية.

يعتبر البحر النافذة الأساسية لشراء وبيع السلاح. فكثير من الصفقات يجري تحقيقها في عرض البحر، حيث يتم إفراغ السلاح من البواخر في مراكب صيد صغيرة، وبيروت تلعب دوراً بارزاً في مجال الخدمات والترانزيت في تجارة السلاح. والمنطقة الشرقية هي المركز الأساسي للسوق السوداء، حيث تختلط الأوراق ببعضها اختلاط المبادىء السياسية والتجار الذين يؤمنون لأنفسهم تغطية سياسية من جميع الأطراف المتحاربة ليمنحهم ذلك حرية التحرك بين الحواجز.

هناك أنواع من الأسلحة يتم استيرادها رسمياً من قبل الدولة لمصلحة الجيش اللبناني، حيث يتم بيعها من جديد وتهريب بعضها إلى التجار بكميات ضئيلة، وخصوصاً الديناميت. وعن علاقة تجار السلاح ببعضهم البعض يروي أبو علي أنه لا مجال للغش والاحتيال. فهو مثلاً أبرم صفقة سلاح كبيرة من دون أن يدفع نقداً. فالأمانة والثقة وعمليات العرض والطلب والصفقات بالملايين، تحتم الدين إلى حين البيع والتوزيع.

لكن كيف يتم البيع والشراء... والتهريب، سألنا أبو علي؟

أنا أتعامل مع تجار كبار ومحترمين في السوق. وحين تأتي صفقة سلاح جديدة أذهب وأعاين البضاعة وأشتري من منطلق الثقة والجودة في قيمة البضاعة. وأحياناً أحمل معي قائمة مشتريات يطلبها البعض مني، فأختارها ويتم نقلها إلى المنطقة الغربية عبر المعابر بواسطة شاحنات نقل محملة بالفاكهة والخضر وأحياناً بسيارات خاصة رسمية. وأحد السياسيين التقليديين، وهو وزير سابق، دفع لتاجر مبلغاً من المال لاستثماره لمصلحته بعد أن أمّن له التغطية السياسية والأمنية... الكل دخل اللعبة يميناً ويساراً. والتجار الكبار يحققون أرباحاً خيالية من خلال صفقات مقايضة شحنات من المخدرات إلى أوروبا بشحنات من السلاح والسيارات تأتي إلى لبنان.

يؤكد أبو علي أن بورصة أسعار السلاح خاضعة لظروف الحرب الداخلية والإقليمية. أضف إلى ذلك تدهور قيمة الليرة اللبنانية الذي أدى إلى ارتفاع الأسعار. وللبرهان على ذلك سحب أبو علي آلة حاسبة من جيبه وبدأ يحسب سعر المسدس التشيكي قبل وبعد ارتفاع سعر الدولار، ليخرج باستنتاج أن «المصيبة واحدة في كل القطاعات»، معترفاً أن لا خسارة في تجارة السلاح. فالبضاعة لا تتعرض للتلف أو للكساد لأن السوق دائماً على حالة طلب وتتراوح نسبة الأرباح بين مئة بالمئة ومئتين بالمئة أحياناً، والاعتماد ليس على السوق اللبنانية فحسب، حيث يتم إعادة تصدير الأسلحة إلى الدول المجاورة... بالإضافة إلى عناصر قوات الطوارىء الدولية في الجنوب... الذين يشترون المسدسات لإعادة بيعها في أوروبا. وهناك سفارات غربية تتعامل مع التجار أحياناً لشراء بعض أنواع الأسلحة وثمة أسلحة خاصة المسدسات، سعرها أرخص من بلد المنشأ لأن بيعها محظور هناك.

وأهم الصفقات التي تمت في العام ١٩٨٨ بحسب أبو علي كانت لمصلحة جماعة السيخ في الهند، إذ اشتروا ثلاثة «كونتينرات» من الأسلحة الخفيفة والثقيلة والمتفجرات وتمّ شحنها بواسطة بواخر خاصة استؤجرت من مرفأ غير شرعي. والغريب أن البحرية الإسرائيلية المرابطة أمام الشاطىء اللبناني تسمح بدخول بواخر سلاح معينة إلى أطراف محلية، وأحياناً تصادر بعضها الآخر. وكذلك تسمح بمرور بواخر سلاح في طريقها من بيروت إلى بلدان يسودها توتر كإقليم البنجاب في الهند وغيرها من الدول. وهذا يعود إلى أسباب سياسية أو لرشوات مالية في عرض البحر. ويعتبر أبو علي أن الطلب على السلاح مرتبط بالأوضاع الأمنية محلياً وإقليمياً. ولأن الوضع يمر في مرحلة هدوء بسبب الوفاق الدولي فإن السوق المحلية تشهد مرحلة ركود. وقد زوّدنا أبو علي بلائحة أسعار سريعة لبعض أنواع الأسلحة كما يشير الجدول.

أسعار بعض الأسلحة

مسدس ١٤	١٦٥	دولاراً
مدسدس تشيكي	٢١٠	دولارات
مسدس ستار	١٧٠	دولاراً
أم ١٦	٢٠٠	دولار
كلاشنكوف	١١٠	دولارات
قذيفة ب٧ .	٢٠	دولاراً
قنبلة ميلز	٢	دولار

أما الأسلحة الثقيلة كالمضاد والهواوين والصواريخ فلا يوجد سعر محدد لها.

رياض ــ ع. يقول إنه ورث المهنة عن والده المتوفى كي يتركها بعد مدة ليتوجه إلى قريته ليزرع الحشيشة، لأن تجارة السلاح، بالمفرق لم تعد مربحة، بسبب ارتفاع سعر الدولار وجشع تجار السلاح بالجملة، إضافة إلى قلة الطلب على السلاح من قبل الناس. وتوسيع هذه التجارة بالنسبة لرياض يحتاج إلى رأسمال ضخم وعلاقات عامة وسياسية كبيرة.

كان رياض يشتري السلاح من التجار الكبار ليبيعه بالقطعة بسعر المفرّق. ويذكر أنه ساعد والده في بيع أول صفقة سلاح (كلاشنكوف) العام ١٩٧٦. وذلك حين اشترى أحد تجار اللحوم، من آل بيضون، شاحنتين من سلاح الكلاشنكوف من رومانيا، لتسليح أبناء الطائفة بسعر الكلفة وبيع الكلاشنكوف يومها بـ ٦٥٠ ليرة، بناء على طلب تاجر اللحوم. وبعدها بدأنا نشتري السلاح من عناصر في الجيش إبان انقسامه العام ١٩٧٦. كنا نشتري سلاح الـ «أم ١٦» والكلاشنكوف من عناصر حزبية. بداية الحرب كان عملنا خفيفاً لا يتعدى السلاح الفردي ولكن بعد العام ١٩٨٤ أصبحنا نتاجر بكل أنواع الأسلحة حتى مدافع الهاون والراجمات.

ويذكر رياض أن أكبر تاجر سلاح خلال حرب السنتين هو (ص .م)، الذي استفاد من علاقات سياسية معينة مع كل الأطراف. وصفقة السلاح الكبرى التي كان وسيطاً فيها هي تلك التي حدثت بين المنطقتين الشرقية والغربية. ويذكر رياض أن الصفقة تمت لمصلحة «الحركة الوطنية» يومها. وقد اكتشف لاحقاً أن مستودعات الصيفي للأسلحة قد نقصت كثيراً.

حين تحتدم المعارك الجانبية بين الميليشيات يبدأ عمل رياض.

فالعنصر الواحد يأخذ تموينه ٢٠٠ طلقة مع قذيفتي ب ٧ فيطلق ٥٠ طلقة وقذيفة واحدة على الجبهة ثم يبيع الباقي، ويربح بمعدل خمسة آلاف ليرة لبنانية كل يوم، إذا كانت المعارك مستمرة يومياً. بعدها يأتي المسؤول المحلي للتنظيم ويشتري البضاعة نفسها ليعاد بيعها إلينا بواسطة العناصر وهكذا دواليك. ومن المسلحين من لا يعرف قيمة البضاعة: أحدهم أتاني بآلة تفجير كهربائية فاشتريتها بألفي ليرة وبعتها في اليوم نفسه بخمسين ألف ليرة للتنظيم الذي ينتمي إليه العنصر الذي باعني إياها.

وتجارة السلاح تتطلب مرونة وديناميكية في التعامل بالنسبة إليه. ففي إحدى المرات صادر تنظيمان مستودع قنابل فأخذ التنظيم الأول قنابل من دون صواعق والتنظيم الثاني صادر الصواعق من دون قنابل، فاشترى من التنظيم الأول القنابل ومن الثاني الصواعق. وبعد فترة باع القنابل مع صواعقها للتنظيمين.

وعن الغش في السلاح يقول رياض إنه يتم تحويل مسدس «طوروس» البرازيلي إلى مسدس «سمث» الأميركي. وذلك بمحو علامة المنشأ البرازيلية ودمغ عبارة «صنع في أميركا» ليرتفع سعره من ٥٠٠ ليرة. ل. إلى ٤٠٠٠ ليرة.

ويؤكد رياض أن السلاح يمر يومياً في المعابر بين الشرقية والغربية، ويروي حادثة جرت منذ مدة: أحد العناصر المسلحة على أحد الحواجز كشف على شاحنة فوجد فيها سلاحاً فأخبر المسؤول عن الحاجز. أتى المسؤول بالعنصر إلى الشاحنة وقال له: «ما هذا؟» فأجاب العنصر: «إنه سلاح» فرد عليه المسؤول وهو يغطي الشاحنة ويومىء للسائق بالمرور: «لا... هذا ليس سلاحاً إنه بطاطا... هل فهمت. إنه بطاطا». وأكملت الشاحنة طريقها.

ويختم رياض حديثه عن مواصفات تاجر السلاح الناجح: «أن يكون بلا ضمير. لا تهمه هوية الشاري أو البائع. وأن يكون متمتعاً بعلاقات عامة ناجحة، ومع جميع الأطراف... ويحافظ على السرية المطلقة في التعامل».

(جريدة «الحياة» ـ ٢٤/ ١/ ١٩٨٩)

- ٣ -

صباح الخير يا شارع الحمراء

كما شارع «الشانزليزيه» في باريس، و«فيافينيتو» في روما، و«لستير سكوير» في لندن، و«فيفث أفينيو» في نيويورك، كان شارع الحمراء في بيروت، قبل أن ينطفىء بريقه ويتحول اسمه واحداً من أسماء أخرى لشوارع عادية أخرى.

يشير المؤرخ إبراهيم كنعان إلى أن منطقة الحمراء من مدينة بيروت، كانت في الفترة الممتدة بين العهد الروماني وبداية الفتح الإسلامي، خالية من السكان، قبل أن تصير ملكاً لعرب البقاع. وفي العام ١٤٠٧ أقطعها الأمير التنوخي لآل الحمرا الذين ما فتىء الأمير الأرسلاني أن سفك دمهم، وسميت المنطقة بـ «الحمراء». ومنهم من يذكر أن التسمية تعود إلى قيام قصر لونه أحمر شاده الدكتور سيلي، أحد أساتذة الجامعة الأميركية الأوائل. أما مختار رأس بيروت، كمال ربيز، فيعتبر أن أصل التسمية يعود إلى التربة الحمراء اللون في المنطقة، يوم كان الشارع عبارة عن زاروبين ضيقين هما خندق «ديبو» وزاروب «الحرامية»، يكتنفهما التوت وأشجار الصبير، إلى الأفاعي والجن.

ويروي المختار ربيز أنه كان «ثمة كنز في أرض جامع الحمراء، اهتدت إليه إحدى العائلات واستولت عليه لتصبح من العائلات البيروتية الثرية». أما الأمكنة التي راج أن الجن تسرح فيها فهي كلها من التي شهدت انقلاباً في استخدامها نحو أدوار محدثة: فرن جديد في المحلة، البيت الذي هدم تحول إلى سينما «إلدورادو» إحدى الفيلات التي تحولت محطة للمحروقات، مبنى قديم ومهجور من ملكية آل الحلبي انقلب إلى مقهى «الهورس شو».

وكان العامل الفعلي في تحول المنطقة من مرتع للصبار والتوت والأفاعي والجن، إلى شارع حديث هو قيام الجامعة الأميركية في رأس بيروت. ذلك بعد أن بدأ الأساتذة الأميركيون يقيمون بيوتهم حول الجامعة وفي محيطها، فيما شرع السكان الأصليون يبنون غرفاً لتأجيرها للطلاب. هكذا أصبحت قيمة المتر من الأرض ٣٤ غراماً من من الذهب، بعد أن كانت تباع بـ «الشملة».

الكاديلاك ... و«الشارلستون»

كان العام الذي تلا أحداث ١٩٥٨ الدامية في لبنان، بمثابة فاتحة الازدهار لشارع الحمراء، الذي لم يسجل وقوع حادثة واحدة فيه من تلك التي عصفت بغيره من المناطق. وبعد تدفق الرساميل الأجنبية والمحلية والعربية على بيروت، على ضيق وسط العاصمة (البرج، والأسواق التجارية)، بدأ التجار يبحثون عن مركز تجاري آخر. هكذا ازدهر شارع الحمراء وغدا مقراً لرجال الأعمال. وأخذت المكاتب تضيق على البيوت السكنية التي تحولت بدورها إلى شقق مفروشة للسياح وموظفي السفارات ورجال الأعمال وكانت سنة ١٩٥٧ قد شهدت افتتاح أول صالة سينما سميت باسم الشارع نفسه، وبدأت عروضها بفيلم «الكاديلاك الذهبية».

ويوم الافتتاح أتى إميل دبغي صاحب الصالة إلى حفلة الافتتاح بسيارة كاديلاك مذهبة، أوقفها أمام صالة السينما لإدهاش المارة وجذبهم ثم توالت الصالات التي راحت تقيمها شركة «ماميش - عيتاني»، إلى أن بلغت ١٥ صالة في شارع لا تتجاوز مساحته الكلم المربع الواحد.

وفي مطلع السبعينيات وصلت شهرة الشارع إلى جهات العالم الأربع. وكان ١٢ في المائة من سكانه من الأوروبيين والأميركيين ورجال الأعمال العرب. ووصل بدل «خلو» المحل الواحد في الشارع العام ١٩٧٣ إلى مليون ليرة لبنانية (٥٠٠ ألف دولار أميركي). وفي هذا الوسط من الخليط واللغات، كان علي خريس (وهو الآن صحافي، ٣٥ سنة) يحمر «خجلاً من المرور في الشارع» ولم يكن يمشي منفرداً، بل مع «شلة من الأصحاب»، يتفقون على أن يكونوا «مهذبين ومتحضرين» لحظة المرور فيه. يلبسون «الشارلستون» المكوي والنظيف، ويسرحون شعرهم الطويل، ويلمعون الأحذية جيداً... لكنهم كانوا «يتوارون خلف بعضهم البعض من الخجل»، لأن الناس «لا يشبهونهم والشارع غريب وبراق». كان الناس يرطنون باللغات كلها تقريباً. وواجهات المحلات تعرض آخر «صرعات» الأزياء العالمية، فيما كان الشارع مقياساً لتسويق أو نجاح أية بضاعة أو موضة في منطقة الشرق الأوسط كلها. أضف إلى ذلك كون الشارع مقياساً لنجاح وتوزيع أي فيلم أجنبي في العالم العربي. و«جمعية تجار الحمراء» هي من كانت تشرف على تزيين الشارع وبث الموسيقى في أعياد الميلاد ورأس السنة والأضحى والفطر، بالإضافة إلى الإشراف على مسيرات سيارات الزهور والمهرجانات الأخرى. وكادت فكرة إخلاء الشارع من عبور السيارات وتخصيصه للمارة الراجلين

فحسب أن تنجح وتسري لولا اندلاع الحرب التي قلبت الشارع رأساً على عقب. هكذا تحول مقهى «الهورس شو» منتدى المثقفين اليومي، إلى مطعم «للهامبرغر»، كما وأقفل مقهى «الستراند» على نفسه بالباطون وتحول مقهى «الإلدورادو» إلى محلات لبيع الأحذية... وأخيراً أقفل مقهى «الإكسبرس» وتحولت صالات «البافيون» و«إديسون» و«أورلي» و«الكومودور» إلى عرض أفلام «البورنو» قبل أن تعم الشارع صالات «البنغو»، فيما أقفلت عبوة ناسفة صالة «الإتوال»، وأخرى قتلت ثلاثة رواد في صالة «الإلدورادو»، منذ شهرين. وكثرة من محلات الألبسة والمطاعم تحولت إلى الصيرفة. ومطعم «بردعة الحصان»، الذي تمّ تصميمه على غرار حانة أفلام «الكاوبوي»، من ديكوره إلى أزياء العاملين فيه إلى وجبات الطعام التي يقدمها، أقفل أبوابه مع اندلاع الرصاصات الأولى للحرب، وغادره «رعاة البقر» الفولكلوريون، ليجتاح المسلحون الشارع كله.

الخليط المتنافر

وربما كانت أشهر الرصاصات التي أطلقت في شارع الحمراء هي التي سمعت غداة وصول الإسرائيليين إلى بيروت في مقهى «الويمبي» كأول عملية لـ«المقاومة الوطنية» ضد الإسرائيليين. ويروي حسين ماروني، نادل المقهى أن الإسرائيليين الثلاثة، امتنعوا عن دفع «فاتورة الحساب» معترضين على غلاء الأسعار في المقهى. وبعد جدل معهم وافقوا على الدفع، لكن بالعملة الإسرائيلية التي رفض حسين قبولها، في اللحظة التي لمح فيها شاباً يقف بالقرب منه يرتدي «كنزة» حمراء، راح «يغمزه» من طرف عينه، قبل أن يبتعد مسافة قصيرة ويشهر مسدسه ويطلق النار بهدوء على رؤوس

الإسرائيليين الثلاثة وعلى أيديهم، ثم يفر هارباً. وقد غطى الدم الذي نفر من الجنود الطاولة والشارع.

إلاّ أن الرصاص لم يتوقف في شارع الحمراء، بعد خروج الإسرائيليين من بيروت كلها. عاد إلى سابق عهده ينطلق من بنادق «حلفاء الصف الواحد» و«الهدف الواحد» بعضهم ضد البعض الآخر. ثم ما فتىء المهجرون من خطوط التماس أن احتلوا الشارع كله خصوصاً مع «انتفاضة» السادس من شباط/ فبراير العام ١٩٨٤، العام الذي شهد مع العام الذي تلاه «موسم العبوات الناسفة للمطاعم والمرابع الليلية». ولم يسلم من هذه العبوات «سناك شي أندريه» الذي تركه صاحبه الأرمني أندريه أريجيان في عهدة أحد العاملين فيه وهاجر إلى كندا. وعبد الله الذي تعهد المحل لقاء مبلغ شهري يرسله إلى صاحبه الأرمني، يروي أن رواد «السناك» كانوا من «الشخصيات» قبل الحرب: أمين الجميل، جورجينا رزق، شارل أزنافور، شوشو، جوني هوليداي. وعبد الله يبالغ قليلاً إذ يعتبر العابرين مرة أو مرات على «السناك» في المناسبات، من رواده الدائمين. لكن على الرغم من مبالغات عبد الله، فإن رواد «شي أندريه» لم يكونوا من الخليط المتنافر، كما هم الآن. «هناك فنانون وقبضايات وتجار مخدرات وصرافون، وصحافيون...» وهذا التنافر في رواد «السناك» يعرضه أحياناً للعراك. «منهم من يريد سماع سيد مكاوي، وآخر يريد مايكل جاكسون... وفي مرات عدة اضطر (يقول عبد الله) إلى دفع أجرة سيارة التاكسي للسكارى»، أما الصور التي تزين جدران «شي أندريه» فهي أيضاً نظير الرواد من الخليط المتنافر: نجوم غناء، ونجوم جمال، إلى جانب «قفشات» من وحي الحرب: «الدين تحت (طاولة) المسؤولية»، «معك دولار بتسوى ليرة»، «أنا الدولار، ما

حدا قدي»... والانقلاب في الزمن طاول أيضاً مواعيد فتح السناك وإقفاله: «كنا نبقى ساهرين حتى الثامنة صباحاً، أما الآن، فنقفل في الثامنة مساء» يقول عبد الله. ومن رواد المحل الآن من يلتهم ثلاثين بيضة مسلوقة تحدياً، إلى الذي يقول: «لست مرغماً على الدفع بعد أن خسرت في البنغو».

الحقد والرغبة

ولكي تكتمل الصورة التقينا أحد المسلحين الذين كانوا من «رواد» الشارع في الحرب الأخيرة بين «الحلفاء». وقد تركنا فضل (٢٠ سنة، وكان مسؤول «محور» البيكاديللي) يتكلم على سجيته يروي: «كنت أحرس الناس وكانوا ينظرون إليَّ بازدراء يولد في نفسي حقداً عليهم، مخصصي الشهري من الحزب لم يكن يكفي ثمن علب التبغ التي أستهلكها في شارع يعتبر منجماً للذهب كشارع الحمراء. وكان أصحاب المحلات يدفعون ما يترتب عليهم من «خوة خشية العبوة...» أما أنجح مشروع فكان أيام السيارات المفخخة، إذ أخذنا نجمع تبرعات من المحلات من أجل مشروع إقامة عوائق من الحديد على الرصيف، منعاً لوقوف السيارات. وبعدما جمعنا ١٥ ألف ليرة لبنانية توزعنا المبلغ بيننا ووضعنا حجارة على الرصيف بدل عوائق الحديد. إلاّ أن ما حصلناه في هذه الصفقة ضاع في ليلة واحدة في صالة للبينغو. وفي الليل حين نضجر من فراغ الشارع، نبدأ بإيقاف السيارات القليلة العابرة كي نتسلى مع ركابها... وفيما كنا نقوم بالحراسة ونحن جائعون كان أوتيل البريستول القريب يقيم حفلات ساهرة لجورج وسوف وصباح. كنا نحتسي الشاي على الخشب وأحياناً نسرق المانغا من محل الفاكهة القريب، أو كيساً من الكستناء نشويه في تنكة نشعل

فيها النيران بالحطب. أما الفتيات العابرات في شارع الحمراء نهاراً فكن ينظرن إلينا بحذر وريبة. وربما لهذا كنا ننفس عن كبتنا وضيقنا بالدخول إلى صالات السينما ونمد أرجلنا على المقاعد التي أمامنا، وأحياناً نقوم بتمزيقها، لأن صاحبها برجوازي كبير... وفي أثناء احتدام معارك الحلفاء الأخيرة بتر زجاج محل «الرد شو» للأحذية يد أحد المقاتلين، ما إن مدها لتناول حذاء من الواجهة».

مشهد آسيوي

والمشهد اليومي الدائم في شارع الحمراء الآن هو اجتماع شلل من الصرافين المتجولين بحقائبهم المليئة بشتى أنواع العملات. تختلط أصواتهم المنادية بأصوات بائعي الكعك والجلاب والعطورات. وستجد أيضاً شرطياً ينفس دولاب سيارة متوقفة، بعدما يئس من معرفة صاحبها، فيما يطارد شرطي آخر صاحب بسطة لبيع التبغ. ومن بعيد لا بد أن تسمع طلقات الرصاص من نافذة سيارة مسرعة تقل جريحاً إلى مستشفى الجامعة الأميركية. يلعلع الرصاص فيما الناس تتجمهر على خلاف بين طفلين من المهجرين.. وإذا كان لا بد من سياح فإن الشارع يغص نهارات الآحاد بأفواج من السيريلانكيين والسيريلانكيات والهنود السيخ والفيليبينيين وهم ممن تبقى بعد صرف الكثيرين منهم من الخدمة، بعد ارتفاع سعر صرف الدولار. وفي الصباح الباكر سوف تصادف سيارة «تويوتا» رمادية توزع الشحاذين على المفارق. وإذا أصغيت السمع وأنت تجلس في مقهى «المودكا» تسمع أحاديث متنوعة من باعة آثار ومهربين تختلط بنقاش حول جائزة نوبل للآداب... وفي الليل يخلو الشارع إلاّ للسقط.

(جريدة «الحياة» ـ ٨/ ١١/ ١٩٨٨)

- ٤ -

«بئر العبد»
بين تل أبيب وواشنطن

إنهم أهلي!

حين تكوّمت السفارة الإسرائيلية في الأرجنتين على بعضها البعض حزم «أبو علي» ما خفّ من الثياب، وحضن الزوجة والأولاد وغادروا بسرعة شقتهم في ذلك الحي النحيل: «بئر العبد».

رحلوا فزعاً من انفجار جرى في أميركا اللاتينية، خشية انتقام ما في الضاحية الجنوبية، وإن كان آخرون في هذه المنطقة ابتهجوا لهذا الثأر رداً على اغتيال السيد عباس الموسوي...

إنها الحرب من بئر العبد حتى بيونس أيرس.

ما يحدث الآن، في أقاصي الكرة الأرضية، وعبر محيطات من أطلسي وغيره، وخلف قارات، أن هناك طاولة لمفاوضات في واشنطن، ولاعبين بالجملة وغرباناً ينعبون حول مصير منطقة، من تاريخ وجغرافيا، وبشر وحجر، وبين الأوراق والخرائط، هناك دائرة حمراء مرسومة بدقة حول حي، حول جامع يدعى بئر العبد، حيث

عش «حزب الله» المطلوب رأسه حياً أو ميتاً، مسلحاً أو مجرداً، فرادى أو جماعات.

إنها الحرب... بين بئر العبد وواشنطن.

كلما زعق «أوري لوبراني» بعد مصرع جنوده في دشمة أو ملالة «يُعبْرِن» بالويل والثبور، فاقداً أعصابه وحرس حدوده، أمام ميكرفون الإذاعة الإسرائيلية في «نهاريا».

ثمة قلوب تخفق في بئر العبد وتنبض وسط الظلام، وخصوصاً مع هدير طائرات حربية في الليل.

إنها الحرب بين بئر العبد وتل أبيب...

بين الوهم والحقيقة، بين الشائعة والواقع ثمة خيط رفيع، تحاول التقاطه، أو التقاط أنفاس كائنات بشرية تركض وراء لقمة العيش والحرية معاً. هم، تحت مجهر علماء الدين والنفس والاجتماع والسياسة، وعلى مرمى بصر طائرة حربية أو سيارة مفخخة، وفي حيّ ضيق ذاعت شهرته حتى السينما الهوليوودية، في أفلام عن ناس هذه البلاد كخاطفين، وكيف حرّرهم «شاك نوريس» في فيلم «Delta Force»، مقتحماً الضاحية، مدمراً ومحرراً.

كأن الحي وقع في سحر الخرافة، وبات مشغلاً لغزل الأساطير والأوهام والشائعات، من رهائن بالجملة، إلى زواج المتعة، والمخيلة الجنسية والدينية، وفتاوى التحريم ومغاور الرعب.

بئر العبد لا يشبه حي «أمبابة» موطن الأصولية في القاهرة، والضاحية ليست الجزائر، والجماعة في هذه البلاد لا يمتون بصلة قرابة لقبائل الأفغان.

كأن الأصولية الإسلامية اللبنانية وإن تطرفت لم تبالغ في التكفير، أو تطليق المرتدين، ولا إلزام للحجاب الجماعي أو مطوّع يدعو للصلاة بالقوة، ولا حرق كتاب محلي، ولم تجلد شارب خمر أو تقطع يد سارق، ربما ما يشفع لهذه الأصولية لبنانيتها، ومحافظتها على مسافة لا بأس بها مع الآخرين أحزاباً وناساً وطوائف.

«بئر العبد» الحي الخرافي في الذاكرة اللبنانية والإقليمية والدولية. إنه اختصار لضاحية، والضاحية اختزال لأهل، إنهم أهلي لحظة خطر، جغرافي وتاريخي، أحاول التقاط صورة تذكارية لهم قبل انقراضهم، فأدخل إليهم.

الجزيرة العذراء

أتجاوز مستديرة المشرفية.

أتجاوز يافطات على مدخل بئر العبد، من صورة المطربة «جوليا» (قبل مقص وزير الداخلية) التي تجاورها صورة للإمام الخميني، وفي المقابل لافتة كبيرة للرئيس نبيه بري، وتطل عليهم جميعاً لافتة أضخم لمعرض السيارات الألمانية.. أتجاوز شرطي الدولة التائه وسط الاشكمانات والدخان، ينظم السير على طريق الشام أو طريق القصر الجمهوري.

أتجاوز حاجزاً وعمالاً سوريين يتفيأون تحت شاحنات صغيرة، وآخرين يفتشون عن الكرتون في مستوعبات الـ «Sukleen».

أدخل إلى بئر العبد كأنها المرة الأولى كمستكشف لجزيرة عذراء ضائعة وسط بحر من اليافطات والأعلام السود و«الأنتنات» وأسلاك الكهرباء والشرفات، ويلفت انتباهي كثرة آرمات أطباء الأسنان، فتصطك أضراسي قليلاً، خوفاً من شيء غامض لا أعرفه،

أتلصص على أهلي، والأهل يرمقونني بحذر، أصبحوا عيوناً جوالة تدور على مدار الساعة، لخوف أقدره... فأدخل بئر العبد بلا لحية، أمشي وأراقب خطواتي حتى لا تنزلق في حفرة مفاجئة، أضبط نظراتي كجاسوس حتى لا تصطدم بعين أحدهم، وأختزل أفكاري حتى لا يضبطني أحدهم متلبساً في التقاط المشهد.

خطوة، خطوة وسط الغبار. وفكرة، فكرة، تحت شمس لاهبة، أتجاوز كنيسة «الطيار» التي أصبحت ركاماً. ويروى أن آل الطيار قد باعوا أرض الكنيسة لأحد المقاولين، لذا اختفى الصليب، واختفى النصارى كسكان أصليين من المشهد. وتذكرت ما رواه لي «مصطفى» عن طفولته في الحي قبل الحرب: «كنا نسرق النذورات من مزارات العذراء المتفرقة عند المنعطفات، وأهلنا كانوا يحذروننا من ركوب سيارات النصارى حتى لا يخطفونا فيمصوا لنا دمنا... كنا نعيش الخرافات، وسط بساتين الليمون».. يقول مصطفى الذي حج مرتين ويتابع دروس الفقه: «كان هناك قصر على بعد أمتار من كنيسة «الطيار»، وكان صاحب القصر وعائلته لا يقطنونه إلاّ كل ثلاث سنوات، فكان مهجوراً، وبالتالي فإن الأهالي المسلمين من مقيمين وريفيين، ينظرون إلى القصر على أنه مسكون بالجان والعفاريت، فلم يقترب منه أحد، وحين تهجر المسيحيون على دفعات وجولات حرب، اشترى أحدهم القصر، وشيّد مكانه بناية ضخمة، لكن البناية نفسها سكنها الرعب، فقتل ثلاثة عمال بعد أن هووا عن صقالاتها، والبناية التي شيدت، بقيت كما هي أثناء الحرب، ولم يقطنها أحد حتى المهجرون، وما زالت معظم شقق البناية غير مباعة، لأنها مسكونة بشيء غامض من علم الله... إنها اللعنة!

البئر ومدفن عبد الأمير

أترك خلفي كنيسة نائمة، وتدق أجراسي الداخلية رعباً من زمامير السيارات المحتشدة أمامي وورائي. إنها الزحمة النموذجية، الخانقة للأجساد والهواء، وعلى مسافة كلم واحد تحتاج إلى ساعة ونصف الساعة لتخرج أو تدخل ولتنجو بآخر نفس لك بين بئر العبد والمشرفية.

البنايات على جانبي الشارع الضيق تشهق عالياً، كأنها الصنوبرات البلدية، بنايات متراصة، مشدودة بالإسمنت والأعصاب، بشرفات متوترة، ومقفلة بالستائر السميكة، حاجبة نور الشمس والهواء، لا مكيفات بل ستائر تلو ستائر، وعباءات مقفلة على وجوه وأجساد، شوارع مقفلة بحاجز، أو بصورة شهيد، ومداخل مقفلة بلحية خفيفة لمراهق، الانزواء إلى الداخل، والمفتوح أيضاً على أقصى مصراعيه. الشادور في جوار التنورة القصيرة، تسجيلات خطب الجمعة وكاسيت جورج وسوف، «دعاء كميل» للسماء وأجهزة «السيلولير»... وفي الصراع على مشاع الدولة وجنة السماء... إنهم يشبهون باقي ناس الجمهورية في تناقضاتهم، وإن عقدوا حواجبهم ونظروا بخفر وريبة إلى الأرض وطقطقوا بالمسابح، إنهم شباب من غضب متوارث، كأنهم آخر قبيلة صحراوية على الكوكب يدافعون عن بئر، لعبد، لذا تفاجئك خزانات المياه عند المنعطفات ومداخل الأبنية بطريقة ملفتة، ويشهد في ذلك لـ«حزب الله» دوره الخدماتي كحل مبتكر للأزمة. المياه مجاناً ومعقّمة عن روح الحسين. إنه العطش التاريخي من أيام شهيد كربلاء، فمن سقى وروى كسب وربح حياة وآخرة، إنهم في علاقة غرامية مع البئر. ماذا تقول الحكاية في تاريخ «بئر العبد».

يروي رياض حنين في كتابه «شبروح والصفرا» أن الأمير فخر الدين الثاني، كان آتياً من قصره في صيدا إلى بيروت لمقابلة قناصل بعض الدول الأجنبية، فوصل إلى مكان يسمى «شعبانة» في صحراء الشويفات، فترجل عن حصانه المطهم ليستريح هو وحاشيته، وبعد أكل وشرب تابعوا طريقهم، ثم اكتشف الأمير أن طاسة الشرب الفضية المطعمة بالذهب ليست في الخرج فالتفت إلى حارسه وهو عبد قامته كالرمح، فقال له الأمير «عُد وجئني بها»، وقفل العبد راجعاً، فيما الأمير وصحبه أكملوا سيرهم ومروا في ساحة المريجة في برج البراجنة، وكان فيها جنازة فنزلوا عن خيولهم احتراماً للميت جرياً على عادات أهل البلاد وتقاليدها. ثم اجتازوا بين القوم الحزانى على أرجلهم ثم اعتلوا جيادهم وقادوها على مهل بانتظار انضمام العبد إليهم، وبلغوا محلة معروفة «بالرادوف» وإذا بطلق ناري يدوي صرخ على أثره الأمير فخر الدين: العبد قتل.

وسأله مستشاره لماذا؟

فأجابه الأمير، ثمة فكرة سوداء، قد يكون العبد شق الجنازة على فرسه من دون أن يترجل عنها لجهله بالعوائد فرشق بالرصاص.

وهذا ما جرى حين لمحوا فرساً تعدو جافلة باتجاههم وعندما اقتربت منهم تبينوا العبد فوقها، محني الرأس على رقبتها، وممسكاً بشعرها وهو ينزف دماً، وصدق حدس الأمير.

وعلم أن امرأة، لمحت من نافذة بيتها، العبد يخترق الجنازة بين الجمهور على ظهر فرسه، فلم تطق استخفافه بحرمة الموت، فأردته.

وحمل الأمير وصحبه العبد المصاب، إلى بئر قريبة في بساتين حارة

حريك، ليسقوه ويغسلوا عنه دماءه، لكنه لفظ أنفاسه الأخيرة على البئر.

وحفر الأمير قبراً تحت شجرة صنوبر قرب البئر، وبينما كانوا يهيلون التراب فوق جثة العبد، أقسم الأمير بأنه سيقتص من أهالي برج البراجنة، انتقاماً له، ومنذ ذلك الحين أخذ الناس يسمون هذا البئر باسم بئر العبد.

وكان قصاص الأمير، إسكان عائلات غريبة عن برج البراجنة، للتملك والسكن فيها غصباً عن أهاليها الذين أرغموا على النزوح عنها.

الحكاية نفسها، حكاية جنازة، واللحظة نفسها، لحظة تشييع، وكم من كوكب جنائزي ينطلق يومياً في بئر العبد لدفن فتيان سقطوا جميعاً على تلال «الشريط الحدودي»، يرقّصون التوابيت، يندبون، يلطمون، إنها الجنازات الجماعية لشهداء، أو لضحايا انفجار سيارة مفخخة، أو بعد غارة، وصولاً إلى شهيد في البوسنة أو جثة عادت من حرب إيران مع العراق، فترتفع رايات سوداء وخضراء، إنها طقوس الموت والحداد اليومي، ومن ينتهك هذا الجناز، تحل عليه اللعنة.

الحكاية نفسها، القصاص نفسه، ولحظات النزوح والتهجير المتبادلة للأهل من أرياف وقرى الشريط الحدودي في الستينيات نحو النبعة وبرج حمود، والذين تهجروا مرة أخرى إلى بئر العبد والجوار، إلى التهجير المقابل لنصارى بئر العبد وحارة حريك، إنهم يتبادلون النزوح والصرر والحقائب.

فتحول بئر العبد إلى شريط محرر يقابل شريطاً مأسوراً لتجمعات بشرية وهيئات لأهالي بنت جبيل وعيناتا والخيام الذين أنجبوا أولاداً

وأحفاداً تحولوا إلى مهاجرين ومقاتلين وشهداء لاسترجاع قرى أهاليهم أولاً. وتدور المعركة بين غرف عمليات سياسية وأمنية في بئر العبر نحو حرب مع تل أبيب من موقع «الدبشة» حتى «كريات شمونة».

الجنازة نفسها، مجتمع بين رغبة في موت دائم ورهبة من حياة، العيش في حذر بين النجاسة والطهارة، بين الحلال والحرام، العيش في مجتمع ينغل كالنحل في قرص ضخم من الطنين وجنة العسل، يحتشدون في التشييع والمظاهرات والمواكب، والمذابح الجماعية.

يعتصمون ضد اتفاق ١٧ أيار/مايو ١٩٨٣، فيطلق النار عليهم.

يتظاهرون ضد اتفاق ١٣ أيلول/ سبتمبر فيتساقطون جماعات تحت جسر المطار.

يتكتلون حول القتيل يحومون حول بعضهم في أيام عاشوراء أو كل أسبوع بعد صلاة الجمعة، وخطبتها السياسية.

«سندريللا» المظلومة «وأليسار» التائهة

خطوة، فنظرة، ففكرة، وأصل إلى منطقة فرن «سندريللا» وأتذكر الحكاية نفسها، سندريللا تلك الفتاة المظلومة، والخادمة في بيت خالتها، المحرومة من العيش الكريم، تحلم بأمير على حصان أبيض، وفعلاً يتزوجها الأمير ويأخذها إلى قصره، ترى هل الشيعة تلك الطائفة المحرومة والمظلومة سابقاً هي سندريللا الطوائف؟ ها هي تصل إلى البرلمان والقصر والسلطان، لكنهم ما زالوا تائهين بين سيف المعارضة وكرسي الدولة.

ينجبون أولاداً واجتهادات، يتناسلون ويموتون في عز الشباب، ويلحظ في ذلك أعمار الأمناء العامين والمكتب السياسي لـ «حزب

الله» وباقي التيارات، وكذلك أعمار الشهداء بين مدافن الرادوف وروضة الشهيدين... وفي المقابر الجوالة.

في جوار الفرن، سينما «سندريللا» أيضاً وفيلم «بخيت وعديلة»، وأحلام الثروة قرب حفرة ضخمة من المجارير. ولوحة زجاجية لشهيد غطاها غبار الحفريات، والجرافات تزعق عميقاً في الأرض والطوابق ترتفع، يقول أحد السماسرة: «إن الشقق ارتفعت أسعارها في المنطقة بسبب «وادي الذهب» ويقصد وادي أبو جميل حيث غادر المهجرون الوادي إلى الضاحية محمّلين بشيكات لا بأس بها، واشتروا شققاً في جوار العاصمة، في ضاحية تتوسع شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً ومشروع «أليسار» بالمرصاد، ومشاريع لإنماء الضواحي».

يقول أحد المسؤولين: «هناك فريق من مهندسي جهاد البناء يراقب عمل الدولة، ويرفع تقريراً عن أي سوء في إدارة الملتزم... وتقدم ملاحظات... وما يحكى عن إنماء متوازن، نحن لنا في ذمة الدولة أصلاً مستحقات بمفعول رجعي عن حرمان سابق؟».

و«أليسار» تلك الأميرة الفينيقية ـ الوثنية تهجرت ذات غروب من صور إلى قرطاج في سفينة تائهة وسط الموج، وأحفاد أحفادها ها هم أيضاً يبحثون عن سفينة نجاح لتصبح الحياة عندهم كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء، والبحث عن فوز عظيم في هذا العالم الجديد.

عند هذا التقاطع، تقاطع سينما «سندريللا» وقع أفظع انفجار لسيارة مفخخة في ١٩٨٥/٣/٨، ذهب ضحيته أكثر من ٣٠٠ قتيل وجريح، وكانت موضوعة على مسافة عشرة أمتار من البناية التي يسكنها السيد محمد حسين فضل الله والذي كان في

المسجد لحظة الانفجار، حيث اندلعت النار في الشقق والأجساد، واندلعت الحرب بين بئر العبد وواشنطن: بوارج ورهائن، سفارات واغتيالات بلا رحمة، وسيارات مفخخة تقابلها سيارات استشهادية.

تروي إحدى الناجيات من المجزرة «فاطمة ن.»: «إن معظم الضحايا كن من الفتيات المؤمنات اللواتي كن يتلقين محاضرة دينية للسيد، وخرجن في الخامسة، ولمع برق وحدث زلزال، طرت يومها، وسقطت على جثث وبرك دم ومازوت... وما زلت حتى الآن أعاني من الشظايا... بالإضافة إلى فقدان الذاكرة بين الحين والآخر، لكنني كلما استعدت ذاكرتي أكره أميركا».

لافتات حديثة: أية حداثة

خطوة، خطوة، والشمس مكانها، تلهب الجسد والقدم، وحديد السيارات المحشورة ببعضها وزمامير «الفانات» والباصات الصغيرة المهترئة محملة بركاب فقراء من طلاب وموظفين وعمال وعاملات في الخياطة والتريكو. «الفانات» المزينة بالخرزات الزرقاء، وعين الحاسد، وآيات الركوب تتهاوى حولك كعربات لقطار عتيق، أفتش عن رصيف، لا أراه، فأزورب، فيشتمك السائق النرفوز، تستنفر جسدك فيهدىء خاطرك سائق آخر: «لا حول ولا قوة إلاّ بالله... الحق على الدولة يا أستاذ..».

وبما أنني أستاذ سدّت بصري لافتة مدرسة شارلمان ـ قصر الثقافة، وتقابلها مهنية الحسين بن علي، بين شارلمان ملك الإفرنج وأمبراطور الغرب، وحسب المنجد، ناشر المسيحية في القرن الخامس عشر، وحامي العلماء، أنه شارلمان الإفرنجي الصليبي. والحسين بن علي

سيد شباب أهل الجنة صريع كربلاء والمذبوح. ما الذي يجمع بين مدرستين بعنوانين مختلفين، والذي يؤطر بين هذه اللافتات لمطاعم ومدارس وسفريات ومحلات للعصير من مثل «سناك آيات» والذي يجمع بين السناك المرتبط إشارة ودلالة إلى البار والآيات المرتبطة بالقرآن الكريم، أية حداثة إسلامية! وكيف تقرأ «الله نور السماوات والأرض» ـ محطة الجهاد الكبرى، الاشتراك ٥ أمبير بـ ٣٠ دولار، أو «الملك لله» والشقة بـ ٥٠ ألف دولار، ناهيك عن «فروج الحسين... الشرعي». لافتات تلو لافتات لثقافة ريفية تحاول مدنية ما، فتقع في الطرافة والاستخفاف، كأن ترى تخشيبة كتب عليها «كينغ صاج» (ملك المرقوق)، أو «فلافل آية الشهية» وتحت شعار الموت لأميركا والمحل برعاية كوكاكولا... المشروب الاستكباري.

«السيد» والجامع

حين بنى السيد إبراهيم أبو طعّام بناية ضخمة في بئر العبد، أضاف إليها مسجداً (١٩٧٨)، لإيمانه بفعل الخير والبر والإحسان، بحث عن إمام لهذا المسجد فوهبه للسيد محمد حسين فضل الله. وأطلق عليه اسم جامع الإمام الرضا، الذي مات مسموماً على يد المأمون، ودفن في «مشهد» في إيران. ومع السيد ستكبر دائرة الجامع من صلاة وخطبة عادية لتتسع الحالة الإسلامية إلى أقصاها أحزاباً وحركات، سلوكاً ومجتمعاً، ونهجاً في السياسة والثقافة.

ما إن تجتاز الحاجز الحديدي وتصبح وسط منطقة الجامع تتناهى إلى سمعك تسجيلات الأدعية ولطمات إيرانية وعراقية، كأن «بئر العبد» خيط فاصل بين النجف وقم، وتتذكر ما قال السيد علي الأمين في سؤالي عن لهجات عراقية سمعتها في الشارع، فأخبرني أن هناك منفيين من العراق، من بلاد القصب والنخيل يلجأون إلى

هذه «المنطقة»، فالعراق حاضر بقوة ولا ننسى حروب طهران وبغداد، ومن يذكر ٢٥ نيسان/ أبريل ١٩٨٠ حين لبّت الضاحية دعوة المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى وحركة «أمل» للمشاركة في تظاهرة ضخمة (٤٠ ألفاً) استنكاراً لاعتقال الإمام محمد باقر الصدر وعائلته في العراق. وعندما وصلت المظاهرة إلى منطقة بئر العبد أطلق عليها الرصاص من مبنى جريدة بيروت التابعة لحزب البعث العراقي وسقط قتيل وعشرات الجرحى، ومنذ تلك اللحظة (العراقية) اشتعلت المعارك بين «أمل» واليسار اللبناني، وتحولت بئر العبد إلى خط تماس داخلي وتحديداً حي الجامع الذي سيشهد بعد ثلاث سنوات من ذلك مجزرة أخرى حيث أول اعتصام ضد اتفاق ٧ أيار/ مايو ١٩٨٣، إذ أطلقت النار على المتظاهرين لتبدأ معها أول شرارة حرب ضد الدولة وأول خلية لـ «حزب الله». ويتحول السيد محمد حسين فضل الله إلى المرشد الروحي للحزب من خلال خطبه فيرتبطان معاً: السيد والجامع.

لكن «السيد» الآن بدّل إقامته وحافظ على خطبته كأنه انسحب من النشاط السياسي المباشر، متابعاً تفاصيل أخرى ومشاغل الطائفة حول المرجعية، انتهاء بالتدريس الديني وإصدار «المسائل الفقهية» وأسئلة الناس من الصلاة والصوم وعكس السير مروراً: «هل الشتم باللغة الإنكليزية جائز وكذلك أغاني فيروز، وهل الغش في الامتحانات الرسمية حلال أم حرام»، «السيد» يبتعد نحو رؤية أخرى، نحو مسجد آخر يشاد الآن في حارة حريك ويتسع لخمسة آلاف مصل، محاولاً عصرنة إسلام ما، قبل أن يدهمه القرن الواحد والعشرون.

تغادر بئر العبد، وخلفك البئر مطموراً تحت محطة وقود، والصنوبرة

الضخمة اختفت، ونبت مكانها سوبرماركت، تغادر زحمة خانقة، والأوتوستراد الموعود توقف قلبه، بسبب تخشيبة لـ «أبو حديد» الذي يطالب بتعويض ضخم لمشاعه المصادر، أغادر تاركاً «أم موسى» تبتهل وتصلي ليعود ابنها من سجن عسقلان الإسرائيلي، تزور «الغريب»، وتنذر للسيد زينب، وتبكي الحسين، وتنتظر المهدي ليفك ولدها من أسر.

أغادر وفي رأسي آخر حوار سمعته من «عبد الله» عن «بئر العبد» قائلاً: أغادر المنطقة صباحاً إلى عملي ولا أعود إلاّ فجراً مزهواً، وحراً! ربما.. نحن أكثر طائفة استهلاكاً لأشياء كثيرة.. كما للدمع وللدم وعرق الجبين، نحن شعب من مياه، نبحث عن نهر خرافي ليروي عطشنا التاريخي ولا نرتوي».

(«السفير ـ سفير الناس» ـ ١٢/ ١٠/ ١٩٩٥)



ـ ٥ ـ

... مرّوا من هنا

كلهم مروا من هنا وهناك، ودوّنوا بطولاتهم على حيطان أحياء بيروت وغيرها من المدن والقرى اللبنانية، ذات حرب مرّت، من هنا، ولم نعد نلتفت إليها، كأننا في الطريق إلى نسيان تفاصيلها كما كل مرة ننسى ولا نتعلم مما جرى معنا... كأن سبع عشرة سنة لا تستحق موقف لحظة للنبش والتحليل. ثمة ظاهرة رافقت معاركنا، هي تلك الألقاب المتعددة، التي تناثرت على الجدران والقمصان، وألفتها الآذان:

«إذا مرَّ الزمان ولم تروني، فأنا أبو خريطة «تذكروني»»، «لا السجن.. ولا السجان يرعبوني، فأنا أبو عجقة تعرفوني»»، مجموعة «الشبح» مرت من هنا. وكذلك «أبو بطحة»، و«أبو موزة» و«أبو الموت»».

شباب أرادوا تغيير العالم أو النظام أو الحي، فكان أول تبديل قاموا به، اختراع أسماء جديدة غير التي أطلقها عليهم الأهل، لقد أصبحوا مقاتلين لذا تواروا خلف اسم جديد، كطوطم آخر للحماية خلف حجاب، يتسترون خلفه ويتحصنون بحياة أخرى.

تبدو ظاهرة الألقاب العسكرية لصيقة بتجربة المقاومة الفلسطينية. حيث لا مناص من اسم حركي لـ «سرية» العمل الفدائي والحزبي والتنظيمي. وكان لا بد من اكتمال الزي العسكري بإضفاء اللقب الذي يمنحهم الشعور بالعظمة، اقتداء بالشهداء أو الأبطال الأوائل، أو القادة الذين هم المثل الأعلى في الحياة والموت.

لكل حزب وتنظيم قاموسه الخاص من الألقاب، فالسوريون القوميون الاجتماعيون يستلهمون ألقابهم من حواضر العقيدة وقادتها ومدن الهلال الخصيب بالإضافة إلى أبطال الأساطير، وتتردد بين صفوفهم أسماء: «أنطوان»، «ميسلون»، «أبو الزوابع»، «عشتار»، «أليسار»، «كيليكيا»، «سورية»، «أرواد»، «أوغاريت»، «ملكارت»، «هنيبعل»، «آشور»، «سرجون»، «زينون»، «سعادة»، «تموز»، «آذار»، «أدونيس»، «أورلينا»، «زنوبيا»، «حرية»، «واجب»، «نظام»، «أبو سعادة».

كذلك يفعل الشيوعيون في تعاطيهم مع الألقاب، حيث ينتقي الرفيق اسمه الحركي من رموز الماركسية اللينينية والثورات الأممية في العالم، مدناً وأبطالاً: «ماركس»، «لينين»، «ستالين»، «كاسترو»، «فيتنام»، «هوشي منه»، «سايغون»، «الليندي»، «الروسي»، «غيفارا»، «أبو منجل»، «أبو مطرقة»، «الأممي»، «فرج الله» (الحلو)، «أبو حاوي»، «هافانا»، «موسكو»، «مانغيستو»، «ماو».

أما «الكتائب» و«القوات اللبنانية» ومعظم الأحزاب اليمينية فقد اختار شبابها الجمهورية اللبنانية منبعاً لنهل الألقاب مع استلهام العالم الرحباني بالإضافة إلى الأشجار والأنهار واستعارة الألقاب من الإرث الفينيقي والإرث المسيحي: «لبنان»، «أبو أرز»، «أبو بيار»، «أبو بشير»، «الحكيم»، «أبو الزلف»، «دلعونا»، «مجد»،

«مدلج»، «فخر الدين»، «المير»، «الكسرواني»، «عينطورة»، «الداموري»، «حنا السكران»، «أبو تفاحة»، «شربل»، «أبو بطرس - »... الخ.

أما التنظيمات الدينية مثل «حزب الله»، فيلجأ مقاتلوها إلى التراث الإسلامي عموماً، والشيعي خصوصاً، ويعودون إلى حمل الإشارات نفسها. ويطلقون على أنفسهم أسماء الأولياء والمقامات المقدس»: «أبو الفضل»، «أبو الحسين»، «أبو فاطمة»، «الصدر»، «أبو الجنوب»، «أبو زينب»، «الجنوبي»، «أبو علي»، «زين العابدين»، «أبو ذر»، «أبو القدس»، «أبو المحرومين»...

واللافت أن معظم الذين شاركوا في الحرب من فتيان ومراهقين وقع اختيارهم على ألقاب بعيدة عن حواضر الأيديولوجيا. وكانوا ميالين إلى اختراع ألقاب دموية ومرعبة لتأكيد الذات وإلغاء الآخر، لاعتقادهم أنهم من خلالها ينزلون الخوف في نفوس الأصدقاء والرفاق أولاً، ويرعبون أعداءهم ثانياً: «الوحش»، «أبو الموت»، «أبو الجماجم»، «أبو الرعب»، «أبو الدم»، «لعلع»، «أبو العظام»، «أبو ساطور»، «أبو الليل»، «أبو الفحم»، «أبو البلاوي»، «أبو اللحم»، «أبو دشمة»، «أبو النار»، «السفاح»، «العنيف»، «البشع»، «الشبح»، «الشبيح».

وكانت أفلام السينما مادة خصبة ومغرية لاستلهام الألقاب والتماهي مع المحارب والبطل الذي لا يموت: «أكشن»، «أبو لقطة»، «رامبو»، «الكاوبوي»، «الأكتع»، «الساموراي»، «وانغ يو»، «جيمس بوند»، «ماغنوم»، «تكساس»، «غرانديزر»، «جيمس بوند»، «بروس لي».

وللوصول باللقب إلى أقصاه من التفظيع والتهويل فإن المقاتلين

يتآلفون مع عشقهم لأدواتهم الحربية إلى درجة الغياب الكلي في استعارة أسماء السلاح، فيتجردون من إنسانيتهم، ويتكنّون بالمعدن والأداة: «توغاريف»، «بلدوزر»، «هاون»، «كاتيوشا»، «أبو جنزير»، «أبو صاروخ»، «أبو خنجر»، «الشرشور»، «أبو حربة»، «آر.بي.جي»، «دشمة»، «غراد» «أبو القنابل».

في الغالب، كان اللقب يتم اختياره وإطلاقه من قبل الآخر، أو تبعاً لمفارقة تحصل مع حامل اللقب، أو لطبيعته، النفسية أو الجسدية، أثناء التمارين أو المعارك. هكذا يكون لقب «الحنون» للعاطفي، و«أبو عجقة» للعصبي، و«فروج» للقصير، و«كتيبة» للبدين، و«أبو فرنكين» للبخيل... وتكر سلسلة الألقاب: «الزحلوط»، «الحنش»، «السريع»، «الدعبول»، «أبو سردة»، «المزنطر»، «الزمكّ».

ثمة مصادر أخرى لاشتقاق الألقاب من الكواكب والحيوانات والشجر والفاكهة والغرام والانتقام: «الوطواط»، «سبع الليل»، «أبو نجمة»، «أبو موزة»، «أبو تفاحة ونص»، «الصوص»، «المريخ»، «أبو الكواكب»، «أبو ريشة»، «أبو الهوى»، «أبو ليلى»، «أبو الحب»، «روميو».

وكثيراً، ما نقرأ ألقاباً لمقاتلين تدل على جهل أصحابها بفكر الحزب أو التنظيم اللذين ينتمون إليهما، فيختار «الشيوعي» لقب «هتلر»، ويختار المقاتل اليميني لقب «كاسترو» أو «غيفارا»، و«الاشتراكي»، يصبح «الدوتشي موسوليني» و«فرانكو»، ومنهم من اختار لقبه من دول معادية له ولعقيدته: «أبو علي الأميركاني» أو «الإسرائيلي»، «الألماني»، «اليهودي».

لن ننسى طبعاً كيف يتم «تجريد» الزعيم من اسمه، ليتغلب اللقب الذي يطلقه المناصرون فيصبح وليد جنبلاط «الرئيس»، ونبيه بري

«الأستاذ»، وميشال عون «الجنرال»، وسمير جعجع «الحكيم»، وأبو عمار «الختيار». وذلك طبعاً تسهيلاً لتداول أسماء الزعماء والشخصيات الذين باتوا كثراً في بلدنا.

(«السفير ـ سفير الناس» ـ ٢٤/١١/ ١٩٩٥)

- ٦ -

سوق الحرامية

يندر أن تخلو عاصمة عربية من سوق شعبي في هواء طلق لنهار عطلة الأسبوع. ففي بيروت، مثلاً، يستضيف شارع الحمراء، صباح كل نهار أحد، ما بين سينما «البيكاديللي» ومطعم «بربر» سوقاً شعبياً بين مواقف السيارات، وأرصفة المشاة، حيث تصطف السيارات كمحلات جوالة، وينادي أصحابها على بضاعتهم المتنوعة من: «عجمي يا سجاد»... إلى «بلدي يا زيتون» فتمتزج الأصوات مشكلة كورساً غنائياً متنافراً.

ترى في جولتك رجلاً يقف عند زاوية فتحسب أنه يبيع أغراض بيته، حيث أدوات الغسيل قرب التلفزيون الذي يجاور عربة طفل. مقتنيات غريبة عجيبة ومتنوعة، في خليط غرائبي من الأدوات والأشياء: مكواة كهربائية، مجلات قديمة، مصاصات للأطفال، فستان نسائي مزركش يرفرف على مسمار دقه صاحبنا في حائط سينما «البيكاديللي» وعندما يعرف أننا لسنا من الزبائن، وإنما نحاول إشراكه في حوار صحافي، يرفض الكلام رفضاً قاطعاً.

الباعة في السوق الشعبي، يجلبون بضاعتهم من مصادر متنوعة: يشترونها مستعملة من أصحابها الذين يقررون بيع أثاث منازلهم بأسعار بخسة بداعي السفر. ومن أكوام النفايات في مكب النورماندي يعاد توضيب الأدوات البالية والمهترئة لتباع في السوق الشعبي. وهناك مصدر آخر، هو اللصوص الذين يسطون على المنازل ويسرقون ما تصل إليه أيديهم بسرعة، فضلاً عن سرقة ثياب مغسولة منشورة على الشرفات.

«قربوا يا فقراء .. بيعوا واشتروا» هكذا يصرخ الرجل الخمسيني، بلحيته الكثة وثيابه البالية عارضاً سترة جلدية للبيع، حاملاً في اليد الأخرى سكاكين مطبخ، ثم يتجول منادياً على العابرين. والناس أجناس أجناس في السوق، و«من حضر السوق باع واشترى».

ثمة خليط كثيف من الهنود والباكستانيين والفيليبينيين، مع جملة من الأكراد والبدو. ترى ذلك الهندي من السيخ يجادل بائع ساعات كردياً حول ساعة يابانية حسب التوقيت اللبناني. السيرلانكيات في عجلة من أمرهن، يفتشن عن تنانير ملونة. والباعة يطاردونهن بآلات تسجيل رخيصة. وتختلط رائحة الناس في زحمتهم مع رائحة اللحم المشوي ورائحة البهارات الحادة، المندلعة من بسطات الشواء المنتشرة في أرجاء السوق الذي وفّر عملاً نشطاً وحركة وحيوية لباعة الجلاب والكعك والقهوة... ولكن ما يلفتك أن أحدهم يحمل لافتة حول رقبته تشير إلى أنه «يؤمن فيزا إلى ألمانيا وهولندا والسويد» بأسعار بخسة مع ضمانات أكيدة. ولكن الواضح من حاله أنه سمسار تأشيرات مزورة، ويفتش عن طريدة ساذجة في هذا السوق.

تشق طريقك بصعوبة وسط هذا الزحام البشري الذي يحتشد في

كل نهار أحد في «سوق الحرامية» هذا. وقد سمي كذلك للشك في أن معظم بضائعه مسروق. وقد كان هذا السوق في البداية مكاناً لبائعي السبحات، لكنه تحول منذ سنتين إلى ما نشهده الآن بسبب حالة الفقر والفوضى التي تعم البلاد.

هناك من يحضر إلى السوق لإشباع هوايته كالاهتمام بالطوابع وجمع العملات النادرة. والسوق يؤمن ذلك من خلال زاوية مخصصة لهواة هذا النوع. وزاوية أخرى لبائعي السبحات والعطور العربية الأصيلة، وزاوية ثالثة مخصصة للكتب والمجلات القديمة... فالسوق بهذا المعنى يلبي حاجات البحث عن أشياء مفقودة لاقتنائها.

تبدو المفارقات مضحكة في السوق من خلال العرض الفوضوي: من تلفزيونات ولوحات ومولدات وعملات معدنية وخلاطة بيض وحنفيات وتماثيل ومكانس وملاعق... وعندما سألنا أحد الزبائن عن أسباب ارتياده السوق أجاب: «لا أخفيك، لقد نهبوا من منزلي بعض الأغراض الثمينة، وأشاروا إليّ أن آتي إلى هنا، وها أنذا أبحث الآن عن بعضها لأشتريه وقد وجدت بعضها واشتريته بأسعار بخسة». ويلجأ أصحاب هذه البسطات إلى تأمين مسروقاتهم من أماكن وبيوت مهجورة كمنطقة الأسواق التجارية حيث ينزعون المراحيض أو الحنفيات وبقايا التمديدات الكهربائية... وإمكانية البيع متوافرة وهناك طلب على كل شيء عتيق بهدف التوفير.

«خمسون دولاراً للفيديو، والفيديو شغال وبالألوان»، بهذه الكلمات يقنع البائع العابر الذي يهم بتفحص الفيديو وتقليبه. لكن العابر يشك بالفيديو ثم يعيده إلى صاحبه الذي يلحق بزبونه مرة

أخرى ويبدأ اللغو.

أحدهم علق الثياب على حبل غسيل طويل: «البيع ممتاز، ما دام كل شيء بخس الثمن». أما الذين يبيعون أغراضهم فهم عدة أصناف. هناك أولاد يسرقون من بيوت أهلهم وجيرانهم لا فرق، أشياء خف حملها ويبيعونها في السوق، لقاء سندويش شاورما وبطاقة سينما وعلبة سجائر. وهناك طبعاً المحتاجون الذين يبيعون أغراض بيوتهم بداعي السفر أو المرض، أو الإدمان، «أنظر إلى تلك المرأة، لقد كانت من أثرياء البلد قبل الحرب، وها هي تبيع التحف والنحاسيات والسجاد، وكل ذلك من أجل حقنة هيروين... والله يستر على العالم... والدنيا دولاب... هذا هو منطق السوق»، قال أحد الباعة. تخشى أن تجد رأساً أو يداً معروضين مع الأحذية والبراغي. ففي هذه الفوضى يمكن أن تجد أي شيء لأن الشارع تحول متحفاً لمدينة تعرض مأساتها في الهواء الطلق. «ويلكزك» أحدهم بحذاء مروس فتلتفت فيقول لك: «صباط طلياني بخمسة آلاف ليرة»، فتشكره ليتناوله شاب آخر، يقيس الحذاء، ثم يحمله تحت إبطه، ويبتسم للحياة وللسوق الشعبي.

(جريدة «الحياة» ـ ١٢ /٢/ ١٩٩١)

- ٧ -

المتسولون في بيروت

اقتطع المتسولون في بيروت شارع الحمراء حيزاً لهم، وقسموا هذه المنطقة في ما بينهم إلى زوايا صغيرة، حيث العشرات يمارسون يومياً عملهم الرئيسي في الاستجداء والاسترحام على الأحياء والموتى... بأساليب متنوعة. ها هم يتوزعون على طول الشارع التجاري الرئيسي: منهم الجوالون، ومنهم المتمركزون في الزوايا، إلى الذين يفترشون الأرصفة ويقفلونها بعكازات وصناديق كرتون... ويحملون الأطفال الرضع لإثارة الشفقة.

«الشحادة فن» يقول نادل مقهى الويمبي... فتلك المرأة التي تقف أمام دار سينما البيكاديللي من سنوات توقفك بتهذيب: «عفوا... لو سمحت ابني مريض في الجامعة الأميركية...» وتخفض عينيها على حزن كأنها تخجل من التسول...

وتتنوع أساليب التسول، والهدف واحد. فمنهم من يضع إعلاناً قربه وينام منبطحاً وسط الرصيف كاشفاً عن قدمه المحروقة. وآخر يوقفك كل يوم طالباً «أجرة طريق إلى الضاحية». وامرأة بثيابها

الرثة ترمي بطفلها تحت أقدام المارة وتنادي: «ارحموا هذا الطفل الجائع!» وماري تحدد السعر: «مئة ليرة... يا شب يا حلو»... ثم تغني لك بعد الدفع أغنية: «أيام اللولو» وترقص للمارة. ولا ننسى ذلك الطفل الذي يتعلق بك باحثاً عن ربطة خبز منذ سنوات.

وعلى الرصيف رجل أعمى تجره ابنته الصغيرة: «ساعدوا هذا الضرير»، ويقول لك بائع العطور إن هذا الرجل مدمن على الهيروين وأنه ليس بأعمى.

لم يفصح أحد المتسولين عن المحصول اليومي، ولكن يقال إنهم يعيشون فعلاً من هذه المهنة، وأنها مورد رزق كبير. ومن المفارقات أن بعض المعوقين أخرجهم أهلهم من المصحات للاستفادة من عاهاتهم فيضعونهم على عرباتهم ويجوبون بهم الشوارع ليكسبوا مبالغ إضافية في تسولهم. وتقول مديرة إحدى المؤسسات الاجتماعية، إن بعض أهالي الأيتام الصغار يخرجون أطفالهم من الميتم، ويرمونهم في الشارع ليتسولوا.

ومن «مبتكرات» التسول هنالك رجل يدور على المقاهي تبدو عليه مظاهر غنى سابق يحمل رسالة استرحام موقعة وممهورة من مختار المحلة، تقول إن الرجل مصاب بخلل عقلي، و«ارحموا عزيز قوم ذل». ويتكلم الرجل الفرنسية والإنكليزية، ويلعن الدولة والأحزاب وإسرائيل... وما عليك إلاّ أن تدفع لينهي محاضرته في الأخلاق والغلاء. والنوريات عند متفرع من الحمرا يوقفن المارة، يمسكن بثيابهم: «الله يخلي شبابك... إلهي يحمي صباك». وإذا استنكرت لا تستغرب شتيمة تلحقك «يا بخيل». وتصر إحداهن على مطاردة امرأة يبدو عليها الثراء، حتى تدفع.

أمام مكتبة أنطوان تفترش ماري الأرض وتسد المدخل بجثتها

الضخمة ويحاول صاحب المكتبة بشتى الوسائل زحزحتها فلا تنهض إلاّ بألفي ليرة. «إنهم يقطعون أرزاقنا» يقول صاحب أحد محلات الألبسة. لذلك لجأ بعضهم إلى اختيار أحد المتسولين الذين تبدو عليهم الأناقة نوعاً ما لمنحه زاوية المحل ليتحول المتسول جزءاً من الديكور العام.

أخبارهم

لا تنتهي أسباب التسول، فلكل متسول مبرراته. يقول أبو أحمد: «فقدت قدمي خلال الاجتياح الإسرائيلي وكذلك زوجتي وأولادي. وطردت من عملي. فلم يبق لديَّ في العالم سوى الرصيف. ولا أملك من الحياة سوى هذه الكرتونة... والدعاء للناس...».

المتسولون في شارع الحمرا جزء من سينوغرافيا مدينة أنهكها الفقر والحرب.

إنهم خليط عجيب متنوع من فسيفساء داخلية. فالكل يتسول، ولكن كل على طريقته... وحين تغرب الشمس ينتقل المتسولون مساء إلى كورنيش الروشة، حاملين معهم كراتينهم وأيديهم الممدودة وشتائمهم. إنهم يشكلون عالماً خاصاً بهم.. وإذا تعارك المتسولون على مكان أو على زبون، يحسم الخلاف دائماً رجل مجهول يتمشى على طول الرصيف.

(جريدة «الحياة» ـ ٢٩/ ١١/ ١٩٩٠)

الحياة على الرصيف

حياة أخرى، تلك التي عشتها مثل أي مواطن لبناني: الهروب من بيت العائلة إلى مركز الحزب، التشرد من خندق إلى آخر، واللجوء إلى أوروبا، وإلى برلين تحديداً، حيث خبرت الإقامة في الحدائق العامة، والنوم في محطات «المترو»، وأكشاك الهاتف..

نهارات وليال من الصعلكة والعيش مع غرباء فيتناميين وأنغوليين، وعرب، لاكتشاف الجانب الآخر من الحياة.

كنت متشرداً لا بأس به، وقد رافقتني دروس هذه التجربة في أيامي التالية، وما زلت أحتفظ ببعض من ذكريات تلك المرحلة من «تشردي الألماني»؛ التشتت في الأفكار، عادة حمل الحقيبة على الكتف، وكرهي للجدران الأربعة في البيت وأمكنة العمل معاً.

المتشرد ليس دائماً ذلك السكير التائه أو المجنون، إنه إنسان يعيش حالة عزلة عن المجتمع، وإن وصل بعضهم إلى حالة انتحار بطيء.

والمتشرد يحاول الوصول إلى الموت بسرعة عبر اللذة العابرة، حيث الهروب من المسؤوليات والالتزامات العائلية والأيديولوجيا وحياة

الاستهلاك والرتابة. وإن حاول بعض الشعراء تقليد حياة الشاعر الفرنسي رامبو أو الشعراء الصعاليك لدى العرب.

يكتنف الغموض حياة المتشرد. فلكل واحد أسبابه في اختيار الرصيف مكاناً للعيش والإقامة المتواصلة والانقطاع عن العالم وما يدور حوله. منهم مَن يُطرد ويُنبذ فيُدفع إلى التشرد، ومنهم من يختار عن وعي حياة «الصعلكة»، لكن معظم النهايات في كل الحالات تكون نهايات مأسوية.

جثة مجهولة الهوية

لفت انتباهي إعلان صادر في صحيفة يومية عن إدارة إحدى المستشفيات في بيروت يفيد بأن «ثمة جثة رجل متشرد في العقد الخامس، مجهول الهوية والإقامة ولم يتعرف عليه أحد منذ خمسة عشر يوماً، واضطرت إدارة المستشفى إلى نقله من البراد ودفنه في مقبرة الشهداء».

هكذا دفن الرجل المتشرد من دون أن يقام له طقس ديني معين لكونه مجهول الطائفة، ولم توضع أية شاهدة على قبره لتعرّف عن هويته.

يختلف المتشرد اللبناني عن المتشرد في البلدان الأوروبية «الكلوشار»، فالأخير يتمتع إلى حد ما، ببعض الرعاية لجهة قيام بعض الجمعيات الخيرية بتخصيص مطاعم مجانية له ولأمثاله، أو توزع عليهم وجبات طعام معينة في أماكن تشردهم، كما تقوم البلديات بدفعهم إلى الاستحمام بخراطيم المياه التابعة لسيارات الإطفاء، وتخضعهم غالباً لفحوصات طبية عاجلة، وتوزع عليهم بعض الأغطية.

أما المتشرد اللبناني الذي قرر الانسحاب إلى حياة «بوهيمية» فهو

معرّض لمخاطر جسيمة من استنكار «المحيط»، وغياب الحد الأدنى من الرعاية إضافة إلى التعرض للموت المباشر على أيدي رعاع الطرق!!

المتشردون في لبنان يركنون في زوايا صغيرة أو مواقف سيارات، ويضطر معظمهم إلى التجوال طوال النهار، أو يتجمعون في بؤر صغيرة منبوذة كمنطقة «الأسواق التجارية» يُعشّشون وسط ما تبقى من خراب، منكفئين بقصد منهم، أو مجبرين على التشرد والانسحاب من الحياة الاجتماعية.

ثرية سابقة

في شارع عبد العزيز القريب من الجامعة الأميركية، ثمة امرأة متشردة أراقبها منذ ست سنوات، وهي في العقد الرابع، نحيلة القوام، عصبية المزاج ويعرفها معظم سكان المحلة، من معطف الفراء الذي يدل على غنى وجاه غابرين، وشعرها المنفوش بشراسة، وتجوالها في الشوارع برفقة ابنتها الصغيرة، متأبطة هرتها السوداء.

حول هذه المرأة تدور الشائعات، فيعتبرها البعض عاهرة سابقة، وأن ابنتها من رجل مجهول، وآخر يؤكد أنها كانت متزوجة من رجل ثري، طردها بعد إدمانها المخدرات، مع ابنتها التي هي من رجل آخر، ويتخيّل آخر أنها عميلة لإحدى الدول الأجنبية... ولما حاولت مرة أن اقترب منها لسؤالها عن هويتها وحياتها انهالت عليّ بالشتائم وفي يدها سكين هددتني بها.

المرأة الشقراء وابنتها تصادفهما يومياً في فترات مختلفة من النهار والليل حيث تفترشان قطعاً من الكرتون، وأوراق الصحف، أمام مدخل «غاليري» للمفروشات بين زاويتين، وتلتحفان بأكياس

«النايلون»، وتتكوّمان على بعضهما بحذر واضح،تلك المرأة المتشردة لا يبدو عليها أنها تتسول، فهي ترفض أي طعام يقدم إليها، أما الابنة فكان يبدو عليها أنها سعيدة ومطمئنة إلى جوار أمها، ولا تشعر بالخجل. أذكر في إحدى الليالي أنني رأيت الأم تبكي في حضن ابنتها الصغيرة وهي تمشط لها شعرها المنفوش!!

في شارع الحمراء منذ سنوات كان أحد المتشردين يجلس القرفصاء وسط الرصيف الرئيسي، تحيط به زجاجات «البيبسي كولا» التي «كرعها» واحدة تلو الأخرى، فيما هو يفلفش صفحات الجريدة بالمقلوب، أحدهم قال: إنه كان محامياً لامعاً لكنه أصيب بمس من الجنون لسعة علمه!!

البلد كله على الرصيف

ثمة متشرد آخر يدعى «أبو علي» اختار إقامته قرب صخرة «الروشة» مع كلابه العشرة التي يوفر لها العظام من اللحامين.

هذا المتشرد نموذجي يبدأ سكرته منذ الصباح الباكر، وهو اختار زاوية مطلة على البحر لأنه يأنس إلى الموج والشمس عند الغروب.

- لماذا اخترت التشرد؟

- «الحق على «النسوان»... النساء هنّ المسؤولات عن الحرب الأهلية... كان على المسلحين أن يقضوا على كل نساء البلد وخصوصاً الزوجات.

- لماذا النساء يا أبو علي؟

- «لأنهم يحبون «المصاري»... وللحصول على المال لا بد من حرب... إنها الزوجة التي تسمم البيت والزوج والبلد».

يؤكد أبو علي أنه كان أهم «قبضاي» في ساحة البرج قبل

الحرب وهو ملك الضرب بـ «الكندرجية» «الكندرجية» عبارة عن موسى كبيرة يستعملها مصلّح الأحذية. يقول: «لقد انتصرت على «قبضاي» برج حمود الأرمني زورو وشطبته من رأسه حتى قدميه...».

- ● ولماذا اخترت هذه الحياة؟
- ـ «إنها أجمل من البيت، شو الحياة! أكل شرب ونوم وخلص... البلد كله عايش عالرصيف... مش بس أنا...».

ينام أبو علي في الشتاء في إحدى ورش البناء.

- ● وإذا طردوك منها ماذا تفعل؟
- ـ «أعمل مشكل مع أحدهم وأذهب إلى السجن، أرتاح ليلة.. ليلتين حتى يتوقف المطر».

أما كيف يحصّل ماله، فذلك سر من أسرار عيشه.

الجاسوس والحكواتي

تبدو كلمة جاسوس مرافقة لكل متشرد غامض، ولذلك أسباب في ذاكرة الناس، أحد المتشردين يدعى «أبو الريش» كان يعيش حياة «بوهيمية» في بيروت، سكّيراً ورساماً على الأرصفة، ويتميز بمظهره الغريب وقبعته المشكوكة بالريش وثيابه الملونة. عندما اجتاح الإسرائيليون بيروت تبين أنه ضابط في المخابرات الإسرائيلية.

متشرد في العقد الثالث من عمره يدعى «تريللو» لم يعرفنا على أصله ومعنى لقبه، ولكن صاحبنا «تريللو» يروي الطرائف للناس مقابل الحصول على نقود، ولا تفارقه «بطحة العرق»، ولكنه يخفيها خلال أوقات «العمل». يقف نهار الجمعة، أمام باب أحد

المساجد في منطقة «السادات»، ونهار الأحد ينتقل إلى كنيسة «الكبوشية». كل ثروته من التسول في هذين اليومين المقدسين يبذّرها في ابتياع المشروبات الروحية المختلفة.

ثمة متشردون من جنسيات مختلفة قد أحبطتهم بيروت، فترى ذلك «الأفريقي» وهو واحد من اللاجئين السياسيين من جنوب السودان، يحدث نفسه طوال الوقت ويراشق الأولاد الذين يلاحقونه بزجاجات البيرة.

وذلك المتشرد المصري «القوّاد» سابقاً يقال: إنه بائع لظروف «الكوكايين» يدندن أغاني أم كلثوم على رصيف قرب أحد الخمارات، لأن حبيبته التي كانت تدر عليه عطفاً ومالاً، هجرته إلى «أمبرازاريو» آخر.

وتلك السيرلانكية التائهة التي تتسكع في الطرقات زائغة العينين تبدو عليها سيماء الانفصام، فهي تضحك كل الوقت، وتحصل على قطعة همبرغر مجاناً، ثم تركن إلى أحد الأدراج لتنام وتحلم بسيرلانكا البعيدة.

هناك شعوب تعيش حالة التشرد على رصيف الكرة الأرضية، تنتقل من زاوية إلى أخرى، تبحث عن ملاذ لها، عن إقامة مؤقتة. شعوب مطرودة من أرضها، لعسف من محتل أجنبي، أو لقمع من ديكتاتور محلي.

مشردون بالجملة كالشعبين الفلسطيني والأرمني، أو بالمفرق كاللاجئين والمنفيين العراقيين في كافة أصقاع الأرض الذين انضموا إلى إخوتهم من المشردين جماعات جماعات.

صعاليك معاصرون

يروي «سمير العراقي» حكاية تشرده من بغداد إلى عمان، فدمشق

وصولاً إلى بيروت، التي «عشت فيها أحلى لحظات عمري وإن نمت في سيارات الأصدقاء ومداخل الأبنية وعلى سطوح البنايات أو قرب صخرة «الروشة» أتغطى بالجرائد، أتوسد الكتب والأحذية.

ومرات عديدة تعرضت لاعتقال وتحقيق واستجواب بسبب فقداني أوراقي الثبوتية. فلا مكان لي سوى الرصيف، لقد اعتدت هذه الحياة، سلوكاً وشعراً».

يحاول سمير ربط التشرد بالصعلكة: «نحن في عصر لا يقبل الفرسان الصعاليك أمثال «طرفة» و«عروة بن الورد».. المتشردون لديهم من الفروسية ما يشفع لهم. أذكر أننا شكلنا فصيلة من المقاتلين خلال الاجتياح مؤلفة من «آدم حاتم» و«غيلان» و«أبو روزا» و«علي شنشيل» و«جليل حيدر». هؤلاء العراقيون المشردون والعبثيون بنظر الآخرين هم الذين دافعوا بقسوة عند مداخل بيروت من الدامور حتى «بئر حسن».

التشرد له حاناته وأرصفته وأدبياته ومجلاته، وأبرزها كانت مجلة «رصيف ٨١» التي أسسها الشاعر الفلسطيني علي فودة في منطقة «الفاكهاني»، وكتب بيانها المتشرد الآخر «آدم حاتم»، وهما انتهيا إلى موت مفجع.

علي فودة كان يحلم دائماً بسيارة للتسكع وحصل عليها أثناء الاجتياح، يقول «سمير العراقي»: علّمته «القيادة» في منطقة «الرملة البيضاء» أثناء الحصار، وحينها كان يصرخ: «إلى الجحيم... نحن أبناء الرصيف»... ويقود بجنون كطفل متمسك بلعبته.

عندما قتل بقذيفة من بارجة في البحر، كنا خمسة أشخاص في تشييعه وبيننا آدم حاتم، أخذنا جثته ودفناها في مقبرة الشهداء، لأن علي فودة المتشرد لم يكن له أهل. ألقينا على قبره بضع قصائد،

وغادرنا، ولم نضع على قبره شاهداً، ضاع قبره. ولا أعرف أين هو الآن. يومها، قلت لآدم «عقبالك»!!

وهذا ما جرى لآدم حاتم الذي تشرده كغيره من بغداد إلى بيروت ومنها إلى تونس فدمشق فبيروت. يبحث عن إمكانية اللجوء إلى الأمم المتحدة ليختار له بلداً آخر. آدم المتشرد كان ينام في المكاتب.. ولا يأكل.. بل يسكر.. وفي إحدى الليالي من خريف ١٩٩٤ سقط «سكراناً» على أحد الأدراج فمات في مستشفى «الهمشري» في مخيم عين الحلوة.

يقول سمير: أخذناه لندفنه وكنا لا نملك فلساً من تكاليف الدفن، فتبرع الصليب الأحمر الدولي بالكفن، واستعرنا سيارة «مرسيدس» من أحدهم ووضعنا تابوته في الصندوق، ورفض أحد الشيوخ الصلاة عليه لأنه «كافر وسكير»!!

ولكن شيخاً آخر أقام الصلاة على هذا الشاعر العراقي فـ «الميت تنتهي ذنوبه».

دفناه في مقبرة «درب السيم».. لم نضع رخاماً وشاهداً. ولم يتبرع أحد لنا لنكتب اسمه على الضريح، مع أن هذا ليس اسمه الحقيقي. في تلك المقبرة هناك مئات القبور لمجهولين مشردين من السودان والعراق وباكستان وبنغلادش.. وحتى لأوروبيين من ذوي العيون الزرقاء الذين تغرّبوا وضاعت قبورهم وجوازات سفرهم وأسماؤهم.

(«السفير ـ سفير الناس» ٢/١١/ ١٩٩٥)

- ٩ -

المسلحون والكلاب

تكررت المناشدات التي يطلقها سكان منطقة رأس بيروت عبر وسائل الإعلام المرئية والمقروءة إلى المسؤولين في بلدية بيروت وقوى الأمن الداخلي لضرورة إيجاد حل نهائي لقضية الكلاب الشاردة التي تعتدي على المواطنين خلال فترات الصباح والليل. والخطورة تكمن في احتمال كون هذه الكلاب مصابة بداء الكلب.

ومع بدء الخطة الأمنية لبيروت الكبرى، انسحب المسلحون وشردت الكلاب من مستقراتها الآمنة في مناطق خطوط التماس والخرائب المهجورة في الأسواق التجارية حيث كانت تقطن وتتوالد وتحيا على فتات ما يقدمه لها المسلحون.

ومع بدء الحركة في إزالة خطوط التماس، بدأت هذه الكلاب تفتش عن موطىء لها في المدينة. فأخذت تتجمع على المزابل الضخمة نهاراً لتنطلق في الليل في تظاهرات مرعبة ويدوي نباحها في أرجاء المدينة بعدما هدأت المولدات الكهربائية.

وتتوزع تجمعات الكلاب على محطات متفرقة من المدينة: مكب

نفايات النورماندي، وهو أكبر تجمع لها، ثم على جسر أبي حيدر حيث ترتفع نفايات بائعي الخضر بالجملة. ثم في سوق تجار اللحم بالجملة في المدينة الرياضية.

في الأحياء

وحيث ترتفع المزابل في أحياء المدينة توجد أيضاً مجموعات صغيرة من هذه الكلاب. بينما تتخبط بلدية بيروت في منازعاتها من الموازنة إلى إضرابات عمالها غير آبهة بمسؤوليتها عن معالجة القضية التي تدخل في صلب اهتماماتها.

وبلغ عدد المصابين بعضّات من هذه الكلاب الشاردة خلال أيام معدودة، حسب التقارير، أكثر من عشرة في منطقة رأس بيروت، ومن ضمنهم بعض الفتية الصغار. لذلك تحولت الكلاب الشاردة إلى هم يومي للأهالي الذين اضطروا إلى اصطحاب أطفالهم إلى المدارس كل صباح.

أما العائدون ليلاً إلى منازلهم فيلابسهم خوف دائم من هجمات الكلابة الضارية. ويحاول الآن بعض سكان الأحياء تنظيم حملة لمطاردة الكلاب الشاردة تارة بالحجارة وتارة بالعصي، فهم لا يستطيعون قنصها لأن الخطة الأمنية تمنع ظهور المسلحين.

(جريدة «الحياة» ـ ٣/٣/ ١٩٩١)

- ١٠ -

قطط للبيع في جنوب لبنان

القطط التي يقول عنها المثل الشعبي أنها «بسبعة أرواح»، هي من الولائم الفاخرة للقوات الغانية العاملة ضمن قوات حفظ السلام الدولية في جنوب لبنان. لذا أصبحت تجارتها شائعة في الجنوب، حيث راحت تختفي تدريجياً في البعض من القرى.

انقراض القطط

يروي رفيق نصر الله من قرية حولا الواقعة تحت الاحتلال الإسرائيلي أن موسى نوار صار من كبار تجار القطط منذ أن حطت القوات الغانية رحالها على أطراف «وادي السلوقي». بسليقته وخبرته التجارية اكتشف موسى أن القطط هي من المآكل الشهية المفضلة للغانيين، شريطة أن تكون حية ويلقى القبض عليها قبل شهر شباط/ فبراير، أي قبل أن تصاب بالوهن الجنسي. وبسرعة صار موسى «قناص قطط» ماهراً، في قريته حولا أولاً، وفي الكثير من قرى الشريط الحدودي تالياً: «يمسك القطة من ذيلها ويضعها

في كيس ثم ينحدر بها إلى حيث موقع الغانيين. بدأت المقايضة أولاً بحصول موسى على حذاء عسكري مقابل القطة الواحدة. ثم تطور الأمر بأن راح موسى يعرض الأحذية العسكرية للبيع في ساحة البلدة».

تُشوى حية

غالبية سكان حولا ينتعلون اليوم أحذية عسكرية. وبسبب ذلك شارفت القطط على الانقراض من البلدة، مما دفع بموسى إلى الانتقال في مطاردته القطط إلى بلدات مجاورة: ميس الجبل، مركبا، عيترون... حتى إذا ما فقدت قطة من بيت في تلك القرى، قال الناس: «ابحثوا عنها عند موسى نوار».

أبو أحمد تمام، من بلدة الناقورة، حيث المقر الأكبر للقوات الدولية في الجنوب، يقول إن سعر القطة الواحدة يتراوح بين دولارين وثلاثة دولارات. وعن طريقة طهي الغانيين للقطط، يقول أبو أحمد إن الجنود يحفرون حفرة في الأرض ويملأونها بالجمر ثم يربطون القطة ويضعونها حية فوق الجمر الملتهب في الحفرة ويطمرونها بالتراب إلى أن تشوى كالبطاطا.

طري ولذيذ

أحد الضباط الغانيين العاملين في «وادي جيلو» يستغرب الاستهجان من أكل القطط ويشرح لنا أن لحم القطط طري ولذيذ، وأن أرواحها السبعة يمكن أن تطيل العمر. وعن كيفية طهيها يقول: «تضرب القطة على رأسها حتى يغمى عليها ثم توضع حية في قدر به ماء يغلي حتى يزول الوبر عنها. بعد ذلك تدق القطة حتى تنهرس وتضاف إليها التوابل والأملاح وتقدم كوليمة خاصة». ويستدرك الضابط أن قراراً صدر عن قيادة القوات

الدولية يمنع شراء القطط، بسبب احتجاجات من الأهالي ورجال الدين في قرى الجنوب.

وعلى الرغم من صدور قرار المنع لا تزال تجارة القطط شائعة ومستمرة. حتى أن أحدهم أطلق طرفة تجارية قائلاً: إنه سينشىء مزرعة للقطط في قريته بالجنوب.

(جريدة «الحياة» ـ ٥/ ٢/ ١٩٨٩)

- ١١ -

الإذاعات الخاصة للشائعات

يعود تاريخ أول جهاز راديو عرفه لبنان إلى العام ١٩٢٨، وكان هذا الجهاز يسمع بواسطة سماعة خاصة توضع على الأذن مباشرة حيث لم تكن توجد مكبرات للصوت. أما أول مكبر للصوت سمع في بيروت فكان في جادة الإفرنسيين. وتعتبر محلات «بولس إخوان» أول محلات بيع للراديو وأقدمها، أيام كان ثمن الجهاز الواحد لا يقل عن مائتي ليرة ذهبية وثمن الهوائي مع تركيبه ٢٥ ليرة ذهبية. وكان يركب الهوائي بواسطة البوصلة، فيوجه إلى محطات البلدان الأوروبية. وفي العام ١٩٣٢ عرضت، للمرة الأولى، أجهزة راديو للبيع في بيروت وذلك في محلات «بولس إخوان»، حيث كانت الجماهير تحتشد لسماع الكلام الذي يخرج من الصندوق. وزاد الاقبال على الراديو بعد أن أدخلت عليه تحسينات، لم تتأخر محلات بولس عن مجاراتها، فعمدت إلى إنشاء مصنع لتجميع أدوات الراديو، وكانت تتفنن في إخراجه بأشكال وألوان وأحجام مختلفة.

وكان لإنشاء محطة الإذاعة في القاهرة الأثر الكبير في الاقبال على

اقتناء الأجهزة، بالإضافة إلى أن المحطات الأوروبية، كمحطات برلين ولندن وباريس، أخذت تخصص أوقاتاً تبث فيها بالعربية، وذلك حتى إنشاء إذاعة محلية في بيروت، عرفت بمحطة «راديو الشرق» وذلك في العام ١٩٣٨ أيام الانتداب الفرنسي في لبنان. وبعد ذلك أهدت السلطات الأميركية إلى الدولة اللبنانية محطة إذاعية نقالة بقوة عشرة كيلوواط تحولت معها الإذاعة من «محطة الشرق» إلى الإذاعة اللبنانية الرسمية.

أما الإذاعات الخاصة في لبنان، فترقى بدايتها إلى ١٩٥٨، أيام الفتنة الأهلية، حين أفرزت تلك الحرب عدة إذاعات منها إذاعة «صوت العروبة» الناطقة بلسان «حزب النجادة» برئاسة عدنان الحكيم، وكان مركزها في البسطة. واشتهرت هذه الإذاعة يومئذٍ بأغانيها الكاريكاتورية من نمط «زوج زعلان» إشارة إلى الرئيس كميل شمعون، و«يمّا الدولار عالباب نوّر قناديلو» ـ إشارة إلى الأسطول الأميركي. وكذلك انشئت إذاعة «صوت لبنان» الناطقة بلسان حزب الكتائب وكان مقرها في مركز حزب الكتائب في الأشرفية، وكانت بإشراف جوزيف أبو خليل. لكن بعد انتخاب الرئيس فؤاد شهاب تم اقفال جميع الإذاعات الخاصة، وذلك بحسب المرسوم الاشتراعي الصادر في ١٢ حزيران/ يونيو ١٩٥٩ الذي تنص المادة ١٨٩ منه على حصر حق إنشاء المواصلات السلكية واللاسكية بوزارة البرق والبريد والهاتف وحدها دون سواها، كما نصت على أن إنشاء أي إذاعة خاصة من الجرائم الأساسية التي يعاقب عليها القانون.

سباق الأصوات

بداية الحرب الأهلية العام ١٩٧٥ عادت الإذاعات الخاصة إلى

الظهور من جديد. ففي أواخر تشرين الأول/ أكتوبر بدأ بث إذاعة «صوت لبنان» الكتائبية، بإدارة جوزيف الهاشم، وتمّ تسجيل إذاعة «صوت لبنان» في عداد الإذاعات العالمية (IFRB)، وهو أكبر اتحاد معترف به دولياً... وعلى أثر ذلك بدأت إذاعة «صوت لبنان العربي» في بث برامجها التي بدأتها بمارشات عسكرية تليها عبارة للمذيع «صوت لبنان العربي... صوت العدالة صوت الحق... صوت المساواة». أما أول برامجها فتعليق سياسي ساخر على «حزب الكتائب». وكانت إذاعة «صوت لبنان العربي» بإشراف حركة الناصريين المستقلين (المرابطون) التي كان يرأسها إبراهيم قليلات. وكانت تعرف سابقاً في حرب ١٩٥٨ بـ «إذاعة المقاومة الشعبية»... وتم تسجيل إذاعة «صوت لبنان العربي» كعضو في «اتحاد الإذاعات العربية» التابعة لجامعة الدول العربية.

وفي أيلول/سبتمبر ١٩٧٨ سيطرت القوات اللبنانية على محطة الإرسال التابعة للإذاعة اللبنانية في منطقة عمشيت وأنشأت إذاعة خاصة بها تدعى «إذاعة لبنان الحر» فانخفض بذلك إرسال الإذاعة الرسمية من ١٠٠ كيلوواط إلى ٥٠ كيلوواط. ثم أنشأت الدائرة الإعلامية في «منظمة التحرير الفلسطينية» إذاعة «صوت فلسطين» في منطقة الفاكهاني. أما قوات المردة التابعة للرئيس سليمان فرنجية، وبعد انسحابه من الجبهة اللبنانية عقب أحداث إهدن المعروفة، فأنشأت في أيلول/ سبتمبر ١٩٧٨ إذاعة في زغرتا تعرف «بإذاعة لبنان الحر الموحد». وفي تلك الأثناء بدأت إذاعات فنية خاصة تبث على موجة الأف .أم (F.M) في ظل انهيار الدولة اللبنانية.

وقد جرت، خلال فترة الحرب الطويلة، عدة محاولات إقفال

رسمية للإذاعات كان من أهمها التوصيات الصادرة عن «مؤتمر بيت الدين» لوزراء الخارجية العرب في عهد الرئيس الراحل إلياس سركيس، والتي تضمنت بنداً يوصي بضرورة إقفال الإذاعات الخاصة. ولكن ذلك جوبه بقوة من قبل الميليشيات المحلية التي بلغ بها الأمر إطلاقها النار فوق منطقة جونية على طوافة عسكرية كانت تقل السفير السعودي علي الشاعر والسفير الكويتي محمد البعيجان إثر زيارة لهما للرئيس سليمان فرنجية للبحث في قضية الإذاعات الخاصة. وقد أصيب يومها السفير الكويتي البعيجان بعدة طلقات في ساقه وبطنه. وفي بداية عهد الرئيس أمين الجميل صدر قرار عن مديرية التوجيه في قيادة الجيش بإخضاع الإذاعات الخاصة للرقابة المسبقة. لكن مع حركة ٦ شباط/ فبراير ١٩٨٤ طوي ملف الإذاعات الخاصة إلى غير رجعة. وانطلقت الأصوات الإذاعية وبدأ التسابق لاحتلال موجات الـ «أف. أم» حيث أصبح لكل مدينة لبنانية إذاعتها الخاصة أو إذاعاتها مثل صيدا وطرابلس وزحلة، ولكل حي أو شارع في بيروت إذاعة جديدة وأصبح كل يغني على ليلاه. وبالإضافة إلى ذلك أصبح لبعض القرى إذاعاتها الخاصة كإذاعة جب جنين في البقاع، مثلاً.

حروب الإذاعات

يمكن أن نقسم الإذاعات الخاصة في لبنان إلى ثلاثة أنواع:

أولها الإذاعات التابعة لقوى سياسية من أحزاب وتنظيمات. وتعتمد هذه الإذاعات على الدعاية الموجهة لفكر تنظيمها وسياسة حزبها. وذلك من خلال نشراتها الإخبارية وتعليقاتها السياسية. كما تركز على السبق الإذاعي ببث أخبار ما يجري في المنطقة

الأخرى «المعادية»، لذا ابتكرت كل إذاعة «فلاشها الموسيقي» الذي يسبق بث أخبار الأحداث الطارئة، في حالات القصف والمعارك بين الطرفين. وتبالغ كل إذاعة في صياغة أخبارها، كأن تصور رعب المنطقة الأخرى. فإحدى الإذاعات مثلاً صاغت خبر جريمة قتل وقعت في الجانب الآخر بطريقة فظيعة. وبالإضافة إلى ذلك تركز هذه الإذاعات على بث الشائعات كأنها حقائق، وتسيطر على وجدان المستمع من خلال اللعب على الأوتار المناطقية والطائفية، فيصبح لكل منطقة مصدرها الإعلامي ومرجعها الإخباري. وتعتبر كل إذاعة سياسية بمثابة موقع استراتيجي وخط تماس داخلي، فكم من الانقلابات والانتفاضات والمعارك الداخلية، التي تجري بين أطراف الصف الواحد، يكون مسرحها الأول والأقوى في محيط كل إذاعة. فأشرس المعارك في المنطقة الشرقية دارت في محيط إذاعة «صوت لبنان» بمنطقة الأشرفية. وحول إذاعة «صوت الحق» التابعة لأمين الجميّل في منطقة انطلياس، التي سيطرت عليها القوات اللبنانية، دارت معارك مماثلة. وفي المنطقة الغربية شهد محيط «مسجد جمال عبد الناصر» في كورنيش المزرعة أكثر من معركة شرسة لاحتلال مقر إذاعة «صوت لبنان العربي» التي أقفلت في ١٤ نيسان/ أبريل ١٩٨٥، بعد معارك عنيفة بين «المرابطون» و«الحزب التقدمي الاشتراكي» و«حركة أمل».

مصادر تمويل هذه «الإذاعات السياسية» قوامه المؤسسات الحزبية، وعلاقاتها العربية بالإضافة إلى الإعلانات. أما تقنياتها فمستوردة من الخارج أو من المصادرات لإذاعات أخرى، كمحطة عمشيت الرسمية التي صادرتها القوات اللبنانية، إضافة لمعدات إذاعات حزبية أخرى، كإذاعة «حزب الوطنيين الأحرار» ذات التقنية

اليابانية والتي أشرف على تركيبها خبراء يابانيون، وبلغت تكاليفها ملايين الليرات.

النوع الثاني من الإذاعات الخاصة هي الناطقة بلسان الطوائف والأقليات. وهذه الإذاعات تعتمد على البرامج الروحية والدينية. وتدعو المستمعين إلى الإيمان والتماسك الروحي، وتروي أخبار وقصص الأنبياء والرسل محاولة أن تنطق بلسان أقليات خاصة، كالأرمن والأكراد. ولا تقدم هذه الإذاعات أي نوع من الإعلانات التجارية وتعتمد في تمويلها على مؤسسات تبشيرية غربية. فإذاعة «صوت الأمل» في الشريط الحدودي تشرف عليها «أبرشية المغامرة السماوية» الأميركية... وهي توجه برامجها الدينية للطوائف المسيحية. وقد أنشأت إسرائيل إذاعة أخرى في الشريط الحدودي باسم «صوت الجنوب» وهي موجهة إلى أبناء المنطقة. وحراس الثورة الإيرانية أنشأوا إذاعة لهم في البقاع باسم «صوت الإسلام» لبث برامج دينية وأخبار عن «الثورة الإيرانية». وهنالك أيضاً إذاعة «صوت النور» في الضاحية الجنوبية التي يشرف عليها «حزب الله»، وفي المنطقة الشرقية من بيروت ثمة إذاعات دينية خاصة «كصوت السريان» وتشرف عليها «الرابطة السريانية» وراديو «الحياة المسيحية» في منطقة «منصورية المتن»، وهي تروي أخبار وآلام السيد المسيح.

وهنالك أخيراً إذاعة سياسية دينية تشرف عليها القوات اللبنانية تدعى «صوت الدروز الأحرار» بإشراف الشيخ فريد حمادة. وهذه الإذاعة معارضة للحزب التقدمي الاشتراكي وتبث برامجها من منطقة بيت مري.

ثالث أنواع الإذاعات الخاصة فني ترفيهي وتجاري على موجة

(F.M). ويوجد منها في لبنان حوالى مئة إذاعة، التشويش المتبادل بينها يحكم البث منها، بسبب قصر المسافة بين الواحدة منها والأخرى. يضاف إلى ذلك ضعف قوتها لوجودها في مناطق غير مناسبة أو بين البنايات المتجاورة... وتغلب عليها تسميات أجنبية توحي بالفرح والسعادة مع سذاجة مفرطة في ادعاء التفاؤل بأنها بعيدة عن الأخبار الأمنية والسياسية ونشراتها وأنها خارج زمن الحرب وتعتمد على إنشاء كلامي مسطح في ربط فقرات برامجها. ومن أسماء الإذاعات نلاحظ التالي «هابي، بارادايز، بالاس، كابيتول، دلتا، سينيال، ماجيك، الحب، السحر، باكس...» والافراط في فحيح الأصوات الإذاعية وادعاء الغنج والترفيه هو ما يحكم نبرات أصوات المذيعين والمذيعات، حيث تقدم آخر صرعات الأغاني، ومن هذه الإذاعات يتم تفقيس المطربين والمطربات ومحاورتهم في برامج خاصة قبل أن يتم إطلاقهم في المطاعم والملاهي الليلية.

ومن المعلوم أن هذه الإذاعات تشكل مجالاً واسعاً للنشاط الاقتصادي، سواء بالنسبة إلى حجم الرساميل والتوظيفات المالية المشتغلة فيها أو على صعيد الموظفين والعمال الفنيين والإداريين. وهذا الكم من الإذاعات ينذر بخطر فعلي لأنه يكفي فقط امتلاك جهاز بث واستوديو صغير لإنشاء إذاعة والمباشرة بالبث منها، بتكاليف زهيدة جداً. حتى أن بعض الإذاعات تبث من غرفة في منزل والاستوديو يكون عبارة عن حمام... ويوجد بين أيدي اللبنانيين حوالى ١٥٠ ألف جهاز لاسلكي للبث والالتقاط لكن.. أين تكمن الخطورة التي لا يعيها أحد في حقل الذبذبات الصوتية المنتشرة في فضاء بيروت؟

الإشعاعات... الإشعاعات

يقول يوسف عبد الله، وهو مهندس إذاعي، إن من شروط إنشاء أية إذاعة في العالم، أن يكون جهاز الإرسال في منطقة نائية. وفي حال وجوده داخل المدينة يجب أن يكون جهاز البث ضمن دائرة قطرها ٥٠٠ متر على الأقل، بعيداً عن الأماكن السكنية، لأن تأثير الراديوم يشكل خطراً على الأطفال ما دون ١٢ سنة. فالإشعاعات تفتك بالكريات البيضاء. ويزيد الوضع تعقيداً إنشاء إذاعة على الموجة القصيرة، لأن لها ذبذبات خاصة. وفي إحدى دراسات «منظمة الصحة العالمية» تبين أن ٦٥ ـ ٧٠٪ من العاملين في الحقل الإذاعي ينجبون فتيات وأن ٢٠٪ يصابون بنوع من العقم. والدراسة الإحصائية تنطبق معاييرها أيضاً على السكان المجاورين لمبنى الإذاعة، حين تصبح الأجساد حقلاً خصباً لاستقبال الإشعاعات الصادرة عن البث الإذاعي مما يؤثر على الأعصاب ويتلفها. وكذلك تسبب هذه الذبذبات والموجات الصوتية أنواعاً من الأورام السرطانية... لذلك يأخذ العاملون في أجهزة البث والإرسال إضافة إلى أجورهم أجراً آخر بسبب مخاطر المهنة.. ويفرض عليهم أخذ كوب من الحليب يومياً لتعويض النقص في الهرمونات. وفي لبنان لا أحد يتقيد بهذه الشروط أبداً.

أما في البلدان الأخرى فيرتدي العاملون في أجهزة البث والإرسال أثواباً واقية مضادة للإشعاعات والذبذبات.

هذه الذبذبات لها تأثيرها أيضاً على الحياة العادية.. فهي تتلف أجهزة الهاتف وتشوش المكالمات، بالإضافة إلى تخريب أجهزة الفيديو والتلفزيون وكل ما له علاقة بالكومبيوتر وذلك بسبب الحقل المغناطيسي الذي تقيمه الإذاعات المتواجدة بين البنايات

والبيوت وقريبة من بعضها البعض في شوارع ضيقة. لذا يمكننا أن نعتبر بيروت مدينة موبوءة بالإشعاعات بسبب وجود أكثر من خمسين إذاعة تبث بين بناية وأخرى. وإذا أخذنا بعين الاعتبار الأرباح الطائلة التي تجنيها هذه الإذاعات فإنه خلال كل شهر تبدأ إذاعة جديدة في البث دون أن يمنعها أحد ما دامت تكاليفها لا تتعدى الألفي دولار. وإذا بقيت الأمور السياسية على ما هي عليه فالكارثة الفعلية على الأبواب.

يبقى أن نشير إلى أن حرب الإذاعات قد انتقلت رحاها إلى خارج لبنان، حيث تمّ إنشاء إذاعات خاصة بالأحزاب والتنظيمات اللبنانية في عواصم عدة. فحركة أمل دشنت إذاعة خاصة في ولاية ميتشغن الأميركية، وكذلك الحزب القومي والقوات اللبنانية. وفي العاصمة الفرنسية أنشأت جبهة الخلاص الوطني إذاعة لها في العام ١٩٨٣، وكذلك القوات اللبنانية. وأخيراً هناك إذاعات خاصة في دول إغترابية كالبرازيل نشأت بالتعاون مع الإذاعات الخاصة في لبنان. وركيزة ذلك التعاون وهدفه استيراد وتصدير المطربين والمطربات وأغانيهم، إضافة إلى التقارير السياسية عن الوطن والعباد.

(جريدة «الحياة» ـ ٢٥/ ٢/ ١٩٨٩)

- ١٢ -

المطربون والميليشيا

لم تسلم الأغنية اللبنانية من شظايا الحرب الأهلية، حيث فقس وعشش عشرات المطربين والمطربات في هذا الخراب، وارتفعت اللافتات واليافطات تدعو إلى قضاء أحلى ليالي العمر في ملاهي العاصمة مع أبطال الغناء الجدد: «المطرب الصاعد» و«المطرب المعجزة» و«لهلوبة المسارح» و«سيد الطرب»، تناثرت صورهم إلى جانب ملصقات الموتى والشهداء على جدران مدينة تستيقظ من حروبها على مهل.

ثمة مفاصل يلتقي فيها المطرب الصاعد مع الزعيم السياسي الصاعد في أسلوب ميليشيوي يدخل إيقاع الأغنية اللبنانية، حيث يفرض مطربنا حضوره بالأدوات السياسية نفسها، من مصادرة ألحان قديمة لسيد درويش، مع جهل بالأصول الموسيقية، وادعاء تمثيل الأغنية الجديدة (لبنان الجديد). ويتعاون رجل الميليشيا مع المطرب الصاعد كونه ينتمي إلى طائفة معينة في نوع من الحماية تشبه حماية جمهور طائفته وإذاعة الطائفة ومجلة الطائفة ومطعم الطائفة أيضاً، هكذا تتناثر صور المطرب الصاعد على جدران

منطقته وصولاً إلى تلفزيون الطائفة الواسع، حيث يطل من الشاشة داعياً إلى المحبة والبراءة وإلى الفرح والتسلية والفرفشة... وفي بعض الأحيان يلجأ مطربنا إلى زعيم زاروب ليفرضه على الملهى الفلاني ليقدم وصلته الغنائية...

ومن تجليات «العبقرية الحربية اللبنانية» أن كل مواطن أصبح مطرباً إلى أن يثبت العكس، والمطرب أصبح مؤلفاً وملحناً لأغانيه، وكذلك الملحن يقدم ألحانه بصوته، فيطقطق ويطرطق إيقاعاته مع كاتب أغانٍ يلملم حواضر الكلام، ولا نغفل هنا دور الميكرفون الذهبي الذي يخفي عيوب مطربة تموء بفحيح أنثوي، أو مطرب يتخفى وراء الميكروفون بصوت رجولي مصطنع.

في ظل الفلتان الأمني وغياب الدولة وإذاعتها الرسمية، ساهمت الإذاعات الخاصة (١٠٠ إذاعة أف .أم) في ازدهار وترويج وتسويق عشرات المطربين بحجة الإعلان لقاء مبلغ معين، وتهافت المطربون على النشرات الإعلانية في إذاعات تسمح بتقديم أغانيهم وإجراء مقابلات فنية معهم.

قبل الحرب الأهلية كان إنتاج الأغنية اللبنانية محصوراً في الإذاعة الرسمية الوحيدة في رأي عبد الغني طليس (صحافي ـ مؤلف وملحن) «كان يشرف على هذه الأغنيات أساتذة ومبدعون كالأخوين رحباني، زكي ناصيف، فيلمون وهبي، وليد غلمية، ميشال طراد، وتوفيق الباشا. وكانت الإذاعة الرسمية لا تذيع إلاّ ما تجده صالحاً. وقد مارست سلطة قمعية على بعض الأغنيات والمواهب، حتى جاء استوديو الفن ١٩٧٣، واستوديو الفن ١٩٧٤ وهما برنامجان تلفزيونيان شعبيان، تنطلق منهما الأسماء الجديدة مثل ماجدة الرومي، وليد توفيق...».

ومع انطلاق موجة التلفزيونات الخاصة تكررت البرامج التي تسوّق المطربين الجدد، فمن شاشة المؤسسة اللبنانية للإرسال (القوات اللبنانية) كان سيمون أسمر يشرف على هذه البرامج لإطلاق أسماء جديدة في عالم الغناء ويوقع معهم عقوداً لترويجهم في المطاعم والملاهي التي تنتظرهم، أو تسويقهم إلى دول الاغتراب اللبناني في أوروبا وأفريقيا والخليج، حاملين في جيوبهم «الحب والفرح ولبنان الحبيب»!

يعتبر عبد الغني طليس «أن المطربة لم تعد حنجرة فقط، صارت أناقة وماكياجاً ورقصاً على الخشبة، وصارت أحياناً تنورة قصيرة، وأما الصوت فليس ضرورياً، والمؤلف أصبح (أي كلام) وادعاء الكلام الشعبي، والملحن لم يعد جملة موسيقية لحنية جديدة، فصار يستعمل الإيقاعات النطناطة، قبل الحرب كانت حفلة الطرب للإصغاء، وليس كما الآن للرقص على أي إيقاع».

وترافق مع ظاهرة المطرب التجاري ازدهار استوديوهات التسجيل التي تجني أرباحاً خيالية، فتحولت الإذاعات الخاصة التي هي عبارة عن غرف صغيرة إلى استوديوهات لتسجيل الأغاني المنهمرة، فصناعة الطرب تدر مالاً وفيراً، لتوافر عناصر الاستهلاك المحلي والاغترابي، وبروز أثرياء الحرب الذين هم جمهور السهر الليلي، يسمعون من أقدامهم ويدعون البحث عن الخفة والفرفشة، وهم شريحة اجتماعية جديدة تضخ ذوقها الفني من خلال شبكة الإعلان الضخمة. ولا نغفل هنا دور الصحافة الفنية ومساحاتها الإعلانية الكبيرة لترويج هذا المطرب أو ذاك بثروة مالية معقولة (الغلاف بـ ٣٠٠٠ دولار ـ الصفحة الداخلية ٧٥٠ دولاراً) وهذه المجلات تتصدر قائمة المبيعات في لبنان والعالم العربي.

ثمة ظاهرة غنائية وافدة من مصر تجمع عادي الكلام إلى اللحن السريع، ومن روادها (حسن الأسمر، عمرو دياب، إيهاب توفيق) حيث تحول هؤلاء الشبان إلى أبطال في فضاء الأغنية العربية عموماً. وبما أن المطرب اللبناني الصاعد، يحلم بالوصول إلى أرض الطرب (القاهرة) أخذ يستحضر اللهجة المصرية إلى أغنيته فيلجأ إلى تمصيرها مع شطارة في إعادة التسويق (أغنيات ترانزيت).

يفتخر يوسف عطار (صاحب بسطة كاسيت وسط شارع الحمراء) بأنه يملك شريط كاسيت نادراً يحتوي على خمسين أغنية راقصة سريعة الإيقاع، ويبرر نجاح هذه الأغاني بأن الناس يريدون نسيان الحرب والزعماء السياسيين! ويصر يوسف على أن هذه الأغاني صادقة وتعبر عن الواقع، فأغنية «كتاب حياتي يا عين» لحسن الأسمر أثرت كثيراً بالناس لأنها تحكي قصة حياته المعذبة، فتعاطفوا مع نبرته الحنون! كما وضع مطرب لبناني اسمه روجيه دفوني أغنية اسمها «البنت اليتيمة» يقول يوسف إنها تتحدث عن فتاة يتيمة مات أهلها في الحرب وتبيع الورد والناس يلبطونها (يرفسونها)... أغنية تبكي الصخر!

يوسف العطار (٢٣ سنة) يبيع الأحذية وأشرطة الأغاني، بعدما وضع بطارية سيارة لوصل التيار الكهربائي إلى آلة التسجيل، يؤكد أن معظم زبائنه من طلاب الجامعات، وأن الأغاني ـ الصرعات تحتل المرتبة الأولى في المبيعات... هذه الأغنيات الخفيفة... «تضرب السوق... وتكسر الأرض» (مفردات تدل على نجاح الأغنية) مع أنها لا تدوم أكثر من شهر ثم يبحث الناس عن أغنية أخرى.

يعترف يوسف بأن سوق الأغاني مزدهر بسبب هذا الهدوء الأمني، لكنه يتأفف من بيروت الكبرى لأن قوى الأمن الداخلي ستمنعه من البيع على الرصيف.

(جريدة «الحياة» ٢/ ٢/ ١٩٩١)

- ١٣ -

الإعلان الحربي

قد يكون المصريون القدماء أول من استخدم الكتابة في الإعلان. فأول إعلان مكتوب هو إعلان مصري سجل على قطعة من ورق البردى يرجع تاريخه إلى ألف عام قبل الميلاد، كتبه أمير مصري، يعلن فيه عن مكافأة لمن يرد له عبده الذي هرب منه... وفي التاريخ القديم أيضاً تبين آثار مدن بابل ومصر والإغريق والرومان أن التجار فيها كانوا يستخدمون «المنادين» في الإعلان عن سلعهم... وبرغم أن الإعلان قديم قدم وسائل الإعلام نفسها وأبرزها الصحافة فإن انتشاره على هذا النطاق الواسع حديث نسبياً.

ولا شك أن الإعلان وثيق الصلة بالمجتمع، إذ يمثل علاقة ما بين المعلن وعدد آخر من أفراد المجتمع كمستهلكين. فالإعلان يتأثر بالمجتمع المحيط به، كما يؤثر فيه، ويتلاءم مع ظروف حياة الناس ومثلهم وقيمهم وعاداتهم.

لذلك تأثر الإعلان اللبناني وتفاعل مع تفاصيل الحرب الأهلية الاجتماعية والاقتصادية اللبنانية، ولا نغفل عن كون الإعلان يلعب

دوراً مهماً في بنية أي اقتصاد حر يعتمد على العرض والطلب.

في الفترة الأخيرة من الحرب اشتغلت الشركات الإعلانية على تفاصيل ويوميات من أجواء المعارك لترويج المواد الاستهلاكية، وابتكرت الكثير من المشاهد والمفردات والإيقاعات المستوحاة من مناخات الحرب، ونجحت في إيصال رسالتها الإعلامية. ففي خلال حرب التحرير كانت دعاية سيارة «لادا» التي صممها زيادة الرحباني نموذجاً حيوياً للتفاعل ما بين الإعلان والمجتمع، إذ كانت البلاد تغرق تحت قصف عشوائي وكانت الإذاعات تعلن عن تلك السيارة بمفردات مثل «هجمت، كسحت سبقت، سحبت، قفلت» مع إيقاع موسيقي سريع، يذكر بانطلاق القذيفة وصفيرها وانفجارها.

واستغلت الشركات الإعلانية الملحق الإخباري الإذاعي الذي يشد أذن المستمع بفجائيته مثل «نبأ عاجل... مكتب التحرير في خبر جديد.. شوهدت تجمعات عند محلات... للألبسة»، وكذلك الملحق التلفزيوني لقطع البرامج العادية والإعلان عن شامبو للأطفال، أو مشهد حاجز طيار للإعلان عن بطاريات حيث تقدم الحسناء للمسلح تذكرة هويتها وعليها صورة البطارية بدل الأرزة اللبنانية.

واستقى الإعلان اللبناني في تصميمه وتحريره وإخراجه الفني مناخات الحرب للتأثير في المستهلك اللبناني، فكانت كلمة «تصفية» التي ترافق إعلانات الأوكازيون... تصحبها إشارات توحي بالإعدامات والمجازر، فيصرخ الرجل «تصفية»! فتنطلق الرشاشات والمدافع أو يستحضر المعلن مفردات النار والحرائق فتنطلق أبواق سيارات الإسعاف والاطفاء، والمسألة «حريق أسعار في محلات للسجاد».

يخاطب الإعلان إذاً وجدان المواطن - المستهلك لاستنفاره واستفزازه ولفت انتباهه عبر إشارات الحرب ورموزها وشعاراتها السياسية مثل الإعلان عن مسحوق غسيل «مسحوق شعبي للغسيل والجلي»... فيجيبه آخر... «يا شعبي المسحوق»...

فكأن الإعلان اللبناني الحربي قد حوّل المستهلكين جنوداً أو مقاتلين لا يمكن مخاطبتهم إلاّ بلغتهم واستعارة مناخات الحيطة والحذر والخوف والقتل في مشاهد وإيقاعات كاريكاتورية. ومن آخر الإعلانات، مع خطة بيروت الكبرى، واحد لإحدى شركات المفروشات:

«معلومات عن خطة انتشار في بعض المناطق اللبنانية. انطلاقاً من مقرها العام في الكرنتينا، انتشرت وحدات خاصة فائقة التدريب والتجهيز، تابعة لمجموعاتنا المقاتلة... غايتها تثبيت مواقع متقدمة في مناطق»...

برغم الإزعاج الذي قد يسببه هذا النبأ وفي إطار حملتها الإعلانية روت الشركة قصة انتشار فروعها ووكلائها في المناطق اللبنانية بأسلوب بات مألوفاً مع أوضاعنا الحالية.

ودخل هذا الإعلان - الحربي في الحياة الثقافية اللبنانية، فكانت الإعلانات عن أعمال مسرحية تستوحي تلك المظاهر الانفعالية من الخطاب السياسي: «أمرك سيدنا» المسرحية التي منع عرضها وخطف أبطالها في العهد السابق، وكذلك الإعلان عن مسرحية «الحلبة»... صرخة الشعب ضد جلاديه... مسرحية ضد الحرب، أو مسرحية «بليز مع وقف التنفيذ... مسرحية بتفطس من الضحك»، وكذلك تجارب وكاسيتات زياد الرحباني من «هدوء نسبي» و«شريط غير حدودي» و«العقل زينة»...

لا ينكر أحد مكانة وكالات الإعلان في لبنان واحتلالها مراكز مهمة في عالم الإعلان العالمي من حيث الابتكار، وقد فاز عدد منها بجوائز عالمية، لكن الحرب هي الحقل الخصب للابتكار وقيام ما يسمى «الإعلان الحربي الساحر».

(جريدة «الحياة» ـ ٢٢/ ١٢/ ١٩٩٠)

- ١٤ -

المتعهدون

لا توجد بطاقة هوية واضحة الملامح لمتعهد الحفلات الفنية في لبنان، كما تبدو لنا في شخصية المنتج الهوليوودي، أو المتعهد المسرحي في برودواي، حيث التركيبة المؤسساتية، وحيث المنتج أو المتعهد صاحب مهنة كاملة لا غبار عليها، فالمنتج اللبناني غالباً ما تقدمه السينما المصرية القديمة في أفلامها بوصفه محتالاً لا يهمه سوى الربح السريع، مع الإشارة لطرافته وظرفه وطيبته أحياناً. وهذه الصورة السينمائية تؤكد الريادة اللبنانية في عالم التنشيط الفني العربي وإدارته. وتؤكد أيضاً «المغامرة اللبنانية» في طرق باب القطاع الفني من زاوية قطاع الخدمات المحببة لدى اللبناني الذي اعتاد نظام الاقتصاد الحر في النظام اللبناني كقانون مقدس لا تمس محارمه، ولذا لا يمكن إغفال دور المنتج اللبناني في تحريك الصناعة السينمائية المصرية وفي تسويق نتاجها، وتوزيع أفلامها في العالم العربي.

وجوه متعددة

تتشعب مهمات المنتج اللبناني، فهو موزع الاهتمامات

والنشاطات: ينتج أفلاماً ويوزعها، وتارة يتعهد مطرباً أو يدير أعمال راقصة، وتارة أخرى ينظم رحلة فنية استعراضية. لذلك لم تستو هذه الشخصية على مثال واحد محدد. فيختلط المنتج بالمتعهد والمتعهد بمدير الأعمال، ومدير الأعمال بصاحب المطعم أو الملهى... أو صاحب الصالة المسرحية والصالة السينمائية.

يجد مدير الأعمال أساس عمله في إدارة شؤون فنان ما مطرباً أو نجماً سينمائياً أو مسرحياً. وكذلك في بحثه عن مطربة صاعدة لاكتشافها وتعهدها وتقديمها للناس كسلعة جديدة في السوق الفني.

ويعتبر مدير الأعمال المخطط والمدبر لشؤون الفنان العامة والخاصة والمهتم بأموره المالية وعلاقته بالصحافة. وهو الوسيط أو «السمسار» الذي يعرض «بضاعته» على صاحب الملهى بالإضافة إلى إيصال هذه البضاعة إلى أوسع شريحة جماهيرية. وقد يتدخل مدير الأعمال في علاقات الفنان الخاصة من حب وزواج وكذلك في صورته الشخصية وزيه ونمط سلوكه. وذلك ليخرج الفنان في أبهى حلة مادية ومعنوية، باعتباره الدجاجة التي تفقس ذهباً! فلا بد إذن من رعايته والإشراف حتى على نوعية طعامه، وعلاقاته الاجتماعية. فكم من زواج أشرف عليه المتعهد بين هذا المطرب وتلك الممثلة، أو بين المطربة وذلك السياسي، وهذا ما يرفع من قيمة أجر المطرب واستمرار حضوره وانتاجه.

متعهدون كثيرون رفضوا إجراء مقابلة صحافية لفتح ملف ذكرياتهم، بعضهم احتج بسر المهنة، والآخر اعتبر أن الكلام لا يقال مجاناً. ولكن ثمة متعهد يدعى عفيف بيضون (٤٠ سنة) وافق على الحوار مشترطاً الأمانة في القول عن المتعهد كصاحب

مهنة راقية أولاً، وثانياً عدم استعمال أداة تسجيل لأسباب خاصة.

يقول عفيف بيضون عن بدايته الأولى «أن منزل يوسف الحاج (أحد كبار المتعهدين الفنيين) كان قريباً من منزلنا، وكنت صبياً صغيراً أحب الموسيقى، وأستمتع برؤية المطربين والمطربات الذين يفدون إلى منزله مثل محمد عبد المطلب وصباح. لذا أخذت أتردد على منزله وأقنعته بأن أعمل لديه. وهكذا كان.. وتعرفت إلى راقصة في أحد ملاهي الزيتونة، وأنا في الخامسة عشرة من عمري، فتركت الدراسة وأصبحت رفيقها وانطلقت معها.. أنتظرها لتنهي وصلتها وأنام في منزلها وأقبض أموالاً طائلة في ذلك الزمن. من هنا تعرفت على خفايا الوسط الفني في علاقاته وكواليسه. ولكنني كنت أشعر بأنني «زوج الست»، فتركت الراقصة، وعدت إلى العمل مع يوسف الحاج، حيث كنت ألصق الأفيشات وأعلق اليافطات، وأقدم القهوة، وأقوم باستقبال الفنانين. حتى أن يوسف الحاج وثق بي، وأخذ يرسلني إلى القاهرة لأتفق مع أهم المطربين كعبد الحليم حافظ وفريد الأطرش».

لعب المتعهد اللبناني دوراً مهماً في تنشيط الحركة الفنية في العالم العربي حيث شهدت مراكز الاصطياف اللبنانية حضور معظم المطربين العرب على خشبات مسارح بعلبك وبيت الدين وعاليه وبحمدون. ويفتخر عفيف بيضون بمعلمه يوسف الحاج لكونه قام بمصالحة مشهورة بين فريد الأطرش وعبد الحليم حافظ بعد جفاء دام سنوات. حدث ذلك حين استقدم يوسف الحاج كلاً من فريد وعبد الحليم لإحياء حفلة فنية في لبنان، ثم جمعهما معاً في فندق واحد، وأحضر الصحافيين ورتب لقاء بينهما بالصدفة فتصالحا. ثم جمع المطربين في حفلة واحدة وكانت ضربة معنوية وتجارية كبيرة.

من الذكريات التي لا ينساها عفيف عن عبد الحليم حافظ أنه عندما كان يحيي أحد مهرجاناته الغنائية في مسرح بيسين عاليه، طلب من الجمهور أن يختار إحدى أغانيه فوقف أحدهم وطلب أغنيته العاطفية «أهواك» لكن واحداً آخر طلب أغنيته السياسية «جمال... يا حبيب الملايين» فانقسم الجمهور قسمين إلى حد الصراخ والشتائم المتبادلة ..وبدأ العراك بقناني المرطبات والكراسي... وتدخل رجال الأمن، ثم حسم عبد الحليم حافظ الخلاف، وغنى مقطعين متتاليين من الأغنيتين «أهواك» و«يا جمال»، فطيب الخواطر جميعها، وأرضى الجمهور اللبناني المنقسم قبل حربه الأهلية.

ويذكر عفيف بيضون كيف حصل خلاف كبير بين فريد الأطرش وأحد الأثرياء عندما كان فريد يعزف ويدندن على عوده أغنية «عدت يا يوم مولدي» فتقدم منه الثري وأخذ يرميه بأوراق مالية فصرخ فريد في وجهه:

«إيه التخلف دا... أنا لن أغني إذا لم تلم أموالك...». وأذكر أن الثري شعر بالخجل وانسحب مع أمواله إلى خارج الصالة. وتابع فريد الأطرش الغناء وسط تصفيق حاد.. وفي حفلات الصيف كان يمنع تقديم أي طعام أو شراب أثناء الحفلة، فشتان بين الأمس واليوم، حيث تحول الغناء إلى قرقعة صحون وملاعق.

بعد أن أصيب معلمه ـ يوسف الحاج ـ في بداية الحرب الأهلية، وتوقف النشاط الفني عموماً في لبنان سافر عفيف بيضون إلى اليونان حيث كان يعمل أحد أقربائه في مطعم يوناني وكان لا يملك في جيبه سوى خمس ليرات، وهناك دله صاحب المطعم على ملهى لتقديم «وصلة فنية» للسياح العرب الوافدين من الخليج

بعد اندلاع الحرب في لبنان. وكُلف عفيف بمهمة تأمين برنامج فني ناجح. وبما أن «وليد توفيق، صديقي، كان في بداياته الفنية الأولى بعد نجاحه في استوديو الفن، فقد بحثت عنه، ووجدته يغني في فندق الميريديان في دمشق، فاتفقت معه على تقديم حفلتين في اليونان، واصطحبته مع الفرقة الموسيقية، وقدمنا بدل الحفلتين شهراً كاملاً من الحفلات، وتوالت العقود، لأن الحجوزات في المطعم اليوناني أخذت تتدفق من الجاليات العربية وكذلك من السفارات العربية، وما أذكره أنني ألبست وليد توفيق العلم اللبناني لنذكّر العرب بلبنان وطيرت الحمائم فوق رأسه لأذكر بالسلام، وكان ذلك العام ١٩٧٦. وحقق وليد توفيق من بعدها نجاحه، وحققت أنا مبلغاً مهماً واشتريت بناية في بيروت لكنها احترقت في إحدى المعارك»

يلعن عفيف بيضون الساعة التي قرر فيها العودة إلى لبنان بعد أن صدق أن الحرب انتهت بعد واحدة من جولاتها. يومها ركز نشاطه في بيروت، وخسر مبالغ طائلة، وبدأ ينحدر، شيئاً فشيئاً، بعد أن أصبح متعهداً لمطربين صاعدين من الدرجة الرابعة والخامسة. ويذكر أنه يملك شريط كاسيت نادراً لعبد الحليم حافظ يغني فيه لصديقه كيغام في ملهاه أغنية «أنت عمري» لأم كلثوم. وهذا الشريط «سجلته سراً وأحتفظ به لنفسي، كذكرى من أيام عز ماضية».

ثمة تفاصيل تبحث عنها في يوميات المتعهد.. ويحاول عفيف بيضون أن يلقي ضوءاً خافتاً على أسرار هذه المهنة المعقدة في تركيبها وتفاصيلها. ويحاول أن يعطي نموذجاً حياً للنشاط الذي يقوم به فيروي على مصطفى: «في أحد الأيام جاءني إلى المقهى

شاب وقال لي أنا مطرب كنت أغني في الخليج وأريد الآن أن تقدمني وترعاني وتتعهدني في لبنان. سمعت صوته الجبلي، واتفقنا في بداية مشواره ألا يلتفت كثيراً إلى جني المال قبل أن يهتم بصورته الفنية. فاشتريت له بدلة، واتفقت مع صاحب ملهى أن يقدمه في برنامجه. والصقت صورته على جميع جدران بيروت، وعلقت اللافتات واليافطات عند أبرز المنعطفات والواجهات. ثم أخذت أقدمه للصحافة الفنية على أن يدفع في المقابل ثمناً لصورته كإعلان. وكان يرفض فأقنعه بذلك. ثم أخذت أتردد على إذاعات الـ «أف .أم» وأحملها على بث بعض أغانيه لقاء مبلغ معين. وهذا من شروط المتعهد الناجح الذي يولي «الصحافة السمعية» والمكتوبة أهمية بالغة في ترويج مطربه. وهذا لا يكفي. لذا كان من الضروري أن تكون له امرأة ترافقه كأنها معجبة به ويجب أن تكون مثيرة وجميلة وذكية لتقربه من الوسط الاجتماعي المتعدد الانتماءات. والمرأة، لا أخفيك، كنا ندفع لها مبلغاً معيناً. وأخذت أعرفه على بعض الملحنين والمؤلفين، ونشتري له أغاني خاصة. وبدأ اسمه يلمع. وبعد أن تعبت كثيراً في تقديمه للناس، أخذت أعمل على أن يكون حاضراً في حديث الصحافة. فكنا نخترع الشائعات حول زواجه من فلانة، أو مرضه، أو إصابة منزله في الحرب... أو أنه من عائلة ثرية تبرأت منه بسبب إقدامه على الفن. لا بد من فضيحة دائمة ترافق المطرب لكي يكون مثيراً للكلام والشائعات».

وفي سياق الحديث يستطرد عفيف بيضون: إن أحد المطربين مثلاً سرب شائعة عن نفسه أنه مصاب بالإيدز، فأصبح مطربنا حديث الناس لمدة سنة. تارة يوضح ويستنكر وينفي، وتارة يتهم آخرين بالحسد، والصحافة تدور ألسنتها وتكتب.. وينجح المطرب في تلك الحملة الإعلانية المنظمة.

وتابع قائلاً: تترافق مع هذا الإعلان المكتوب إثارة مفتعلة عبر اجتياح ضخم من الصور الملونة على جدران المدينة المهترئة في ظل غياب الدولة ويصبح المطرب بطلاً، عبر تأثير نفسي يشرف عليه المتعهد بممارسة عملية إقناع خفية تؤكد نجومية المطرب المكتشَف.

بعد هذا الجهد الذي يقدمه المتعهد، يصبح المطرب نجماً، ويبدأ بالتمرد على الذي حاول تقديمه بكل الوسائل. فيدب الخلاف وتنقطع العلاقات، ويعود المتعهد إلى التنازل حيناً، أو إلى اكتشاف صوت آخر.

احتيال متبادل

يعتبر المطرب أن المتعهد يحتال عليه مالياً، فينفصل عنه، وينقلب عليه ويخل بالعقد (الشفوي عموماً) ولا يعود ملزماً بالاتفاق معه ما دام هو أصبح نجماً. لذا يختار المطرب أحد أقاربه مديراً لأعماله. فراغب علامة اختار شقيقة المدرس الثانوي، مديراً لأعماله. وثمة مطرب آخر تشرف أمه على علاقاته الاجتماعية والفنية والصحافية وتقوم بزيارات متتالية للملحنين وصحافيين وسياسيين ورجال أعمال لتظهر ابنها المطرب في صورة جميلة. والأم في هذا تروج عن ابنه شائعات جميلة لتبرز براءته وجماله الفتان. لذا تهافت المعجبون والمعجبات على مطربنا، فرسمن صورته على القمصان التي جعلت الأم توزعها مجاناً على الساهرين والساهرات.

ليس من صورة واحدة لشخصية المتعهدين وملامحهم. لكن ثمة قواسم مشتركة بينهم، كالابتسامة الدائمة والتحيات المبالغ بها، وتكريم الصحافي والترحيب الحار بالسياسي، وتقبيل مدير المصرف ورجال الأعمال.

قبل الحرب الأهلية، كان لبنان حقلاً خصباً ومدى واسعاً لنشاط

متعهد الحفلات، حيث يستقدم أشهر البرامج الفنية. ومن أهم المتعهدين، يقول عفيف بيضون، كان طوروس سيرانوسيان المتعهد الأرمني، الذي تعهد أسماء عالمية لتقدم حفلاتها في لبنان، من داليدا إلى جوني هاليداي وشارل أزنافور وميراي ماتيو، وكذلك البرنامج الفني العالمي الذي كان يقدمه كازينو لبنان.

إلى بلدان الاغتراب

بعد الحرب الأهلية انتقل النشاط الفني اللبناني إلى الخارج للبحث عن مدى آخر، ولاصطياد السائح اللبناني والعربي المقيم في الخارج. فتحولت دول الاغتراب الأفريقية والأميركية والأوروبية إلى مدى واسع لنشاط المتعهد اللبناني، وهذه الأسواق الجديدة تتطلب سياسة جديدة لظهور المتعهد الناجح.

فمن شروط نجاح أية رحلة فنية إلى الخارج أن تكون «مدروسة حتى لا تقع الخسارة». يقول عفيف: يجب أن تعرف جمهورك وما الذي يرضيه ولماذا سيسهر معك... فنجاح رحلة فنية إلى أفريقيا حيث المغتربون اللبنانيون من كل الطوائف يتطلب أن يكون البرنامج مكوناً إلى حد ما من مطرب يجيد «التهييص» والفرفشة. وأن يغني أغنية عن الجنوب وأغنية عن جبل لبنان، ويرافق ذلك وصلة من راقصة ليست بالضرورة محترفة.

وأيضاً أن يجيد المطرب بعضاً من أغاني الفولكلور اللبناني كقاسم مشترك من الدلعونا والميجانا والعتابا، وإذا أمكن أن يترافق البرنامج مع فرقة دبكة صغيرة تشارك هذا الاحتفال اللبناني.

وتنطبق الشروط نفسها على رحلة فنية إلى الخليج العربي لكن مع

زيادة أغنية خليجية أو نشيد بالفصحى، إلى «أطفال الحجارة» خصوصاً لتأكيد الهمّ العربي. ولا بد أيضاً من أغنية عن لبنان المعذب، من أجل التسول العاطفي! ومما يلفت الانتباه الآن أن ثمة أسواقاً جديدة وخصبة بدأت تظهر في المهاجر اللبنانية والعربية الجديدة في الدانمارك والسويد.

احتيال

من عمليات الاحتيال التي يمارسها بعض المتعهدين الصغار، أن ينظموا رحلة فنية إلى الخارج ويتركوا الطاقم الفني هناك إلى التسول من المغتربين كما جرى في أحد المغتربات الأفريقية، ومن المتعهدين من يعلن عن حفلة في مغترب، ويقبض نصف الأموال من البطاقات المباعة فيبقى في بيروت، ولا تقام الحفلة.

بعض المتعهدين يجني أرباحاً خيالية من إشرافه على نوعية الطعام الرديئة والرخيصة التي تقدم في المطاعم. ومنهم من ينظم «تمبولا» (يانصيب) خلال حفلة فنية. وقد تكون الجائزة قطعة ذهبية أو لوحة فولكلورية. وذلك دعماً للمقاومة الوطنية اللبنانية أو أطفال الحجارة، وتكون الجائزة من نصيب أحد أصحاب أو أقارب المتعهد بالتواطؤ معه. ويقع الخلاف بين المطرب والمتعهد حين يبيع المتعهد بطاقات شرف لزعيم ميليشياوي أو تاجر بسعر يفوق السعر المتداول، ويحصل على المال لحسابه الخاص أو أن يقيم حفلة ساهرة في منزل سفير ويقبض ثمنها لوحده بحجة أنه يوظف ذلك لرحلة فنية إلى البلد الذي يمثله السفير.

ما يستنكره عفيف بيضون «أن بعض المتعهدين أصبح يحتكر معظم الملاهي اللبنانية، وهم يشكلون (كارتل) فنياً يعوق عمل المتعهدين الصغار. وكذلك تحول بعض رؤساء تحرير المجلات الفنية إلى

متعهدين للحفلات من خلال تقديمهم خدمات صحافية مجانية للمطرب».

ويروي عفيف بيضون عن أحد المتعهدين الجدد أنه يشرف على برنامج تلفزيوني ويستغل منصبه لتقديم بعض المطربين في حلقات تلفزيونية. وبعدها يقدم المطرب للمتعهد - التلفزيوني وصلة في أحد المطاعم بنصف أجر، كخدمة، مقابل إظهاره على شاشة التلفزيون.

ثمة علاقة خفية بين السياسي ومتعهد الحفلات. فلكثرة من المتعهدين ارتباطات سياسية معينة وحتى مخابراتية، حيث يتوسط المتعهد لإقامة صلة ما بين مطربة أو راقصة وسياسي معين، لأغراض مخابراتية عربية أو عالمية.

ويؤكد عفيف بيضون أن بعض المتعهدين كان يزود أحد الزعماء بالراقصات فجنى أرباحاً خيالية من ذلك.

وهناك متعهدون كبار يحظون بعلاقات جيدة مع سياسيين يقدمون لهم تسهيلات إدارية لتنظيم حفلاتهم، وكذلك مع إدارات الفنادق الكبرى التي تقدم المطرب في شبكة فنادقها المنتشرة في العواصم العربية.

ويستطرد عفيف بيضون أن النقوط التي تقدم للمطرب ظهرت أولاً في مطعم لندني حيث أخذ الأثرياء يرشون الجنيهات على المطربين والراقصات. وبعدها انتقلت هذه الظاهرة إلى القاهرة وبيروت وتمّ تعميمها على جميع الملاهي العربية.

تنطبق الشروط نفسها في عالم الطرب وعالم الانتاج المسرحي، فالمتعهد هو نفسه المنتج المسرحي. ويعتبر يوسف الحاج مثلاً واحداً من كبار المنتجين المسرحيين. قال: «خسرت ٥٠ ألف دولار لقاء

انتاج مسرحية «العصافير» لروجيه عساف والسبب في ذلك يعود إلى أنه لم تكن هناك «بنت حلوة» في المسرحية، ولم تكن هناك إشارات جنسية أو سياسية. فالناس تريد أن تتنفس»!!

الابتذال إذن هو سيد الإنتاج المسرحي الراهن. والخطورة تكمن في سيطرة المنتج المسرحي على الخشبة المسرحية. ففي بيروت الآن خمس عشرة صالة مسرحية يشرف عليها ثلاثة منتجين مسرحيين، يقررون نوعية المسرح الذي يريدون تقديمه.

(جريدة «الحياة» ـ ١/ ٢/ ١٩٩١)

نيكول بلاّن:
حرية بين أربعة جدران

ذات ربيع لبناني، وبعد أول كذبة من نيسان/أبريل ١٩٩٥، قرر الخطيبان مروان كيروز ونيكول بلان، أن يتمتعا في غرفة ضيقة من «شاليه» مشرفة على البحر المتوسط، وفي لحظة خيال ولذة وخطر، قررا أن يمارسا الحب أمام كاميرا ثابتة، والجنس يحتمل اللعب واللهو فلعبا. حيث بين لحظة وأخرى كان الرجل يقوم وينهض ويضبط الكاميرا على امرأة تقفز على السرير وتمد لسانها وتضحك، كأنها دمية ساذجة، ثم يبتسمان معاً للعدسة، وتتحول الكاميرا مثل مرايا غرف النوم، يلتفتان إليها طوال الوقت ثم يمارسان الحب مثل بقية البشر في لبنان والعالم. يتفرجان على «المونيتور» ويراقبان جسديهما كأنهما يتعرفان عليهما لأول مرة.

الرجل يأمر ويقود، ويستعرض، يملي عليها الكلام، ثم يضبط الكاميرا وينتهي الشريط. وتنتهي حياة فتاة مقابل ٥٠ دولاراً ثمناً للشريط.

وعلى غفلة منهما، يسرق الشريط ويُسرّب إلى خارج الغرفة.

تتسرب الأسرار المقدسة. تتسرب الأجساد إلى شاشات عرض موزعة بين الأحياء والمناطق.

عود ثقاب أشعل غابة من «القيل والقال». وتشتعل «الوصيفة» وخطيبها المهندس، أمام أبناء الجمهورية اللبنانية.

لعبت نيكول بالنار وأحرقت أصابعها وسمعتها، ولا من إطفائي في العالم يستطيع أن يخمد نيران الألسنة ولهب العيون المتوهجة التي اندلعت في البلاد وخارجها.

وأخيراً، اتفق اللبنانيون على عدو واحد ومشترك يدعى «شريط نيكول بلان»، وتناسى الجميع ما يجري من إحباط وتحرير وتمديد لمجلس أو تعديل لمحافظات، لدرجة أن معدل النمو الاقتصادي قد ارتفعت أسهمه بوتيرة ملحوظة. أخبرني صاحب أحد محلات بيع أشرطة الفيديو «نحن نشكر نيكول، لأن نسبة مبيعاتنا من الأشرطة الفارغة ارتفعت بدرجة مذهلة...». وكل ذلك من أجل النسخ الهستيري لـ «الشريط»... وبيعه إلى الخارج.

أخطر ما في القضية هو استغلال البعض للضجة، حيث يتم بيع مقتطفات من أشرطة «بورنو» الدوبليرة الرومانية» على أساس أنها لنيكول. ويصدّر الشريط إلى الخليج وأفريقيا مقابل ٥٠٠ دولار للشريط.

ارتفع معدل النمو والذكاء اللبنانيين في الترويج والتسويق. وازدهرت قطاعات خدماتية من شركات البريد السريع، وارتفعت نسبة فواتير الاتصالات الخلوية الخارجية وحققت المجلات الفنية فائضاً في مبيعاتها. وأصبح الشريط أحلى هدية، ما خف وزنها وغلا ثمنها، يمكن أن تقدمها لأحد ما عزيز عليك، لرب عملك ليرفع راتبك، أو على البيعة لصفقة تجارية، هدية مغرية يتبادلها

الناس في هذا الشتاء. ويحلو السهر والخيال الخصب. حتى السائقون خف احتجاجهم على الدولة، ولم يهتموا لأزمة السير والحفريات، ما دام النقاش حول حادثة نيكول. وتبدأ «الثرثرات» من صبحيات النساء إلى الحانات والمقاهي وأروقة المجلس النيابي أو الوزاري... في البيوت والجامعات والمطارات والمرافىء، والقضية واحدة: نيكول بلان...

«... بيقولوا أنها انتحرت، «ترهبنت»، «سُجنت»، «جُنّت»، مات أبوها، «أليست ابنة فهد بلان؟»، «الحق عليها... هو رجل»، «يا أخي قربت القيامة»... «الله يستر على بنات العالم»، «دخلكم من أية طائفة هي»... «خيّ مش من جَماعتنا».

هل أصبحت نيكول ملكة على فضائحنا المستترة، حيث تُبرّأ ساحات أبطال التهريب والبراميل المشعة ومعلبات الموت الفاسدة؟

ماذا لو وضعنا كاميرات خفية في غرف نوم اللبنانيين، ما الذي سنراه يا سادة الأخلاق؟

لو زرعنا العدسات في الفنادق والشقق المفروشة والمكاتب الكبرى لرجال الأعمال، أية مشاهدة سنحصل عليها؟

من يحمينا في حريتنا الخاصة، في النوم والتفكير، من دون أن يترصدنا أحد في الظلام؟ هل نحن في الطريق إلى ديموقراطية الكاميرات الخفية؟

حين تُبرّأ نيكول من تهمة الترويج للفيلم، من يعيد إليها سمعتها؟ أين ستتجول هي وزوجها مروان؟

سؤال أخير: لماذا لم تقع الفضيحة سوى على نيكول؟ ولم يشهّر بالرجل، مع أنه تعرّى ومارس ورأيناه. هل الرجل خارج الخطيئة والسمعة السيئة؟

ترى هل أشكر الله لأنه لم يخلقني امرأة، وجعلني رجلاً لأدافع عن نفسي إزاء أي اتهام!

سنبقى ندافع عن حياتنا الخاصة، عن حريتنا بين أربعة جدران، حرية في غرفة لا تؤذي أحداً.

(«السفير ـ سفير الناس» ـ ١٦/١١/ ١٩٩٥)

- ١٦ -

اللجوء السياسي

قبل أن يسلك شبان لبنان، في سنوات الحرب، دروب ما يسمى «اللجوء السياسي» إلى بعض بلدان الديموقراطيات الغربية، كانت بيروت قبلة العديد من الشبان العرب المهاجرين من بلدانهم. وفي أوروبا يلتقي اللبنانيون بمن سبقهم من شبان عرب من سورية والأردن وفلسطين والعراق ومصر وبلدان المغرب.

هذا التحقيق ينقل نتفاً من سير أولئك المهاجرين.

وقف محمد عفيف (٢٤ سنة) في ساحة قريته بجنوب لبنان وصاح في وجه من كانوا في الساحة: «أنا مهاجر إلى سويسرا، وسأجمع الدولارات بالأكياس. وعندما أعود سوف أريكم من هو محمد عفيف». كانت حقيبة السفر في يده ثم وضعها في صندوق سيارة أجرة أقلته إلى بيروت، تاركاً «جبلة الباطون» لوالده الذي يعمل مورّق بناء.

انتظر محمد نبوه (٣٢ سنة) وصول مبلغ الألف دولار من أخيه المهاجر إلى الكويت كي يعد حقيبة سفره ويهاجر إلى الدانمارك،

تاركاً إجازة الرياضيات معلقة على أحد جدران منزل أهله في برج البراجنة، من أحياء ضاحية بيروت الجنوبية. وهجرة محمود كانت هرباً من عجزه عن الانتقام لوالده القتيل خطأ برصاص أحد المسلحين من الحي. فعوضاً عن أن يكون «قاتلاً أو قتيلاً» اختار محمود الهجرة. وكانت وجهته، هكذا صدفة، الدانمارك.

نزيه (م) من قرية «صربين» المتاخمة للحزام الأمني في جنوب لبنان، يعيش على حلم الهجرة إلى مدينة «ملبورن» الأسترالية. فأمه التي سبقته إلى الهجرة مع أولادها أرسلت له «شريط كاسيت» تقول فيه: «نحن هنا في أستراليا نشتري الدجاج بالصناديق، والثلاجة مليئة باللحم... وأنا آخذ مصروفي من الدولة، وأخوك يعمل في ثلاث مهن دفعة واحدة... ولا ينقصنا سوى أن تحضر أوراق عائلتك وتأتي إلينا». والغالبية العظمى من سكان صربين توزعتهم الهجرة بين بيروت وأستراليا. ونزيه، سعياً إلى تحصيل تكاليف الهجرة المرتقبة، جعل يعمل إلى جانب كونه معلم مدرسة في القرية، بائع عطورات وأحذية لقوات الطوارىء الدولية العاملة في جنوب لبنان، إضافة إلى عمله في صناعة الفحم في المشاحر التي يقيمها على التلال القريبة من القرية. وذلك بعد أن سادت هذه «الصناعة» أعقاب غياب سلطة الدولة ورقابتها على الأحراج ومنع الأهالي من قطعها.

عادل شحادة (١٩ سنة) كان «محارباً على كل الجهات في لبنان» كما يقول، وقرر أخيراً أن «يغير حياته ويسلك طريق المغامرة». اشترى شهادة بكالوريا ـ قسم ثانٍ ـ مزورة وأرسل بطلب تسجيل إلى إحدى جامعات أميركا، مع صديق، أمن له القبول فيها. وانتقل عادل إلى دمشق وحصل على تأشيرة دخول طالبية من السفارة

الأميركية. وحين سألناه عن قدرته على متابعة تحصيله العلمي، قال إنه في حال تعذر ذلك سوف يعمل بالتهريب في ديترويت. أما إذا لم تجر الأمور على ما يرام في التهريب، فسوف ينتقل بتأشيرة الدخول الأميركية إلى كندا، حيث سيتزوج من إحدى الفتيات الكنديات ويحصل على إقامة ثم على جنسية كندية.

مسالك الهجرة وشبكاتها

لضروب الهجرة طرقها وخفاياها. فلا الرغبة فيها تفضي إليها بسهولة ولا العزم عليها يفضي إلى دخول مسالكها المتعرجة. فمن يضعها نصب رغبته عليه قبل كل شيء أن يحصل على معلومات من تجارب من سبقوه إليها. وهذه المعلومات غالباً ما توصله إلى من امتهن تدبير أمور مسالكها وطرقها، المشروعة منها وغير المشروعة. وهؤلاء المتهنون من «سماسرة الهجرة»، محترفو «التزوير» وخبراء «الاحتيال» على القوانين الدولية والإقليمية، شاعت مهنتهم هذه في لبنان على نحو واسع عقب الاجتياح الإسرائيلي.

بصعوبة وعبر شبكة من الوسطاء توصلنا إلى مقابلة أحد هؤلاء السماسرة في مكتبه الذي استقل بغرفة من غرف بيته، ولا شيء في الغرفة يوحي أنها مكتب غير خارطة العالم المعلقة على الحائط وحقيبة «السامسونيت» الموضوعة على الطاولة. سؤالنا الوحيد كان:

كيف نصل إلى سويسرا؟

وتولى صاحب «المكتب» شرحبل الوصول إلى سويسرا وغيرها من بلدان أوروبا، على الخريطة. وضع إصبعه على إيطاليا، وقال: يبدأ الأمر بالحصول على تأشيرة دخول سياحية إلى إيطاليا. وفي روما

على المسافر ـ المهاجر أن ينتقل من المطار إلى محطة للقطارات الكبرى، حيث يستقل قطاراً متجهاً نحو الحدود السويسرية. وهنا يجب على المسافر أن ينزل من القطار في المحطة الأخيرة لأخذ سيارة تاكسي إلى أي عنوان داخل الأراضي السويسرية. وبعد الوصول يمكن الاتجاه إلى أقرب مركز للشرطة، حيث يعلن المسافر عن طلبه اللجوء السياسي.

محمد عفيف الذي «توعّد» أهل قريته «بأكياس من الدولارات» يجنيها من سويسرا، نفذ ما طلبه منه أحد سماسرة الهجرة: سلم نفسه للشرطة السويسرية ومزّق جواز سفره كي يقطع كل احتمالات العودة إلى بلده. الشرطة السويسرية اعتقلته وحققت معه بتهمة «الإرهاب» قبل أن تسلمه بعد شهر للسلطات الإيطالية التي أعادته بدورها إلى لبنان. وفي قريته راح يسعى مجدداً للسفر إلى ليبيا: «كيف يمكن أن أستسلم لخيبة تجربتي الأولى؟» قال. وانتقاء ليبيا وجهة جديدة للهجرة لا يتفرد بها محمد ولا يعود له سبق اكتشافها. فمع إعلان السلطات الليبية عن سماحها دخول كل عربي إلى أرضها من دون الحصول على تأشيرة دخول ومع إرسال الأحزاب اللبنانية اليسارية أفواجاً من مقاتليها إلى الجماهيرية للقتال في تشاد، صرت ترى أفواجاً من الشبان اللبنانيين ممن ضاقت بوجههم سبل العمل في بلدهم، يفترشون أرض مطار بيروت وأثينا في اليونان بانتظار الطائرة التي تأخرت عن موعدها في الاقلاع إلى ليبيا ليوم أو يومين. ومن تجربة أحد العائدين خالي الوفاض من بنغازي (مهندس مدني من إحدى جامعات أوروبا الشرقية)، أن الحصول على عمل في ليبيا يكاد يكون مستحيلاً. وفي حال الحصول عليه، فإن القانون يمنع تحويل الأموال أو نقلها

إلى الخارج. لذا يلجأ المهاجرون إلى الطريق غير المشروعة، بأن يخبئوا ما في حوزتهم من مال في كعب الحذاء أو في الملابس الداخلية.

والسفر إلى الدانمارك، بحسب «سمسار الهجرة» له طرقه المختلفة عن الأولى. يجب أولاً الحصول على تأشيرة دخول سياحية إلى بولندا، وهذا أمر سهل. ومن بولندا يركب المهاجر باخرة متجهة إلى الدانمارك، عن طريق رشوة أحد موظفي الجمارك البولنديين، وهذا أمر سهل، في الدول الاشتراكية كلها. ومحمود نبوه، ابن برج البراجنة، الهارب من تبعة الأخذ بثأر أبيه، سلك الطريق نفسها إلى كوبنهاغن، حيث يعمل مترجماً لدى الصليب الأحمر الدولي في المخيمات التي أقامها للمهاجرين، وهو بحسب رواية أهله، وبرأي أخيه الأصغر لن يعود من الدانمارك ما دام قاتل أبيه يتبختر بسيارته في الحي.

أما الهجرة إلى أستراليا، باعتراف صاحب «مكتب الهجرة» فمستحيلة حتى الآن بالطرق غير المشروعة. إذ يستلزم الحصول على تأشيرة دخول إلى أستراليا تقديم ملف عن حال طالب الهجرة تدرسه السفارة بدقة، ومن شروط تقديم الطلب أن يحتوي الملف على مستندات من أقارب مقيمين في أستراليا نفسها. وهذا ما حصل عليه المدرس نزيه الحالم بلحاق أمه وأخوته إلى بلاد «الكنغارو». إلاّ أن طلبه المقدم إلى السفارة الأسترالية بدمشق، مستوفياً الشروط القانونية، أعيد إليه بعد أن أصدرت الحكومة الأسترالية قراراً بالحد من هجرة اللبنانيين إلى أراضيها. وعلى الرغم من ذلك لم تتوقف مساعي أم نزيه وحضها ابنها على الهجرة، كما لم تتوقف أحلام الهجرة عن مراودة نزيه، فيما هو ينتظر وصول

مرتب جندي فنلندي ابتاع منه بالدين، زجاجة عطور وأرسلها إلى زوجته في فنلندا.

«فيزا» إلى كل أنحاء العالم

صاحب «مكتب الهجرة» يعمل بالأصل سمساراً متجولاً في حقل بيع وشراء العقارات، قبل أن يتخذ من غرفة في بيته مكتباً وضع على بابه لافتة حديداً كتب عليها: «نؤمن فيزا إلى جميع أنحاء العالم». واستهل الحديث عن مهنته بأنه «يوفر على الزبائن مشقة السفر إلى دمشق» التي انتقلت إليها السفارات الأجنبية من بيروت، بعيد «انتفاضة السادس من شباط» ١٩٨٤. أما ما يتقاضاه لقاء ما يقوم به من «خدمات» في ترجمة المستندات والحصول على «الفيزا» فيبلغ ٣٠٠ دولار.

وتأشيرات الدخول المزورة؟

لست ممن يتعاطون هذه المهنة، يقول. أنا أحصل على تأشيرات دخول قانونية وأرشد الراغب في الهجرة إلى سبل تمكنه من «اللعب على القوانين» وطرق توصله ليكون «لاجئاً سياسياً» على نحو مشروع.

لكن تقارير الأمن العام اللبناني أشارت منذ مدة إلى أن شخصاً مجهولاً انتحل اسماً مزوراً، عمل لفترة في بيع تأشيرات دخول مزورة إلى ألمانيا الغربية لقاء ٥٠٠ دولار للواحدة منها، ثم هرب إلى خارج لبنان. وفي خبر نقلته الصحف جاء أن الشرطة الألمانية الغربية اعتقلت عصابة من مهربي اللبنانيين من الأراضي اللبنانية، مقابل رسوم وصلت إلى ألفي دولار عن الشخص الواحد. وورد في الخبر أن مجموعة من السيدات اللبنانيات والألمانيات الغربيات

(بزعامة لبنانية) قد اعتقلن في جنوب ألمانيا، أثناء قيامهن بتهريب دفعة من المهاجرين.

والمعروف أن ألمانيا الغربية تعتبر المركز الأول المفتوح لاستقبال المهاجرين، خصوصاً من الأتراك والعرب، بسبب قانون الهجرة الألماني الذي وضع بعيد الحرب العالمية الثانية، من ضمن الثمن الذي دفعته ألمانيا ولا زالت تدفعه، «تكفيراً» عن جرائم النازية.

وكيف يعيش المهاجرون العرب الذين يمنحون حق «اللجوء السياسي» إلى ألمانيا الغربية؟.

زاهي نصر الذي قضى حوالى ستة أشهر هناك، بصفته «لاجئاً سياسياً»، أفاض في الحديث عن تجربته بين برلين الغربية وفرانكفورت وغيرهما من المدن الألمانية. زاهي دخل إلى برلين الغربية عبر الحدود مع برلين الشرقية، برفقة رجل عرّفه إليه أحد أصدقائه، وما لبث الرجل أن اختفى في برلين الغربية ليتركه وحيداً ضائعاً في بلد غريب، وهو ابن الثامنة عشرة اليائس من الحرب في لبنان.. وقد اكتشف زاهي لاحقاً أن الرجل الذي اصطحبه وساعده في حمل إحدى حقائبه كان تاجر مخدرات.

بين النوم في الحدائق العامة ومحطات المترو وأكشاك الهاتف العام قضى زاهي فترته الأولى متشرداً ليتجنب لقاء الشرطة.. اكتشف لاحقاً النوم الآمن داخل المراحيض العامة التي يقفل أبوابها من الداخل ولا يستيقظ إلاّ على خبط الباب من الخارج عند الفجر. والتجربة التالية لزاهي في مهجره الألماني كانت في تعرفه إلى شلل من شبان المغرب العربي في ألمانيا. تعرف إلى أحدهم في محطة من محطات المترو، ووعده هذا بإقامة مريحة معه في غرفة يستأجرها، إلاّ أنه اختفى بعد ساعات من لقائهما، هارباً بحقيبة ثياب زاهي

وبعض من أشرطة تسجيل لأغنيات فيروز، كان شديد الحرص عليها. حدث ذلك كله قبل أن يحصل زاهي على تأشيرة تثبت أنه «لاجىء سياسي» ساعده في الحصول عليها شاب تركي عرفه على محام ألماني يتدبر أمر المهاجرين من أمثاله. قدم المحامي تقريراً إلى إحدى المحاكم، اعتبر فيه زاهي «محارباً في صفوف إحدى التنظيمات اللبنانية، هرب إلى ألمانيا نتيجة خلاف سياسي هدد حياته في بلده».

الدعوى التي قدمها المحامي أحالت زاهي إلى أحد مراكز الشرطة، حيث سحب منه جواز سفره، وأخذت بصماته، وأعطي ورقة تثبت أنه مقيم كلاجىء سياسي، وسلّم إلى الصليب الأحمر الذي ألحقه بمجمع سكني للمهاجرين استخدم كمعتقل في الحرب العالمية الثانية. وفي ذلك المجمع التقى زاهي بحشود من اللاجئين من كافة الجنسيات العربية: لبنان، فلسطين، العراق، الجزائر، المغرب، تونس... فضلاً عن مجموعات من الأفارقة والفيليبينيين والفيتناميين والأتراك. كان هذا التجمع عبارة عن مختبر أول للاجئين، من أهدافه التعرف على ميولهم المهنية، عبر قيامهم بزيارة أسبوعية إلى «مراكز الإنعاش الاجتماعي» يحصل الواحد منهم فيها على مئة مارك بانتظار توزيعهم على مراكز أخرى ثابتة في أنحاء ألمانيا.

بعد ثلاثة أشهر من الانتظار والزيارات الأسبوعية أرسل زاهي إلى مدينة «هاغن» في الغرب الألماني مع مجموعة من أقرانه، قامت باصات بنقلهم ليلاً وتوزيعهم على مؤسسات تستخدمهم في أعمال متنوعة، وكان نصيب زاهي منها الخدمة في مصح للعجائز والمعوقين عقلياً، حيث وجبات الطعام لأمثاله قوامها الحساء

الساخن. أما الاقامة، خارج دوام العمل، ففي غرف مبنى كبير ضمت الواحدة منها حوالى عشرة شبان من جنسيات عربية مختلفة.

الانحراف والتوبة

مع شلة من أولئك الشبان بدأ زاهي هاوياً في «عصابة» للسرقة، تألفت من اللاجئين. وكانت البداية تكسير آلات بيع علب التبغ الميكانيكية وآلات الهاتف العامة، للحصول على علب التبغ وقطع النقود منها. لكن الهواية أو النزعة ما فتئت أن تحولت «حرفة» منظمة، «بالإغارة» على محلات السوبرماركت حيث يملأ أفراد «العصابة» أكياسهم بالمعلبات والأدوات الكهربائية الصغيرة المتنوعة. أما في محلات الألبسة الجاهزة الكبرى، فكانوا يقومون بارتداء الثياب الجديدة تحت ثيابهم، وحين ارتدى زاهي سترة من الجلد أمسكت به الموظفة على باب المخزن، لأن السترة التي ارتداها كانت نسائية، وبعد أن استدعت الموظفة الشرطة، اعتقل زاهي لمدة عشرة أيام، أفرج عنه بعدها بغرامة مالية. إلاّ أن الحادثة لم تمنعه من متابعة «مهنته» التي بات مدمناً عليها. والمسروقات من مسجلات وأدوات كهربائية والكترونية وثياب داخلية وألعاب للأطفال، أقيمت منها «معارض» نهارات الآحاد في المبنى الذي يقيم فيه أعضاء الشلة ـ العصابة.

وزبائن هذه المعارض في الغالب من اللبنانيين ممتهني تجارة السيارات المستعملة بين ألمانيا ولبنان. أما أشهى المسروقات لزاهي فكانت معلبات الكافيار الباهظة الثمن. وعندما ألف أصحاب المحلات وموظفو المخازن الكبرى وجوه العصابة وعملوا على مراقبتهم، قاموا بشراء سيارة صغيرة جعلوا ينتقلون بها «للإغارة» على مخازن

ومحلات مدن أخرى قريبة. وبعض أفراد هذه العصابات اتجهوا إلى الاتجار بالمخدرات بين طلاب المدارس والجامعات والهيبز والعجائز في الحدائق العامة.

ويتحدث زاهي عن «العنصرية ضد العرب، والأجانب من غير الأوروبيين في ألمانيا». ودليله على ذلك اشتباكه وأفراد شلته مع عصابات من «البانك»، من الشبان الألمان الذين كانوا يلاحقون «الشبان العرب» على دراجاتهم النارية وبسلاسلهم المعدنية. مما دفع بهم إلى الانضواء في شلل حتى أثناء السير في الشوارع، الأمر الذي جعل يزيد من لحمة العصابة وتماسكها، ومن مظاهر ذلك التماسك أن العصابة كانت تخصص يوماً كاملاً للسرقة لحساب من قرر منها العودة إلى بلده، حتى لا يعود خالي الوفاض إلى أهله. وحين مات شاب أردني من العصابة، بسبب انفجار قرحته ليلاً، راح أعضاؤها يجمعون ما في حوزتهم من مال لشحن جثته إلى عمان. أما الحادثة المفجعة التي دفعت بزاهي إلى العودة إلى لبنان، فكانت رؤيته لأحد أعضاء العصابة من تونس، يرمي بنفسه تحت عجلات قطار في إحدى المحطات. والخلافات والشجارات التي كانت تحصل بين أعضاء الشلة الواحدة في الغرف الضيقة كانت في الغالب تفضي إلى استلال سكين مطبخ إن لم تنته بإشارة من زعيم الغرفة الذي كان فلسطينياً.

عودة زاهي من ألمانيا كانت بمثابة «معجزة»، بحسب تعبيره. معجزة خلاص من الضياع والإدمان الكاملين. ففي صبيحة يوم ماطر خرج من الغرفة قاصداً إحدى مؤسسات الرعاية الاجتماعية التي تشجع اللاجئين على العودة إلى بلدانهم، بتقديم بطاقات السفر لهم، ذهب زاهي إلى المؤسسة وقال للموظفة أنه يريد العودة لأن أهله

ماتوا في غارة إسرائيلية على لبنان، كما أبصر في منامه، فحصل على بطاقة سفر، وأعلن «توبته» وفتح صفحة جديدة من حياته.

(جريدة «الحياة» ـ ٢٣/ ١٢/ ١٩٨٨)

مؤلفاته

ـ يحيى جابر

ـ شاعر وصحافي من لبنان

صدر له:

ـ **«بحيرة المصل»** ـ مجموعة شعرية ـ رياض الريّس للكتب والنشر (بيروت، لندن) ـ ١٩٨٨.

ـ **«الزعران»** ـ مجموعة شعرية ـ إصدار شخصي ـ بيروت ١٩٩٠.

ـ **«خذ الكتاب بقوة»** ـ مجموعة شعرية ـ رياض الريّس للكتب والنشر (بيروت، لندن) ـ ١٩٩٤.

ـ **«نجوم الظهر»** ـ نصوص أدبية ـ رياض الريّس للكتب والنشر (بيروت، لندن) ـ ١٩٩٥.

ـ **«ابتسم أنت لبناني»** ـ مسرحية ـ رياض الريّس للكتب والنشر (بيروت، لندن) ـ ١٩٩٧.

فهرس الأعلام

أ

ب

ت

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

فهرس الأماكن


يحيى جابر
عواصم من خطأ
«عواصم من خطأ» كتاب يخبر فيه يحيى جابر عن يوميات صحافي جوال على عواصم عربية، من القاهرة الى دمشق ومن طرابلس الغرب الى بيروت.
وهو كتاب لصحافي مشاكس يحاور فيه مقاتلين تحولوا الى شعراء، منقبا في أرشيف تجار السلاح، مدافعا عن نيكول بلان، مصغيا لمشردين على رصيف بلاده ولاجئين في برلين وفي أكثر من عاصمة، مصغيا للمطرب الميليشياوي ومتعهد الحفلات، ومتلصصا على شوارع في لبنان من الحمراء حتى بئر العبد.
«عواصم من خطأ» حيث عين الصحافي عين السينمائي، عين الشاعر، والعين بالعين؟
1855132850